مصر تحت الحكم الرومانى

د . فوزى مكاوى



مصر
تحت الحكم الرومانى

تأليف
نفتالى لويس

ترجمة
د. فوزى مكاوى

١٩٩٩م

الناشر
المكتب المصري لتوزيع المطبوعات
ت : ٣٦٥٥٤٨٧

هذه هي الترجمة العربية الكاملة لكتاب

LIFE IN EGYPT

under

The Roman Rule

by

NAPHTALI LEWIS

Oxford, 1983.

مصر
تحت الحكم الرومانى

فهـــرس

الموضــــوع	صفحة

المختصرات

١ ـ البـردى *Papyri*

من المتعارف عليه استخدام حرف P للدلالة على كلمة Papyrus وحرف O للاشارة الى الأوستراكا Ostraca ويعقب هذا الحرف اختصار آخر للتمييز، عادة ما يشير الى مكان العثور عليه مثل :

P. Oxy. (rhnchus)

P. Mich. (igan)

أو الى المكان الحالى المحفوظ فيه المجموعة أما الاستثناءات الرئيسية لهذه القاعدة فهى

— BGU = The Berlin Egyptian Museums' Greek « Urkunden » (documentary Papyri) :

— M. Chr., W. Chr. =

وهى سلسلة متتابعة الأجزاء أعيد فيها طبع مجموعة من الوثائق التى نشرت فى الدوريات وغيرها .
Chrestomathie of L. Mitteis and U. Wilcken, Leipzig-Berlin, 1912.

— SB = Sammel buch

اما القوائم الخاصة بكل ما نشر حتى الآن من المجموعة الأساسية للبردى والأوستراكا فهى موجودة فى :

J. F. Oates et al, Checklist of Editions of Greek Papyri and Ostraca, Bulletin of the American Society of Papyrologists, Supplement 1, 1978, with addendum to 30 June 1981.

E. G. Turner, Greek Papyri, An Introduction, Oxford, 1968, second (paperback) edition, 1980, pp. 156-71.

٢ ـ اختصارات اخرى :

IGRR = Inscriptiones Graecae ad Res Romanas Pertinentes 3 vols, Paris, 1906-27, reprinted chicago, 1975.

OGIS = Orientis Graecae Inscriptiones Selectae, 2 Vols., Leipzig, 1903-5, reprinted Hildesheim 1960.

SEG = Supplementum Epigraphicum Graecum, Leiden, 1923 —.

L—R = N. Lewis and M. Rein hold, Roman Civilization, 2 vols., New York, 1951-5.

استخدم المؤلف عددا من العبارات اللاتينية كعناوين اضافية لفصول الكتـــاب ، اقتبسها جميعـــا من تاكيتوس الذى اعتـاد التعريض بمصر والمصريين •

لمــاذا ترجمت هذا الكتاب ؟

- كنت أسعى للتأليف فى موضوع تاريخ مصر تحت حكم الرومان ، بل وكانت تؤلمنى حقيقة أن كل ما يكتب عنه لا يخرج عن كونه دراســة فى تاريخ الرومان فى مصر ٠ والفرق بين الأولى والثانية كبير فكتــابة تاريخ مصر تحت حكم الرومان تقتضى النظر فى حياة الكتلة الصامتة من الشعب المصرى وابراز جوانب حياتهم ، أما الثانية فهى تهتــم بتاريخ الرومان فى مصر عمالهــم وأعمالهم ، قواتهم وانتصاراتهم ، وهكذا نجدها تهتم بالمســتعمرين ٠

وبحثت الأمر مع عــدد من تلاميذى وزمــلائى فى الجامعات المصرية ، وقدمنا محاولة ناجحة فى هذا الاتجاه صدرت تحت عنوان مصر تحت حكم الرومان ٠ اشترك فى تحريرها عدد من شباب أعضــاء هيئات التدريس بالجامعات المصرية فى عام ١٩٨٧ ٠

ثم قرأت هذا الكتاب الذى ألفه عالم مرموق فى ميدان علم البردى ٠ ووجدته يحقق الى حد كبير ما نسعى اليه ٠ ولم أتردد فى ترجمة هذا العمل الى العربية ، واضعا فى ذهنى :

أن صاحب هذا الكتاب من أوائل الباحثين الاوروبيين فى العصر الرومانى الذى غاص الى قاع المجتمع المصرى لكى يقدم صفحة من تاريخه ٠

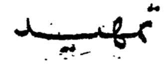
وان المؤلف صاحب خبرة واسعة بعلم البردى جعلت كتابه موثقا بدليل من أعماق التاريخ فى كل جزئية كتبها ·

أن المكتبة العربية فارغة من مثل هذا الكتاب وانها عطشى له · والمثقفون العرب والمتخصصون فى التاريخ فى حاجة اليه ·

واخيرا فان ترجمتى لهذا الكتاب تضع معلوماته تحت أيدينا لكى نضيف اليها فى سعينا لكتابة تاريخ المصريين تحت حكم الرومان ·

وأرجو من الله التوفيق ··

فوزى مكاوى



تمهيد

يكتب التاريخ الروماني في العادة باعتباره تاريخ امبراطورية ، ويركز على النجاحات العسكرية والقرارات الحكومية . ونادرا ما نسمع صوت المقهورين من سكان المستعمرات وحتى لو حدث فاننا نسمع هذا الصوت من خلال كتاب رومان أو كتاب مؤيدين للرومان ، كما هو الحال بالنسبة لبوليبيوس ويوسفوس اليهودي . ولكن هناك استثناءين مشهورين لهذه القاعدة أولهما : الاغريق الذين استمرت معرفة العالم بهم بدون انقطاع ويقدرهم العالم الحديث بسبب استمرار اسهامهم الأدبي والفلسفي حتى خلال القرون التي كانوا فيها تحت حكم الرومان . وثانيهما : سكان وادي النيل القدماء ، الذين لايعرفهم اليوم سوى عدد من المتخصصين . ورغم أن مصر تحت حكم الرومان لم تقدم الكثير من الاسهامات الأدبية التي تثير الانتباه ، ولكن اكتشاف آلاف من أوراق البردي وشقف الفخار (المنقوش) والتي تؤرخ من العصر الروماني بين مخلفات المدن والقرى القديمة هناك ـ هذه الوثائق وصلتنا كما كتبها أصحابها دون تدخل أو تحوير من المؤلفين القدماء ولذلك فهي سجل بغير مثيل في الامبراطورية الرومانية كلها يصلنا مباشرة بالناس في الولاية في حياتهم الخاصة وأفكارهم وعلاقات البيع والشراء بينهم فضلا عن علاقاتهم مع السلطة . والملفت للنظر أن تاريخ مصر الرومانية يضم هذا المصدر الفريد ومع ذلك فقد استمر المؤرخون المحدثون يكتبون تاريخ مصر خلال تلك الفترة بالطريقة التقليدية كدراسات عن الحكومة الرومانية في مصر .

ولكن الدراسة التي نحن بصددها تستبعد هذا الاسلوب معتمدة على المصدر الأصلي (البردي) ، ولذلك فهي تهتم بما ذكر في هذه الأوراق الخاصة أو الرسمية ، وتجعل هدف الدراسة الاجابة على سؤال مؤداه كيف كانت حياة سكان مصر تحت الحكم الروماني . وهكذا يمكن ان نقول انها نظرة من القاع لا يمكن أن تتوفر لأي جزء آخر من العالمين الاغريقي والروماني .

اننا نعتمد الى حد كبير فيما نعرفه عن العالم خلال العصر اليونانى والرومانى على ما كتبه المؤلفون القدماء • ومنذ عصر النهضة خضعت هذه المؤلفات لكثير من الدراسة لدرجة تسمح لنا بالوصول الى أعماق ما كتبه المؤرخون بمناقشة هذه الأعمال وتحليلها والبحث فى الاغراض التى دفعت الكاتب الى انتهاج أسلوب معين • وبالاضافة الى ذلك يمكننا أن نتتبع المصادر التى اعتمد عليها المؤلفون والتزاماتهم • وتزايدت أيضا معارفنا عن هذا العالم منذ عصر النهضة بما كشف عنه من آلاف الأحجار (وبعض الألواح البرونزية) المنقوشة باليونانية واللاتينية ، وقد عثر عليها فى مختلف الأجزاء التى كانت فى يوم ما أجزاء من الامبراطورية الرومانية ، وقد شمل هذا المصدر أحجارا وأختاما ونصوصا رسمية • شغلت هذه الأشياء العلماء لمقارنة ما جاء بها من معلومات مع ما ذكره المؤلفون القدماء ومنذ القرن التاسع عشر ظهر الاهتمام بدراسة علم Epigraphy الذى يختص بدراسة النقوش التى أصبحت مصدرا هاما من مصادر التاريخ اليونانى والرومانى •

ومع ذلك تبقى مصر وحدها هى التى تمدنا بمصادر معلومات هائلة مكتوبة على البردى ، وهو ورق الكتابة الذى كان ينتج فى مصر وحدها ، ولكنه كان يستخدم فى أرجاء العالم القديم كله ، الا أن كل بقايا البردى فى جميع أنحاء العالم تحللت بفعل الرطوبة • ولكن فى مصر فقط فان التربة التى احتوت البردى حفظته ضد عوامل الفناء • لقد عثر الحفارون والأثريون على عشرات الألوف من أوراق البردى خلال مائة السنة الماضية بالاضافة الى آلاف من شقف الفخار المنقوش Ostraca والمصدران ينتميان ، تاريخيا لفترة تمتد أربعة آلاف عام من حوالى عام ٣٠٠٠ ق٠م الى عام الف ميلادية • عثر على بعض أوراق من البردى خارج مصر وهى تمثل حالات نادرة وتعود للفترة الرومانية والبيزنطية مثل وثائق المملكة اليهودية فى صحراء النقب • ولفافة من البردى عثر عليها فى مقدونيا تضم بعض التعليقات على قصيدة أورفية من قبر من القرن الرابع ق٠م ، وعدد من كتب مكتبة هيركولانيوم Herculaneum متفحمة من جراء بركان فيزوف عام ٧٩ م • وفى ربيع ١٩٨١ م جاءت أخبار عن العثور على لفافة صغيرة من البردى فى أثينا فى مقبرة أرخها الأثريون من ٤٥٠ الى ٤٠٠ ق٠م ، ورغم أن محتوياتها لم تحدد بعد بسبب سوء حالتها الا أنها تعتبر أقدم مثال عثر عليه للكتابة الاغريقية • ومع ذلك تبقى مصر بالنسبة للبردى حالة فريدة من حيث ضخامة العدد والمدى الزمنى والتسلسل التاريخى الذى عثر عليه فيها •

منذ عام ١٧٧٠ م كان رحالة اوربيون أو ضباط يعودون الى أوطانهم من مصر ومعهم قطع مهمة من البردى القديم • بعضها كانت لفائف كاملة

مكتوبة بالحروف الهيروغليفية أو الاغريقية • وفي السبعينات من القرن التاسع عشر ظهرت في سوق الآثار في القاهرة ثروة تضم الوفا من البرديات مكتوبة باليونانية واللاتينية والقبطية والعبرية والسريانية والفارسية والعربية ، كان قد عثر عليها فلاحو الفيوم أثناء حفرهم في التلال التي كانت أطلالا وبقايا للقرى القديمة • وسرعان ما انتقلت هذه الثروة من البرديات الى المتاحف على أيدى قناصل انجلترا وفرنسا والمانيا • ولكن نصيب الأسد من هذا الكنز وغيره من الموجودات المبكرة ذهب الى النمسا ، حتى ان المكتبة الامبراطورية في فيينا وهي المعروفة الآن بالمكتبة الوطنية ضمت في أواخر القرن التاسع عشر ما يقرب من ١٠٠٠٠٠ بردية حوالى ٧٠٪ منها كتبت باليونانية •

بدأت جمعية الكشف عن الآثار المصرية التي تاسست عام ١٨٨٢ م في لندن والتي كانت الأولى وظلت الراعي الدائم للعمل الأثري في مصر — بدأت أعمال الحفر سنة ١٨٩٥ واستمر عملها لمدة ١٢ موسما شتويا • وقد قدمت طبقات مخلفات العصرين الهلينستي والروماني اكتشافات من البردي وذلك على أيدى اثنين من علماء الكلاسيكيات هما جرانفيل B. P. Grenfell من كلية الملكة في اكسفورد ومعه هنت A. S. Hunt من نفس الكلية • لقد كشف الباحثان في سلسلة من المواقع آلافا من البرديات أرسلاها الى أكسفورد •

كانت البهنسا التي تقع على بعد حوالى ٢٠٠ كيلو متر جنوبي القاهرة أخصب المواقع انتاجا ، وهناك بدأ موسمهما الأول ، وبعد ثلاثة أسابيع من الحفر دون نتائج مشجعة في موقع الجبانة القديمة ، تحركا الى موقع المدينة نفسها حيث حققا نتائج هامة • وصف مستر جرانفيل تلك الأيام في يومياته قائلا :

« ••• تحركنا شمالا الى مناطق أخرى من الموقع ، وسرعان ما قدمت لنا الأرض فيضا من البرديات أصبح من الصعب علينا اعداد الأماكن الكافية لتخزينها ••• فاجرنا رجلين لكى يصنعا لنا صناديق من الصفيح لتخزين البردي ، ولكن خلال عشرة الأسابيع التالية كانا بالكاد ينتجان ما يكفينا •••

وكان مألوفا أن نعثر على كميات كبيرة من البردي في مكان واحد وخصوصا في ثلاثة تلال وحيث كانت الكمية كبيرة جدا فالمعتقد أنها كانت جزءا من الأرشيف المحلي (للمدينة) ألقى به في هذه المواقع في فترات مختلفة ••• التل الثالث والاكبر كان خاصا بالأرشيف البيزنطي • وقد بدأ العثور عليه في يومي ١٨ و ١٩ مارس • عثرنا في اليوم الأول من هذين اليومين على تل به طبقة سميكة تتكون كلية من البردي ، احتاجت

جهود اثنى عشر رجلا وصبيا يعملون باستمرار فى هذا الموقع . كان صعبا علينا أن نجد سلالا كافية فى البهنسا لتضع فيها هذا الكم من البرديات . وفى نهاية يوم العمل كان لدينا ٣٦ سلة ذات حجم معقول رصت فيها لفائف البردى وكان يتراوح طول اللفافة الواحدة ما بين ثلاث وعشر أقدام . وكان من بينهسا عسدد من أطول اللفائف البردية المكتوبة باليونانية التى رأيتها فى حياتى . وحيث اننا كنا فى حاجة لهذه السلال لعمل اليسوم التالى ، فان مستر هنت وأنا واصلنا العمل حتى السساعة التاسعة مساء بعد العشاء لكى نعيد ترتيب البردى ، ووضعناه فى حقائب خالية كانت لحسن الحظ موجودة معنا . ولم أتم هذه المهمة قبل الساعة الثالثة من صباح اليوم التالى وفى الليلة التالية تكرر هذا العمل ، لأننا ملأنا خمسا وعشرين سلة أخرى قبل أن يفرغ المكان من البردى » (١) .

وبالاضافة الى البردى عثر فى كثير من المواقع ـ خصوصا فى مصر العليا ، وعلى الأخص فى المواقع الاكثر فقرا فى البلاد ـ على كميات كبيرة من الأوستراكا كتبت بنفس الحبــر ، المصــنوع من هباب المسارج . ان ما تحمله هذه الأوسراكا هو كتابات مختصرة كقوائم أو خطـــابات أو تدريبات مدرسية ، بالاضافة الى ايصالات سداد الضرائب . ورغم الاختصار الشديد الا أن الأوستراكا تقدم ايضاحات هامة لما غمض فى البردى . ان استعمال كسر الفخـــار لمثل هذه الأغراض لم يتم بسبب قدرتهـــا على التداول ، كما يمكن أن يعتقد القارىء الحديث ، ولكن كان ذلك بسبب قلة تكاليفه فرغم أن البردى كان غير مرتفع السعر فى بلد صناعته (مصر) كما هو متوقع الا انه كان على الراغب فى شرائه أن يدفع ثمنا له ؟ بينما كسر الفخار كانت متوافرة فى كل مكان مجانا .

ان أكوام المخلفات هى المصدر الرئيسى الذى يمدنا بالبردى القديم لأن هذه الأكوام مصير كل ورقة بعد انتهــاء الغرض منهـــا مهما كانت محتويات الورقة سواء ضمت ملاحظات خاصة أو قرارات حكومية . ومع ذلك فقد عثر على أعداد صغيرة من البرديات فى المنازل المهدمة .

اما العثور على البردى فى الجبانات فانه يعود الى عادة من عادات الدفن استمرت لعدة قرون خصوصـــا فى اقليم أرسينوى ، حيث كانت المومياء الخاصة بالحيوان المقــدس فى الاقليم وهو التمساح وتلك الخاصة بالبشر أيضا تلف بطبقات من البردى بدلا من الكتان المعهود . وبينما كانت فى بعض الأحيان تستخدم لفة واحدة لهذا الغرض ، كان المعتاد استخدام عدة طبقات تعلو الواحدة منها الأخرى لتحقق تقوية أكبر . وكانت كل

---

(١) Egypt Exploration Fund Archaeological Report 1896-1897, pp. 5-9.

الطينات تلصق الى بعضها وتغطى بالجبس لكى تحقق المزيد من الصلابة لتكون سطحا للزخارف المرسومة ؛ وفى العصر الحديث نجح الكيماويون فى نصـــل الطبقات الملتصقة من البردى عن بعضها البعض دون اضرار باحدها أو بالكتابة . والنصوص التى ظهرت بينت أنهم لم يستخدموا لهذا الغرض الأوراق المهملة فقط ، ولكن استخدموا أيضـا أجزاء من كتب فى حالة جيدة ربما قدمت كهدية أو قربان أو ربما لأنها الشىء المتميز فى أيدى أهل الميت . ان استخدام البردى لهذا الغرض ظل منتشرا طوال العصر البطلمى بينما يبدو أنه لم يستمر بعـد وقوع مصر فى براثن الرومان ؛ وليس لدينا تفسير لذلك ؟ ؛

ونظرا للاكتشافات والبعثات الأثرية التى تمت فى العديد من المواقع وأيضا بسبب ما تم عرضه فى أسواق الآثار ، فان مجموعات من البردى والأوستراكا ، كبيرها وصغيرها ، أصبحت متوفرة فى عدد من المتاحف والجامعات (وأيضا فى مجموعات خاصة) فى أوربا وأمريكا فضلا عن مصر نفسها • وكما ذكر جرانفيل فان البردى وجد من كل الأحجام ، ونذكر هنا العثور على لفة طويلة تمثل سجلا للضرائب فى قرية كرانيس توجد الآن فى جامعة متشجان Michigan يضم ما يزيد عن ستة آلاف سطر من الكتابة • ان البرديات التى تهم هذا العمل أغلبها مكتوب باليونانية القديمة وقليل منها فقط هو الذى كتب باللاتينية وأغلب الأخيرة وثائق جيش الاحتلال الرومانى ، وهناك عدد قليل أيضا مكتوب باللغة المصرية التى عرفت كتابتها المتأخرة باسم الديموطيقية •

وقد كتبت الأغلبية العظمى باللغة اليونانية نظرا لأنها أصبحت اللغة السائدة فى شرق البحر المتوسط منذ انتصارها على يد الاسكندر الأكبر • وبعد موت الاسكندر وابنه الصغير فان قواده أقاموا أسرا ملكية تتحدث اليونانية فى البلاد التى كونت فى الماضى امبراطوريته فأقام البطالمة دولتهم فى مصر ، والسلوقيون فى ســـوريا • ولم يـر الرومان ضرورة لتغيير العادات والنظم القائمة فى هذه البلاد التى سقطت فى أيديهم واحدة بعد الأخرى • ولقد كانت هذه السياسة واحدة من الأسباب التى أدت الى استمرار حكم الرومان لمدة طويلة فى هذه المناطق •

لقد فتحت الكميات الهائلة من البرديات والأوســتراكا التى عثر عليها بابا هائلا للدراسات المختلفة • فعلماء تاريخ الكتابة اليونانية أصبح لديهم سجل بتطور هذه الكتابة لألف عام سابقة على المخطوطات التى تعود للعصور الوسطى • ولكن الكتابة التى عثر عليهـا اتخذت كل الأشكال المختلفة بدءا من الكتابة بخط جميل الى مختصرات الكتبة المهرة •

ان تفسير هذه المختصرات ومعرفة محتوياتها ، بالاضافة الى الأخطاء الاملائية وأخطاء النحو فى لغة العامة غير المتعلمين ، أدى الى ظهور فرع جديد فى علم الدراسات الكلاسيكية . وفى تلك السنوات التى كان جرانفيل وهنت يحفران فيها ، بدآ فى نشر ما عثرا عليه . وقد شارك فى النشر F. G. Kenyon فى المتحف البريطانى و U. Wilcken ونشر كلوه فى برلين وهكذا ظهرت دراسة البردى كفرع جديد فى حقل الكلاسيكيات . وقد نشر حتى أكتوبر ١٩٨٧ ثلاثة آلاف وأربعمائة وثلاثون بردية مختلفة الأطوال فى ثمانية وأربعين جزءا من سلسلة بردیات أكسير نيخوس Oxyrhynchus Papyri وهذه هى أكبر السلاسل وهناك مزيد من الأجزاء سيتم نشرها . وعلى الرغم من ذلك فان ما تم نشره من بين كل المجموعات مجتمعة لا يزيد على خمسة وعشرين ألف بردية من العصر الرومانى ، وهناك تقريبا ضعف هذا العدد لم ينشر بعد .

ان الكتابة الشخصية من خطابات ومذكرات وخلافه ، عادة ما يهمل صاحبها تاريخها . وهكذا نصادف مشكلة تاريخ هذه البرديات ونسبتها الى العصر الرومانى أو غيره . واذا كنا محظوظين فاننا نعثر على البردى مصاحبا لمكتشفات أخرى تحمل تاريخا . وفيما عدا ذلك فان الطريقة الوحيدة هى تتبع تغير شكل حروف الكتابة من القرن الرابع ق.م الى القرن الثامن الميلادى . وبالطبع هذا لا يؤدى الى أن تحدد تاريخا سريعا ودقيقا للبردية . صحيح أن كل كتابة لها سمات ولكن هذه الفروق يمكن ملاحظتها فى كتابات الأشخاص الناضجين المهرة ، ولكن ذلك غير مجد فى كتابات الصغار وغير المدربين فليس هناك وسيلة لمعرفة أشكال ثابتة لحروف الكتابة عندهم . ومع ذلك يمكن نسبة البردية الى الطبقة الأثرية التى عثر عليها فيها . وكم يكون عالم البرديات سعيدا اذا استطاع أن يحدد ذلك أكثر فينسبها لقرن ما ويكون أسعد بالطبع لو ضيق المسافة الى أقل من ذلك ، ولكنه لا يمكن أن يقللها الى أقل من عدة عقود طالما كانت غير مؤرخة .

وعلى الجانب الآخر فان الوثائق ذات الصبغة الرسمية والتعاقدات كانت تؤرخ فى العادة ، على الرغم من أن التاريخ قد يكون مفقودا بالنسبة لنا اذا لم نعثر على البردية كاملة ، أو ربما لا يوجد تاريخ على البردية اذا كانت صورة أو مسودة من الوثيقة . والطريقة العادية فى تاريخ الوثائق كانت ذكر السنة بالنسبة لحكم الامبراطور الرومانى ، يليها الشهر ثم اليوم . وكانت السنة الأولى للامبراطور تبدأ من تاريخ التتويج ، ولكن من الناحية العملية كانت هذه السنة تبدأ باليوم الذى عرف فيه خبر هذا التتويج فى مصر — وكان هذا يتأخر — كما يظهر من البرديات لمدد

تتراوح ما بين شهر واحد وأربعة شهور بعد التتويج • وتستمر هذه السنة الأولى الى نهاية العام الجارى فى التقويم المصرى ، ثم يبدأ حساب العام الثانى للامبراطور وما يليه مع بداية السنة المصرية الجديدة ، التى تبدأ مع اليوم الأول من شهر توت الذى يوافق ٢٩ أغسطس فى التقويم الرومانى • على أننا فى هذا الكتاب كلما تعرضنا لتاريخ سنذكر التاريخ الرومانى الموافق له بديلا عنه أو بالاضافة اليه •

باختصار ـ ان البرديات اليونانية واللاتينية والأوستراكا تقدم اسهاما غير مسبوق الى معرفتنا بالحضارة القديمة • لقد أضافت هذه البرديات الى الكتب القديمة التى كانت معروفة منذ عصر النهضة أجزاء أو كتبا مفقودة ، قليل منها كامل والباقى فى شذرات • وهذه الأجزاء والكتب أصول أقدم بألف عام للمخطوطات التى وصلتنا من العصور الوسطى عن تلك الأعمال •

ان أغلب ما وصلنا من البردى أعمال غير أدبية أو وثائقية ، ولكن قليلا منها ، مثل النصوص ، تقدم سجلات عامة مثل القرارات ، والقوانين، والسجلات الرسمية من كل الأنواع • أما الباقى فيضم الكتابات اليومية للحياة مثلما يلجأ الانسان العادى الى الورقة لكى يسجل حساباته ، أو عقوده أو خطاباته أو ملاحظاته ، أو مذكراته أو تمارينه ••• الخ • ان هذا يعطينا صورة من قريب عن حياة الأغلبية الصامتة من الرجال والنساء والأطفال من الطبقات الوسطى والدنيا من المجتمع المصرى فى حياتهم اليومية • اننا فى الأعمال الأدبية نرى الموضوع من خلال عيون المؤلف ، فيذكر لنا ما يراه وينقل الينا تفسيره للأشياء • أما فى النقوش فاننا نقرأ ما ترغب الحكومة أو الأفراد أن يحفظ للمستقبل ولكن مع البردى الذى يتركه الناس فقط يمكن أن نجد الحياة كما هى فى رسالة حفظت تماما كما كتبت فى مناسبة خاصة أو فى ظرف معين •

وفى مثل هذه الكتابات نستطيع أن نتعرف على اللحظات المرتبطة بالحياة نفسها أو الأحداث التى تتصل اتصالا مباشرا بالناس وأوضاعهم فنحن نلقاهم وجها لوجه فى حياتهم الخاصة • لا كشخوص فى مؤلف أو كأبطال فى رواية •

والفصول التالية تغطى فترة تزيد على ثلاثة قرون من عام ٣٠ ق•م الى عام ٢٨٥ م من انتصار أوكتافيوس الى ٢٨٥ م ، والتى نسميها Dominate حيث خضعت أيضا لحكم أباطرة رومان ، ولكن هذه الفترة كانت مؤسساتها تتغير بسرعة فى اتجاه العصر البيزنطى وهذه قصة أخرى •

وصول الرومان

الأسرة البطلمية

كان فجر يوم النصف من أغسطس سنة ٣٠ ق.م ساخنا كأى يوم خلال الصيف فى مصر ، عندما قدم الخدم المخلصون لمليكتهم أداة انتحارها هربا من الملاحقة الرومانية . لقد كانت ثعبانا من الكوبرا المصرية السامة التى طالما بقيت شعارا للملكية المصرية تعلو هامات الملوك أو كانت زوجا من الثعابين اذا جاز لنا أن نصدق الشعراء الرومان فرجيل وهوراس وبروبيرتيوس Propertius . وقد قيل ان الكتف الملكية اليسرى هى التى تلقت اللدغة القاتلة وقيل انه الثدى الأيسر العارى . ورغم كثرة الروايات تبقى الحقيقة واضحة ، فالملكة كليوباترة السابعة التى كانت تحمل لقب « الالهة المحبة لأبيها » قد انتحرت بارادتها وهى الملكة التى كانت آخر سلسلة من الحكام البطالمة ، تلك الأسرة ذات الأصل المقدونى التى حكمت مصر لحوالى ثلاثة قرون منذ أن غزاها الاسكندر . ان الغازى الجديد اكتافيوس قيصر ، الذى كان يصر على أن تسير الملكة فى موكب نصره فى روما سرعان ما وارى الجثة واتجه لتنظيم الحكومة . فأعلن ضمه مصر لسلطان الشعب الرومانى بهذه الجملة التى اختيرت الفاظها بعناية والتى لا تضم أكثر من خمس كلمات .

Aegyptum imperio Populi Romani Adiecci

ولقد لقب أكتافيوس بالمبجل Augustus الى نهاية حكمه وأطلق اسـمه على الشـهر الذى ضم فيه مصر عقب الحرب الأهليـة ضـد انطـونيوس (١) ٠

لقد سبقت العلاقات المصرية الرومانية هذه اللحظة بسنوات طويلة ٠ فالمعروف أن بطليموس هو الذى نجح فى الاستقلال بمصر وبعض المناطق على حدودها عندما قسمت امبراطورية الاسكندر بين قواده ، وأعلن نفسه ملكا عليها ٠ بدأت العلاقات الدبلوماسية بين مصر وروما بمبادرة من خليفة هذا الرجل حوالى عام ٢٧٣ ق٠م وكان بيرهوس ملك ابيروس قد طرده الرومان من ايطاليا قبل ذلك التاريخ بعامين فقط بعد أن فشـل مشروعه لغزو ايطاليا ٠ وربما كانت هذه الأخبار هى التى دفعت بطليموس الثانى ـ الملقب باسم فيلادلفوس (المحب لأخته التى كانت قد تزوجها) ـ الى ارسال سفارة الى روما لكى تعقد أواصر الصداقة بين الطرفين ٠ ويبدو أن باقى الملوك الهلينستيين تجاهلوا هذه الأحداث التى دارت فى غـرب البحر المتوسط ، بينما استطاع فيلادلفوس أن يتنبأ بأن روما سـوف تصبح خلال ثلاثة أجيال المتحكم فى عالم البحر المتوسط كله ٠ ان هذا التحرك المبكر كان ذا نفع للأجيـال المتـأخرة من البطالمة حين انتشرت القوة الرومانيـة شرقا فى القـرن الثـانى ق٠م ٠ لقـد دخلت روما فى صراع مع الممالك الهلينستية واحدة بعد الأخرى ، ولكن مصر ، صـديقة روما القديمة ، ظلت وحدها على هامش العداوة ، بل لقـد منحت الحماية الرومانية فى عدة مناسبات عندما كانت الحاجة تدعو الى ذلك ٠ ولكن هذه الحماية تطورت الى أن أصبحت مصر فى وضع المحمية الرومانية ،

---

(١) T. C. Skeat, Journal of Roman Studies, 43 (1953, pp. 98-100.

اشار سكيت Skeat الى أن انتحار كليوباترة حدث طبقا للرواية الرومانية فى العاشر من شهر أغسطس سابقا بيومين عما لاحظنا ذكره عند الشعراء الرومان ٠

Virgil, Aeneul, Bk 8, V. 697.

Horace, Odes, Bk 3, no. 37

Propertius, Odes, Bk 3, no. 11.

أما العبارة المنسوبة لأغسطس ، فهى مأخوذة من الفصل السابع والعشرين من الوثيقة التى تشير الى أعمال اغسطس المؤله Res Gestae Divi Augusti والتى نقشت على أعمدة مقبرة mausoleum اغسطس فى روما ٠ ونقش منها عدة نسخ حفرت على العديد من النصب فى عواصم الولايات ٠ تلاشى تقريبا النقش الأصلى المقام فى روما ولكن بقيت نسخة شبه كاملة من هذا النص فى انقرة بتركيا (وكانت فى العصر الرومانى عاصمة لولاية جالاتيا Galatia الرومانية) كما عثر على بعض أجزاء من نسخ اخرى لهذا النص فى أماكن متعددة من الولايات الشرقية ٠

وتحولت قبل اعتلاء كيلوباترة لعرش أجدادها بمدة طويلة الى دولة تابعة لروما القـوية .

هناك عدد من الأدلة الحية يمكننا تتبعها لكى نتبين مراحل تحول مصر من دولة هلينستية عظيمة الى مقاطعة رومانية . ففى عام ٢١٠ ق.م عندما دمر هانيبال الزراعة الايطالية لمدة عقد كامل ، فان الرومان استطاعوا الحصول على امدادات القمح من مصر . وبعد خمس سنوات عندما اعتلى بطلميوس الخامس الملقب بابيفانس (الاله الظاهر) العرش وكان وما يزال طفلا فى الخامسة ، وقامت عدة صراعات داخليـــة ومؤامرات دموية فى شوارع الاسكندرية ، ووجدها الملك السلوقى فى سوريا أنطيوخس الثالث فرصة أتاحتها له السماء لكى يستولى على امبراطورية البطالمة ، فاحتل فينيقيا ووقف بجيشه على أبواب مصر عندما حدث كل هذا تدخلت روما ــ رغم أنها كانت خارجة لتوها من الحرب الهانيبالية ــ وأمرت أنطيوخس أن « يترك المملكة الصديقة التى تركت لرعايتنا بناء على الرغبة الأخيرة التى أبداها والد جلالته » (٢) .وقد اضطر أنطيوخس أمام الموقف الرومانى أن يكتفى بانتصاراته خارج الأراضى المصرية واعترف بالوضع القائم فى مصر بتزويج ابنته من بطلميوس الخامس .

. . . وبعد جيل واحد ، عندما تولى عرش البطالمة شاب هو بطلميوس السادس فيلوماتور (المحب لأمه) وفى نفس الوقت كانت روما قد انشغلت بحربها الجديدة مع برسيوس ملك مقدونيا ، غزا أنطيوخس الرابع مصر ، وأخذ بطلميوس الصغير أسيرا ، وأعلن نفسه ملكا على أرض النيل . وفى صيف ١٦٨ ق.م كان يعسكر بجيشه قرب الاسكندرية عندما وصلت الأنباء بأن الرومان قد قهروا برسيوس فى بدنا Pydna . ووصل الى المعسكر السورى جايوس بوبيليوس لايناس مسلحا بقرار مجلس الشيوخ الرومانى . وهناك دار حوار مشهور ذكره بوليبيوس المؤرخ الاغريقى الذى عاصر تلك الأحداث .

« سلم لايناس لأنطيوخس قرار مجلس الشيوخ الذى يأمره أن ينهى هذه الحرب ضد بطلميوس فى الحال وأن يسحب جيشه الى سوريا فى وقت محـــدد . قرأ الملك القرار وقال انه فى حاجة الى أن يستشير أصـــدقاءه حيال هذا التطور الجديد . عندئذ فعل بوبيليوس شيئا غير مســبوق وخاليا من الذوق . لقد كان يحمل عصا مقطوعة من كرمة ، ورسم

---

(٢) جوستينوس كاتب من القرن الثانى الميلادى
Justinus, Roman History, Bk 34, S. 2.

بها دائرة حول أنطيوخس وطلب منه أن يعطيه اجابة على القرار قبل أن يغادر الدائرة · أخذ الملك بهذا التصرف ، وبعد فترة اضطراب قصيرة قال انه سيفعل كل ما طلبه الرومان منه » (٣) ·

لقد وصلنا بهذا الى المياه الضحلة فى التاريخ السياسى للعالم الهيلنستى ولم يعد ذلك سرا ، فلقد أقر المؤرخ بوليبيوس فى مقدمة كتابه : لقد تحول البحر المتوسط كله الى بحيرة رومانية وكل الذين عاشوا على شواطئه نظروا لروما باعتبارها مقررة مصائرهم ·

اعقب طرد أنطيوخس من مصر اندلاع بعض الصراعات الأسرية بين بطلميوس السادس وأخيه الأصغر · ولقد تدخل مجلس الشيوخ الرومانى لحل النزاع فحكم بترك عرش مصر للأخ الأكبر ، ولكنه اقتطع قورينية – وهى ليبيا الحالية بالتقريب – وجعلها مملكة مستقلة للأخ الأصغر · ولكن بعد بضعة أعوام ادعى الأخير أن أخاه يحاول استرجاع ليبيا باغتياله · وغطى بطليموس ملك قورينية – المؤامرة بذكاء ، اذا كانت هناك فعلا مؤامرة ، بأن أعلن ونشر وصية أورث بمقتضاها مملكته لروما · لقد حفظت هذه الوصية فى نقش بقورينى ، ولكن لم يقدر لهذه الوصية أن ترى النور ، لأن بطلميوس هذا خلف أخاه على عرش مصر أيضا باسم بطلميوس الثامن الملقب بالخير « يورجيتس الثانى » ولكنه كان يكنى بفسكون Physkon: وتعنى « البطين » · حكم هذا الملك مصر لمدة أربعة وخمسين عاما وهى أطول مدة قضاها ملك بطلمى على العرش ·

فى ذلك الوقت جذبت فرص التجارة فى الاسكندرية عددا من التجار والبحارة الرومان للاستقرار هناك · وتعددت أيضا الزيارات والجولات السياحية التى كان يقوم بها لمصر موظفون رومان رسميون · ان بردية تعود لعام ١١٢ ق·م عثر عليها فى بقايا قرية تقع على بعد مائة كيلومتر تقريبا من أبى الهول والأهرام تضم التعليمات الآتية من موظف كبير فى الاسكندرية :

« لوكيوس ميميوس ، وهو سناتور رومانى ، يتمتع بمركز كبير فى المكانة والشرف ، يقوم برحلة من الاسكندرية الى الاقليم الأرسينواوى Arsinoite

---

(٣) Polybius, Histories, BK. 29, 27.

وقد نشرت احدى البرديات حديثا تؤكد أن انتصار انطيوخس انتصارا كاملا كان حريا أن يسبب مشاكل للرومان أكثر من مجرد التدخل المؤقت ·

لكى يشاهد المتاظر ، (لابد) أن يستقبل بترحاب خاص،وأن تكون بيوت الضيافة معدة فى المناطق المناسبة • وأن تكون المراسى التى تؤدى اليها كلها صالحة للعمل ، وأيضا يجب تقديم الهدايا المذكورة فى القائمة أدناه اليه فى كل مكان يحل به ، وأن تكون الأثاثات فى كل بيت من بيوت الضيافة معدة لاستقباله ، وأيضا طعام جيد للاله Petesouchos (الاله التمساح). والتماسيح (الحية) ، وضرورة رؤيته للابيرنث ، والتقديمات للقرابين • عموما يجب اتخاذ كافة السبل لراحة الزائر التامة ، وبيان الاهتمام (الباقى مفقود) (٤) •

ومن الواضح أن الاهتمام الرومانى بمصر كان يتزايد سواء بالنسبة للتجارة أو للسياسة • ولكن سرعان ما انشغلت روما فى أزمة مستمرة من الصراع الداخلى والحروب الخارجية ، ولذلك تمت الصراعات الأسرية وانقلابات القصر فى مصر خلال الثلاثين عاما التالية بعيدا عن التدخل الرومانى • ظهر التدخل الرومانى فى مصر من جديد خلال عقد الثمانينات من القرن الأول ق٠م ، عندما كان سلا يقوم بحملته على الشرق ، ومن ذلك الوقت تزايدت القبضة الرومانية ثقلا على الأقدار المصرية • ففى عام ٨٠ ق٠م مات بطلميوس التاسع (سوتير الثانى) بدون وريث شرعى ذكر • فقام سلا بملء الفراغ حيث أقام على العرش أميرا بطلميا غير شرعى وجعله تحت حمايته • ومنذ ذلك الوقت أصبحت مصر تحت مظلة دائمة من التدخل الرومانى • ففى عام ٥٨ ق٠م هرب بطلميوس الثانى عشر الملقب بالزمار (لاجادته العزف على الفلوت) الى روما خوفا على حياته • وهناك حصل على تأييد بومبيوس ، الذى زكاه عند صديقه جابينيوس Gabinius • والأخير كان حاكما رومانيا على سوريا فى ذلك الوقت • قام جابينيوس بغزو مصر وأعاد أوليتس الى العرش فى عام ٥٤ ق٠م • ونظرا لأنه لم يستطع دفع مبلغ (الرشوة) الكبير الذى وعد به جابينيوس (عشرة آلاف تالنت فضة) أو ربما ادعى ذلك • ونظرا لأنه لم يكن قادرا أيضا على سداد ديونه التى حصل عليها فى روما من آخرين ، فقد قام أوليتس برهن كل مملكته ضمانا لديونه وعين واحدا من دائنيه الرومان Gaius Rabirius Postumus وزيرا للمالية فى مصر • ولا نعلم كيف خرج أوليتس من هذا المأزق • ولكن فى النهاية وكما نعلم من خطب شيشرون فى دفاعه عن كلا الرجلين ، فان جابينيوس ـ وكان قد عاد الى روما ـ أدين بالرشوة ونفى للخارج بينما برىء رابيريوس من هذه التهمة •

مات بطلميوس أوليتس فى عام ٥١ ق٠م بعد أن حدد فى وصيته خلفاءه : ابنته الكبرى كليوباترة بنت الثمانية عشر ربيعا ، بالاشتراك مع

(٤) P. Teb. 33 = W. chr. 3 = Select Papyri 416.

أكبر أبنائه الذكور بطلميوس وكان صبيا بين التاسعة والعاشرة من عمره على أكثر تقدير • وجعل روما وصية عليهما • وبعد ذلك بعامين اثنين اشتبك بومبيوس وقيصر فى حرب وكذلك قامت الحرب أيضا بين مستشارى الوريثين الملكيين • وفى العالم التالى ٤٨ ق٠م مات بومبيوس ودخل قيصر الى مصر ومات بطلميوس الثانى عشر عندما سحق قيصر قواته ، فعين الأخ الأكبر التالى له فى العمر (بطلميوس الرابع عشر) وكان مجرد طفل صغير كشريك لكليوباترة على العرش ، وتلا ذلك شهران من الاحتفالات والاسترخاء ، قضاهما قيصر مع كليوباترة فى رحلة على صفحة النيل لرؤية آثار مصر وعجائبها •

وعندما غادر قيصر مصر كانت كليوباترة تحمل جنينه فى أحشائها وقد وصلت فى عام ٤٦ ق٠م الى روما ومعها زوجها الطفل وابنها الصغير الذى تسمى بالاسم الملكى بطلميوس ، ولكنها أطلقت عليه ـ ومازال يعرف باسم قيصرون أى قيصر الصغير • أقامت الملكة وبطانتها فى اقطاعية قيصر الواقعة على تل جانيكول Janiculan عبر التيبر من وسط روما ـ وبعد شهر واحد اغتيل قيصر فرأت كليوباترة من الحكمة أن تغادر روما عائدة الى مصر مع أسرتها •

أما العلاقة بين أنطونيوس وكليوباترة فقد استمرت لمدة اثنى عشر عاما من عام ٤٢ ق٠م الى عام ٣٠ ق٠م وقصتهما مشهورة فى الأغانى والروايات ، ولا نحتاج لسردها من جديد • ولكن الشيء الذى لا يعرفه الجميع الجميع هو أن كليوباترة ولدت لانطونيوس ولدين توأم وابنة وأن تحالفهما قد دعمه زواج شرعى • ومن الواضح أن أنطونيوس اختار ما حدث فى اطار تخطيطه السياسى • فانطونيوس واكتافيوس كانا يتوقعان حدوث صراع بينهما من أجل الانفراد بالسلطة فى الامبراطورية الرومانية • ومن أجل ذلك فان اختيار أنطونيوس لمصر ولموارد الشرق كان اختيارا للنصف الأغنى من الامبراطورية فى المال والرجال (٥) •

لقد ذكر فيرجيل قبل عشر سنوات من نهاية القصة فى احدى أغانيه أن الحب يقهر الجميع • ولكن أثبتت سهام كيوبيد أنها أضعف من قوات وأسلحة اكتافيوس الذى هزم أنطونيوس وكليوباترة فى سبتمبر سنة ٣١ ق٠م هزيمة ساحقة فى معركة اكتيوم البحرية فى غرب بلاد اليونان • ومن هناك هربا الى مصر • وفى مصر وتحت ضغط زحف اكتافيوس ، انتحرا ، هو أولا ثم هى فيما بعد ، بدلا من الوقوع فى أيدى القائد المنتصر.

---

(٥) اقتبست الجملة من

Virgil, Aengeid, BK 8, V 687-88

ابقى اكتافيوس أولادهما على قيد الحياة وفى الحقيقة لقد أرسلهم الى روما لكى ترعاهم أخته أكتافيا التى كانت زوجة سابقة لأنطونيوس • ولكنه قتل قيصرون لان أحد الفلاسفة الاسكندريين نبه اكتافيوس - اذا كان الأمر يحتاج الى تنبيه - بأن هناك خطرا عليه من وجود خلفاء آخرين لقيصر • وهكذا وقعت مصر فى عام ٣٠ ق٠م فى أيدى الفاتح الرومانى دون أن يوجد مطالب بالعرش البطلمى أو مدع بأحقيته فى اعتلائه • وعليه فقد أصدر اكتافيوس القرار الضرورى اتخاذه فى مثل هذه الحالة فعين حاكما رومانيا للبلاد وهيئة موظفين اداريين ، مع جيش رومانى للاحتلال كى يكبح جماح أية انتفاضة شعبية •

مصـــر الرومانيـــة :

فى عام ٢٧ ق٠م غير حاكم روما لقبه تغييرا مختارا بعناية فلم يعد يدعى أكتافيوس وانمـــا أصبح يدعى أوغسطس ، وبذلك كان الأول بين سلسلة من الحكام حملوا نفس اللقب ونطلق عليهـم اصطلاحا الأباطرة الرومان ، رغم أن أوغسطس اختـــــار لنفســـــه ولخلفائه لقب البرنكبس Princeps (المواطن الأول) • حـــكم أوغسطس روما واحـدا وأربعين عاما قام خلالها باصـــلاحات دســـتورية واجتماعية متعددة فى المجتمع الرومانى ، محاولا اعادة تنظيم هذا المجتمع ، وبالنســبة لمصر فان المدى الذى وصلت اليه أعمال أوغسطس فيها ما يزال محل دراسة العلماء وان كان هناك - فيما يبدو - اتفاق على الأسس التالية :

بالنسبة للفلاحين القاطنين فى قراهم استمروا فى حياتهم دون تغيير يذكر فيما عدا زيادة عبء الضرائب عليهم حيث كانت حكومة الاحتلال الرومانى أكثر كفاءة فى جمع الضرائب من الحكومات الضعيفة فى أواخر عهد البطالمة • وقد استمرت الحياة فى القرى كما كانت من قبل ، النيل يعطى فيضانه السنوى المخصب الذى يأتى فى بعض السنوات عاليا وفى بعضها الآخر شديد الانخفاض ولكنه فى الأغلب كان يأتى متناسبا تماما لاعطاء محصول جيد أو ممتاز •

ولم تتغير نظرة المصريين الى حاكمهم الأعلى البعيد ومدى تدخله فى حياتهم • لقد نظروا اليه فى العصر الرومانى كما نظروا للملوك البطالمة من قبل بل والملوك الفرس أيضـــا باعتبارهم أسرا جديدة من الفراعنة الغرباء • ومن ثم استمر بناء المعابد وزخرفتها على الطراز المصرى خـلال ثلاثة القرون التى حكمها الرومان • ومثل الأباطرة على الجدران بالجلسة التقليدية للفراعنة تحيط بهم رموز الملكية المصرية كالتـــاج الفرعونى والخرطوش الذى يحمل داخله اسم الحـــاكم بالهيروغليفية ، ونصـوص

هيروغليفية اضافية تكرر القاب الفرعون باعتباره ابنا لرع والمحبوب من بتاح وايزيس ٠٠٠ الخ ٠

ولعلنا لا نجاوز الحقيقة اذا ذكرنا أن تنظيمات الادارة وتطبيقاتها سواء المحلية منها أو المركزية هى التى طبعتها بطابع الولاية الرومانية ٠ فمنذ عهـــد أوغسطس باتت مهمـــة مصر الأولى فى الامبراطورية الرومانيـــة امداد مدينـــة روما بثلث احتياجاتها السنوية من القمح ، ولضمان استقرار الأمور هناك دون أية اضطرابات طوال حياة أوغسطس ، عوملت مصر كما لو كانت ضيعة خاصة بالامبراطور ٠ فوضعت مصر تحت حكم رجل يدعى القائد Praefectus على عكس الولايات الأخرى التى كان يحكمها رومان وصلوا الى مرتبة البروقنصل ٠ وكان القائد بذلك أقل درجة من حكام الأقاليم الأخرى وحرص الامبراطور على أن يعينه كممثل شخصى لجلالته وحرص كذلك على أن يكون شاغل هذه الوظيفة من طبقة الفرسان ، وهى الطبقة التى كان ينتمى بأصله اليها كما أنها الطبقة التى كانت منذ البداية العمود الفقرى الذى دعم حكمه ٠ وتنفيذا لسياسته منع أيضا أى رومانى من طبقة الشيوخ بل وحتى الفرسان ـ حالة كونهم موظفين رسميين ـ من دخول مصر بدون اذن الامبراطور ، وكان هدفه الأساسى الا تصبح مصر مرة أخـــرى مقرا لمنافس يطالب بالحكم كما كان الحال بالنسبة لأنطونيوس ٠ أما بالنسبة للمصريين فقد كان الحاكم نائبا عن فرعونهم الذى يعيش بعيدا فى روما ٠

ابقى أوغسطس على التقسيم القديم لمصر الى نيف وثلاثين اقليما اداريا ـ Nomes كان يحكم كل منها استراتيجوس ٠ ورغم هذا الاطار الذى لم يتغير فقد تغيرت سلطة الموظفين فى الأقاليم ٠ فالمعروف أنهم كانوا أيام البطالمة أصـــحاب سلطة عســكرية وسلطة مدنيـــة أيضا ٠ ولكن أوغسطس جعلهـــم موظفين مدنيين فقط ٠ ومنذ ذلك الوقت أصبح العسكريون الوحيدون هم ضباط الجيش الرومانى فقط ٠ أما القوات العسكرية فقد تم نشرها باسلوب استراتيجى فى كل الولاية ليس على الطريقة البطلمية بخلق جنود فلاحين يعيشون مع أهليهم فى أرض أقطعها لهم الملك ، ولكن على النظام الرومانى الذى يقوم على الحياة فى معسكرات محصنة أو حاميات ٠ فعسكرت احدى الفرق فى الاسكندرية ، والثانية فى بابليون ـ الى الشـــمال من ممفيس على الضفة الأخـــرى من النهـــر ـ وعسكرت حاميات صغيرة من الجنود فى مناطق حاكمة مختلفة ، مثل مناطق الحدود والمحاجر والمناجم ، وملتقيات الطرق الهامة ، ومخازن القمح ٠

لقد كانت الحكومة المدنية التى حكمت مصر ـ منذ أقامها أوغسطس وطورها خلفاؤه ـ رومانية بوضوح ٠ ولكن موظفيها فيما عدا شـــاغلى

المراكز العليا كانوا من بين السكان المحليين وكانت لغة عمل الحكومة اللغة اليونانية وليست اللاتينية · وفى الاسكندرية ضمت بطانة الحاكم عددا من الموظفين والضباط مزدوجى اللغة ، كانوا يقومون بترجمة المراسيم الامبراطورية من اللاتينية الى اليونانية لنشرها فى البلاد ·

وبالنسبة للادارة المحلية أبقى الرومان على بعض المسميات البطلمية لبعض الوظائف وان كان قد نال اختصاصات هذه الوظائف من التغيير على أيدى الرومان ما نال اختصاصات الاستراتيجوس · وبالنسبة لباقى الوظائف فقد استحدثت تسميات جديدة ووظائف جديدة كلما دعت الضرورة الى ذلك كما حكمت قواعد جديدة أوجها هامة فى الاقتصاد والمجتمع والدين ·

لعل ما سبق يكفى كاطار للتاريخ السياسى لمصر تحت حكم الرومان وفيما يلى نوجه اهتمامنا الى حياة المصريين فى قراهم ·

ان البنـــاء الاجتماعى فى مصر الرومانيـــة يتضح تقريبـــا من هذين الخطابين المتبادلين حيث ينخذ شـــكلا عرميـــا قمته العليا هى التى تتمتع بالمميزات وتشـــمل مجمـــوعة صـغيرة العدد من المو طنين الرومان الذين يعيشـــون فى الاقليـــم · يلى هذه القمـة شريحـة أعرض امتيازاتها أقل ـ وتضم الاغريق واليهود ـ · وهؤلاء وأولئك يقعون فوق الشريحة الأعرض والأضخم التى تضم بـاقى السكان ـ الفـلاحون والحرفيون وملاك الأراضى والتجار من سكان المدينة · وكان أغلب المنتمين لهذه الشريحة فقراء وأقلهم أغنياء ، واذا كان لسكان المدن بعض المزايا فالقرويون لم يحصلوا على أية مزايا على الاطلاق · وباختصار كانت الطبقة الأخيرة تضم كل من أطلق عليهم الرومان اسم المصريين · وكان الانتقال من طبقة اجتماعية لطبقة أخـرى أعلى أمرا غير ميسر الا بشروط يضعهـا الامبراطور ، وأحيـــانا كان الأغنيـاء والمبرزون من السكندريين يكافأون بمنحهم المواطنة الرومانية ـ على كل حال يجب أن نشير الى التعاطف الواضح الذى ربط المواطنين فى عاصمتى العالم فى ذلك الوقت ، كما تجدر الاشارة الى أن أغنياء الأقاليم أينما وجدوا فى الامبراطورية الرومانية كانوا ركائز للوجود الرومانى ، الا أن الحكام لمصلحة استمرار الاستقرار الاجتماعى فى مصر كانوا لا يشجعون تقدم المصريين عن وضعهم المرسوم · وفى عام ٢١٢ م وبجرة قلم جعل الامبراطور كل من يسكن الامبراطورية الرومانية حاملا لحق المواطنة فيها · ولكن قبل هذا التاريخ قلما نجح مصرى فى الحصول على المواطنة السكندرية أو المواطنة الرومانية ·

الرومان : كان حاكم الاقليم وكان يحمل لقب قائد مصر Praefectus Aegypti يرســـل من روما باعتبـــاره ممثـــلا للامبراطـــور · وكان يحكم عادة بما يسعد الامبراطور ويرضيه لفترة زمنية تراوحت بين سنة واحدة وثلاث سنوات ، ونادرا ما امتدت لأكثر من أربع أو خمس سنوات· كان الحاكم ومعاونوه من الرومان يعيشون ويعملون فى الاسكندرية · وكان يترك الاسكندرية مرة واحدة فى كل عام لفترة تمتد أربعة أو خمسة شهور ومعه بعض مساعديه من الرومان · فى تلك الفترة كان الحاكم يرحل الى مدينتين مصريتين واحدة فى الدلتا والأخرى فى الصعيد حيث يعقـد المحاكمات ويتلقى الشكايات من المتضررين ، ويفحص التقـــارير ويراقب

الاداريين المحليين • ومع ذلك فقد بقى هو ورجاله شيئا بعيدا وغير مرئى بالنسبة للأغلبية العظمى من سكان الاقاليم •

ان النموذج الواضح للمواطن الرومانى فى مصر والذى يمكن للناس أن يروه كان الجندى الرومانى الذى يحتل الولاية • والمعروف أن جيش الاحتلال ، خلال أغلب فترة الحكم الرومانى ، كان يتكون من فرقتين من المواطنين الرومان ، بالاضافة الى وحدات مساعدة جنودها من سكان أقاليم الامبراطورية (بالاضافة الى عدد قليل من الرومان) تحت قيادة ضباط رومان • كان الجميع يكونون مؤسسة عسكرية تعدادها تراوح بين سبعة عشر ألفا الى ثمانية عشر ألف رجل • ان الوحدات المساعدة كانت تضم مشاة وفرسان ورجال بحرية يعسكرون فى الاسكندرية لحماية البحر والنهر • ويمكننا حصر عدد من الوحدات من خلال البرديات عسكرت فى مناطق حاكمة فى جنوب البلاد أحيانا كحاميات وفى أحيان أخرى أثناء قيامهم بمهام خاصة • ومثال على ذلك الكتيبة التى عسكرت فى عام ١٣١ م عبر النهر تجاه أبولوينوبوليس Apollinopolis فى مصر العليا ونراها بعد ٢٥ عاما فى نفس المكان بقوة اجمالية عددها ٥٠٥ رجل أى ٣٦٣ من المشاه و ١١٤ من الخيالة و ١٩ مر راكبى الجمال (٢) وستة ضباط برتبة السنتيوريون Centurions وثلاثة برتبة الدبكيريون decurions •

وكان لا يسمح بالالتحاق للخدمة فى الفرق سوى للرومان المواطنين فقط وكانت مدة الخدمة لهم ٢٥ عاما • أما بالنسبة للقوات المساعدة فقد كان يكافأ أفرادها بالمواطنة الرومانية اذا سرحوا بعد خدمة مشرفة مدتها ستة وعشرون عاما • ومع هذا ، فلقد كانت كل الطرق بما فيها هذا الطريق العسكرى ، مسدودة لفترة طويلة أمام مجموع السكان من الوطنيين المصريين •

وحتى أواخر القرن الثانى ظلت الخدمة فى الوحدات المساعدة قاصرة على أبناء أعيان عواصم المحافظات ، وهذه الطبقة تعود باصولها الى الاغريق الذين استقروا فى مصر تحت حكم البطالمة • وبالاضافة الى الجنود ، نجد عددا من ثراة الرومان ينزلون الى ريف مصر فى الشتاء معتدل المناخ ـ كما يفعل الأوربيون فى العصور الحديثة ـ للاستشفاء •

---

(٢) المعلومات عن هذه الفرقة موجودة فى BGU. 696 = Select Papyri 401.

واخيرا ، هناك أعداد متزايدة من المواطنين الرومان اتخذوا مصر موطنا دائما لهم ينتمى بعضهم الى أسر اسكندرية حصلت على المواطنه الرومانية • ولكن معظمهم كانوا من قدامى الجنود المسرحين • والمعروف أن الأباطرة ـ لمدة قرن ونصف قرن من الحكم الرومانى ـ كانوا يختارون عسكريين من أقاليم للخدمة فى الوحدات العسكرية العاملة فى أقاليم أخرى • وخلال تلك العقود كان الجنود المسرحون الذين أقاموا فى مصر ذوى أصول أجنبية • ونظرا لأنهم بقوا فى مصر أغلب عمرهم فانهم كانوا يحسون بالانتماء اليها ، كما اتخذوا لهم زوجات من مصر وأصبح لهم أبناء فيها ، هذا على الرغم من أن النظام الرومانى لم يكن يسمح للجندى بالزواج قبل القرن الثالث • وكانت الزوجات والأبناء يتم الاعتراف بهم عند تسريح الأب • لقد كان الامبراطور هادريان (١١٧ ـ ١٣٨ م) هو الذى بدأ النقلة نحو التجنيد المحلى ومنذ منتصف القرن الثانى تزايد بين الجنود المسرحين فى مصر عدد الرجال الذين ينتمون الى عواصم المحافظات والذين وجدوا الطريق للدخول الى عالم الحقوق الرومانية من خلال التحاقهم بالخدمة العسكرية •

وما لم يكن الجندى على غير العادة مسرفا أو مغامرا فانه عندما يسرح من الجيش تكون حالته المالية جيدة ، ليس فقط لأنه يحصل على مكافأة تسريح (١٢ ألف دراخمة بالنسبة للجندى فى الفرقة وأقل من ذلك بعض الشىء بالنسبة لجندى الفرق المساعدة) وانما أيضا لأنه لابد قد استطاع خلال ربع القرن الذى قضاه فى الخدمة العسكرية أن يوفر جزءا من دخله • وفى سنوات خدمته فى الحامية العسكرية أو الشرطة أو النشاطات المتصلة بهما فانه كان يجد بسهولة فرصا للكسب السريع الى جانب الاستثمارات طويلة الأمد ، وهذه تشمل شراء وبيع العبيد وتحقيق فوائد من مختلف الأنشطة ويضاف الى ذلك اقراض الناس ، وكانت بمقدار الفائدة الشهرية القانونية ١٪ وفى بعض حالات الضرورة كانت تزيد عن ذلك • وقد ذكر أن جنديا اشترى نولا ب ١٣ الف دراخمة ودفع الثمن فورا • وآخر كان رئيس مئة (سنتوريون) يمتلك قاربا نهريا حمولته ٥٠٠ أردب من الحبوب (حوالى ١٢ر٥ طن) وأنه أجر ربانا لكى يديره لحسابه • ووصلتنا وصية سنتوريون آخر من وحدة خيالة سجل فيها ممتلكاته منها قوائم بالأشياء العسكرية والشخصية بالاضافة الى مبالغ نقدية مقدارها ثمانى قطع ذهبية و٥ر١٩٩ تالنت فضة (أكثر من مليون دراخمة) ولكن بسبب التضخم الذى ساد عصره كانت الدراخمات تحصى فى وحدات كل منها الف أو عشرة آلاف ويلاحظ أن القليل من أمواله حفظ فى صندوقه (فى المعسكر) ولكن الجزء الأكبر من هذا المال اقترضه خمسة عشر مقترضا •

وكان الجندى لكي يخطط لحياته بعد الاحالة الى المعاش يهتم أولا بان يتأكد من قانونية أوراقه . وعلى سبيل المثال ففى بردية أرخت فى مدينة قيصرية فى يهودية بتاريخ ٢٢ يناير سنة ١٥٠ م وعثر عليها فى مصر نجد اقرارا بأن ٢١ جنديا مسرحا ذكرت أسماؤهم قد سرحوا من فرقة رومانية وليس من وحدة مساعدة

وهناك بردية نشرت فى أوسلو فى العام الماضى فقط أفادتنا بنوع آخر من الوثائق التى كانت تتم لصالح المسرحين . كتبت الوثيقة بتاريخ ١٠ ديسمبر سنة ١٤٩ م وهى خطاب من موظف رومانى يأمر فيها سكرتير أحد الأقاليم بأن يمد جندى أتم خدمته بشهادة تذكر اعفاءه من دفع ضريبة الرأس (٣) .

أما الخطوة التالية للجندى المسرح بعد حصوله على الأوراق ووجود المال فهى البحث عن اقطاعية ومن الأنسب أن تصلح سكنا واستثمارا . وتدل الوثائق على أن المسرحين كانوا يتركزون فى القرى الأكبر والأكثر ثروة . ففى اقليم أرسينوى كونوا فى فيلادلفيا فى بداية القرن الثالث حوالى خمس عدد أصحاب الأملاك وبالعكس تماما فى قرية Soknopuiou Nesos على بعد حوالى ٥٠ كيلو مترا نحو الشمال الغربى حيث نلاحظ عدم وجود دليل واحد على تملك أى رومانى لأى أرض هناك . وذلك لأن القرية كانت تقع على حافة الصحراء وفى النهايات لنظام الرى وليس فيها أرض جيدة (٤) .

وكما يعتقد فان الجندى كان يبدأ البحث عن موطنه الجديد قبل تركه للخدمة بفترة . ربما فى العام أو العامين السابقين على احالته

---

(٣) نشرت بردية أوسلو فى :

Proceedings of the XVI International Congress of Papyrology. American Studies in Papyrology, 23 (1981), 599.

والوثيقة السابقة كتبت باللاتينية فى PsI 1026

لقد تسلم كل جندى سواء خدم فى فرقة أو قوات شهادة مكتوبة باللاتينية باتمامه الخدمة وتسريحه بشرف كما تذكر الامتيازات المترتبة على ذلك . وكان جنود الفرق من المواطنين الرومان طول سنين خدمتهم ولذلك لم يكونوا فى حاجة لشهادة عن وضعيتهم وقت تسريحهم . وحالة هؤلاء الاثنين والعشرين شاكيا حالة خاصة اذ أنهم لم يكونوا مواطنين عند بدء الخدمة العسكرية وفيما بعد نقلوا للخدمة فى فرقة ولأن قوائمهم المسجلة تؤكد أنهم فى القوات المساعدة كانوا فى حاجة الى وثيقة توضيحية . ان ترجمة PSI 1026 ظهرت فى L-R II, pp. 525-6.

(٤) المعلومات الخاصة بـ Soknopaiou Nesos درسها وقدم تحليلا لها

D. H. Samuel, Proceedings of the XVI of Papyrology, American Studies in Papyrology 23 (1981) 389-403

وبحث القارىء أيضا اشارات لدراسات أقدم تنسب الى أماكن أخرى .

للمعاش . ونرى هذا الموضوع بوضوح فى خطاب مؤرخ من عام ١٣٦ م كتبه جندى لأخيه وهو يتوقع انتهاء خدمته بعد عام . وكان هذا الأخ قد أحيل للمعاش بالفعل وعاد الى وطنهما فى قرية كرانيس فى اقليم ارسينوى .

« أرجو أن تستقبل بالترحاب حامل هذا الخطاب ترنتيانوس Terentianus وهو جندى سرح بشرف ، أطلعه على طرق حياة مزارعينا بطريقة تحفظ له كرامته . وحيث انه راغب فى الاقامة هناك ، فقد أقنعته أن يستأجر منزلى لهذه السنة والسنة التالية فى مقابل ٦٠ دراخمة ، وأجرت له أرضى بـ ٦٠ دراخمة (أخرى) ، أرجو أن تستخدم ١٢٠ دراخمة لكى تشترى لى من صديقنا تاجر الكتان قرب معبد المدينة ... » (ويتلو ذلك تفصيلات غير متعلقة بالموضوع الذى ندرسه) (٥) .

اننا لا نعرف عن حياة ترنتيانوس شيئا فيما تلا ذلك من زمن فيما عدا أنه قد استقر فى كرانيس ، حيث اكتشفت جامعة متشجان فى الفترة من ١٩٢٤ ــ ١٩٣٤ مجموعة من خطاباته فى واحد من المنازل ، ومن هذه الخطابات نعلم أن ترنتيانوس نفسه كان ابنا لجندى مسرح ، وأنه خدم فى الأسطول الذى عسكر فى الاسكندرية .

ونقرأ بين سطور الرسالة التى ذكرناها ما يشير الى أن الأهالى الوطنيين لم يكونوا يرحبون دائما بجندى مسرح جديد ، أو ينظرون الى حضوره بسعادة . أغلب الأمر أن نوعية الاستقبال وحرارته كان يتوقف على الشخص ذاته ولذلك نجد كاتب الخطاب يوصى أخاه بأن يساعد ترنتيانوس حتى لايبدأ بأية خطوة خاطئة . وموقف الفلاحين من الجنود وشكهم فى نواياهم سواء كانوا فى الخدمة أو خارجها أمر مفهوم ، فالقوات العسكرية أو الضباط ما كانوا يظهرون فى القرى الا ليطلبوا شيئا كسكن او طعام أو ضرائب.وحتى عندما تتم الاستجابة لهذه الطلبات فكثيرا ما كان الجندى يزيد عليها شيئا لنفسه ويبقى القرويون بغير حول ولا قوة غير قادرين على ايقاف الابتزاز (فصل ٨) .

وخلال فترة التقاعد فان الجندى المسرح يكون عليه أن يكون جارا طيبا ، بل وعليه أيضا أن يرعى الأنشطة المحلية ولكن اذا لم يحدث ذلك فان القادم الجديد يمكن أن يصبح عبئا على المجتمع . وعلى سبيل المثال فاعفائه من كثير من الضرائب والخدمات الالزامية لا يعنى فقط تمتعه بمركز متميز وانما يعنى أيضا تحميل نصيبه من الضرائب والخدمات على جيرانه

---

(٥) SB 9636

غير المميزين . ولقد اثبتت التجارب أن هؤلاء القادمين الجدد كانوا غالبا يستغلون مزاياهم الى آخر المدى على حساب المصريين والاغريق المتمصرين الذين يعيشون بينهم. وبالنسبة للجنود المسرحين كان التمسك بامتيازاتهم أسلوبا للبعد عن تذكر أصولهم الوضيعة . ولقد عثر على بردية مؤرخة من عام ١٦٢ م تضم شكوى من جندى مسرح يدعى Gaius Julius Niger محور الشكوى فقد في السطور العليا من البردية ولكن الجزء المحفوظ يقول فيه نيجر : « وهكذا حيث أن الأضرار التى لحقتنى عظيمة ونظرا لأنى رجل رومانى عانى هذه الأضرار (وعدم الاحترام) على أيدى مصرى فاننى أرجو ... » . كما عثر قبل سنوات على خاتمة شكوى تذكر الآتى :

« الموقعون أدناه يقسمون بعظمة الامبراطور قيصر تيتوس ايليوس هادريانوس أنطونينوس بيوس أنهم يقدمون هذه الشهادة بصدق . لقد كنا فى قرية فيلادلفيا فى اقليم أرسينوى . تقسيم هيراكليدس Heiakleides فى معبد القياصرة حيث شاهدنا Gaius Maevius Apelles جايوس مايفيوس أبيللس وهو جندى مسرح من فرقة أبيان ، وهو يجلد بالسياط بواسطة حارسين بأمر من الاستراتيجوس هيراكس Hierax ولذلك نقسم أننا نقرر أننا شاهدناه وهو يجلد فى قرية فيلادلفيا (تاريخ ١١ فبراير سنة ١٥٣ م توقيع سبعة كلهم رومان) .

كان عقاب أى رومانى على الصورة المبينة فى البرديتين من أكثر ما يصدم المشاعر الرومانية - فى ضوء التقاليد الراسخة - التى تقول ان أول قانون صدر فى الجمهورية الرومانية بعد طرد الملوك نص على أنه لا يجوز لأى موظف (سام) أن يعدم أو حتى يجلد مواطنا رومانيا اذا مارس حقه فى الدفاع عن نفسه » . وفى البرديتين نجد موظفا مدنيا فى اقليم يجرؤ على تعنيف شخص يتمتع بالحقوق الرومانية فى الوقت الذى تمنع القوانين الموظفين السامين أن يفعلوا شيئا من هذا ، فالى أين كان يسير العالم !؟ (٦) .

أصبح كثير من قدامى الجنود شخصيات بارزة فى أقاليمهم التى عاشوا فيها ليس فقط بما تقدمه لهم جنسيتهم الرومانية من وضع متميز بل أيضا بسبب ثرواتهم الكبيرة . لقد كانوا أغنياء بالفعل بمقاييس القرى التى وصلوا اليها ، ثم زادت ثرواتهم بتملكهم للأراضى والزراعات والأعمال المتصلة بهما . ولدينا تفصيلات عن بعض رجال الأعمال

---

(٦) الوثائق هى .

SB 11114, and SB 7523 = Select papyri 254.

والجملة مقتبسة من شيشرون :

On the Republic, Bk, 2, ch 52.

المهمين منهـــا عدد كبير من البرديات تخص جنـــديا قديمـــا يدعى
Lucius Bellenus Gemellus استـــقر بعـــد تسريحه حوالى عـــام
٨٠ م فى الفيوم ٠ وعنـــدما مات بعـــد حوالى ٣٠ عاما عن عمـــر يناهز
السبعة والسبعين عاما أو يزيد ، كان مالكا لاقطاعيات ضـــخمة قرب
قريتى ايوهميريـــا Euhemeria وديونسياس Dionysias وثلاث قرى
أخرى على الأقل ٠ وكان لديه معاونون لادارة أملاكه التى يقع أبعدها على
مسافة خمسة عشر كيلو مترا أو يزيد كما وصل اشرافه على أعماله الى أدق
التفاصيل ٠ وقد استخدم فى احدى مزارعه ٢٧ عاملا أو يزيد فى وقت
الحصاد٠كما كان يمتلك معصرة للزيت٠وكان يرسل هدايا لاستراتيجوس
الاقليم عندما يأتى عيد ايزيس ٠ وأمر بتجهيز عشر دجاجات للاحتفال بعيد
ســـاتورن Saturnalia كما كان غنيا حتى انه قدم عجلا كقربان فى
عيد آخر ٠ لقد كان الكل فى الكل هناك وشكل هو وابنته وأبناؤه الثلاثة
أسرة من أعيان المجتمع المحلى ٠

مثال آخر هو Gaius Julius Niger الذى سبق أن ذكرنـاه ٠
استقر فى كرانيس فى عام ١٥٤ عند تسريحـه من الخيالـة وكان عمره
٤٧ عاما ، واشترى منزلا بفناءين ب ٨٠٠ دراخمـة فضية ، وهو ثمن
بالمقارنة بما نعرفه عن الأسعار فى تلك الفترة يوحى بأن المنزل كان ذا ساحة
كبيرة وله قيمة لا بأس بها ٠ وقد عاش فى هذا البيت حتى بلغ من العمر
واحـدا وثمانين عاما ٠ ونجـا من الطاعون الذى هاجم أجزاء كبـيرة من
الامبراطورية الرومانية بما فيها مصر فى السبعينات بعد المائة ٠ وقد
تملك خـلال اقامته فى كرانيس مساحات كبيرة من الأراضى والعقارات
فى عدد من القرى ٠ وقد آلت اقطاعيته الى ولديه بعد وفاته ومن بعدهما
آلت الى أرملة وأولاد أحدهما (يبدو أن الآخر لم تكن له زوجة أو ذرية) ٠

اغريق الحضر واليهود :

ان مصر التى ضمها اكتافيوس كانت تضم داخلها ثلاث مدن اغريقية
(بولس) ، مارست تسييرا ذاتيا كما تمتعت بعدد آخر من المميزات ٠
والمدن الاغريقية فى مصر حسب ترتيب نشأتها هى :

نوقراطيس فى دلتـا النيـل ، وكانت قد انشئت بقرار من أحـد
فراعنة القرن السادس ق٠م ، كعرفان بخدمات التجار والمرتزقة الاغريق ٠
ثم الاسكندرية الميناء الكبير التى أنشأها الاسكندر الأكبر فى عام ٣٣١
ق ٠ م ٠ ثم بطوليمس التى أقيمت خلال الجيل التالى للاسكندر ٠ وقد
أقيمت فى مصر العليا على بعد ما يقرب من ١٢٠ كيلو مترا الى الشمال

الغربى من طيبة عاصمة الفراعنة • والمعروف أن بطوليمس أقامها أول حكام الاسرة الهلينستية الجديدة وسميت باسمه •

وخلال العصر الرومانى أقيمت مدينة رابعة هى أنطينوبولس وقد أقامها الامبراطور هادريان فى مصر الوسطى فى عام ١٣٠ م تخليدا لذكرى انطينوس رفيق الامبراطور الدائم ، الذى غرق فى هذا الموضع أثناء رحلة لهما على النيل • ونظرا لأن نظام المدينة الجديدة تم أيام هادريان الامبراطور الرومانى ، فقد كان لها نفس النظام الحكومى التقليدى لمدينة اغريقية بالاضافة الى بعض مميزات البلدية الرومانية ، ومنح مواطنوها سلسلة من المميزات • وقد وفد بعض المستوطنين على أنطينوبولس من بطوليمس • ونحن لا نعلم ان كان ذلك استجابة للمميزات الجديدة التى حظيت بها المدينة أم أنهم ببساطة قد اختيروا وطلب منهم الانتقال الى هناك •

كانت الاسكندرية هى ملكة المدن فى شرق البحر المتوسط،والعاصمة الثقافية للعالم الهلينستى • كما كانت معبرا للتجارة بين العالم اليونانى الرومانى والمناطق الواقعة شرق هذا العالم وجنوبه • وهى مدينة جاء اليها العرب والاثيوبيون والهنود وغيرهم من مختلف الأجناس كغرباء أو كمقيمين • وتظهر شخصية الاسكندرية بوضوح فى الأدب اليونانى والأدب اللاتينى • لم نعثر على الكثير من الوثائق المعاصرة لتاريخ الاسكندرية حيث تآكلت بفعل الرطوبة فى أرض الدلتا وقد تم العثور على عدة برديات فقط فى حالة سيئة من الحفظ • وفيما عدا بعض المخلفات الأثرية ، فان الآثار قد اختفى أغلبها بفعل استمرار سكنى الموقع لعديد من القرون المتصلة • أما طوبوغرافية المدينة فنحن نعرف فاروس ، فنارها الذين اعتبر احدى عجائب الدنيا السبع ، كما نعرف بعض المعالم الكبرى الأخرى ، ونعلم بعض الشىء عن ميناءيها ونعلم أن اتساع طرقها الرئيسية كان ثلاثين مترا وكانت الشوارع الجانبية ما بين ٦ و ٧ أمتار عرضا وأنها كانت مرصوفة بكتل الحجارة • وطبقا لديودورس الصقلى ، كانت الاسكندرية على زمن أوغسطس تضم ٣٠٠ الف مواطن حر ، مما يجعل الرقم التقريبى لسكانها حوالى نصف مليون •

المعلومات عن نقراطيس وبطلمية (بطوليمس) تحت السيادة الرومانية قليلة جدا ، ولكن بالنسبة لأنطينوبولس فان البردى الذى نشر فى المائة سنة الماضية قدم لنا مادة جديرة بالاعتبار ، خصوصا ما يتصل بتنظيمها السياسى وامتيازات مواطنيها • وبالرغم من بعض الاختلافات فان المدن الأربع فى جوهرها كان لها نفس الهيكل التنظيمى •

فمثلا نجد أن واحدا من أبرز العناصر وضوحا فى المدن الأربع هو تقسيم مواطنيها الى قبائل وأحياء demes وهو أحد السمات الباقية من دساتير المدن الدول فى العصر الكلاسيكى ٠ سمة أخرى نلاحظها فى المدن الاغريقية فى مصر وهى المحافظة بشدة على الجيمنازيوم باعتباره ميراثا من المدينة الاغريقية ، وتبعا للنظام والأسلوب الكلاسيكى قام مواطنو المدن الاغريقية فى مصر بدورهم فى خدمة الجمنازيوم ٠ فكان منهم الجمنزيارخ Gymnasiarch الذى كان يمد الجمنازيوم بالزيت للاضاءة والمساج وكذلك Kosmetiai الذين كانوا يشرفون على طقوس خاصه بالشباب Ephebes ، اما الرياضات الشعبية فقد كانت تتركز باضطراد فى حلقات amphitheatres الرومانية التى انتشرت فى كل شرق البحر المتوسط ٠ وأصبحت المصارعة والملاكمة والجرى وسائر المسابقات الاغريقية التقليدية ميدانا يقبل عليه المحترفون بينما تضاءل دور المواطن العادى فى الرياضات والألعاب حتى أصبح مجرد مشاهد لها كما كان الوضع فى روما ٠

وكان مجلس الشورى Boule بالنسبة للمدينة الدولة هو حجر الزاوية فى حكومتها الذاتية ٠ وكان المواطنون ينتخبون أعضاءه من بينهم ٠ ولكن الاسكندرية عانت لمدة قرنين تحت الحكم الرومانى من عدم السماح لها بانتخاب مجلسها ٠ ويقال ان هذه السياسة اتبعها اكتافيوس ضدها نظرا للعداء الذى أبداه اغريق تلك المدينة لقيصر أولا ثم له شخصيا بعد ذلك ٠

وهناك اشارة فى احدى البرديات تذكر السماح لنوقراطيس مثل بطوليس بالاحتفاظ بمجلس الشورى الذى كان لها (٧) ونحن نعلم أن قرار انشاء أنطينوبولس تضمن وجود مجلس لها ٠ وأخيرا منحت الاسكندرية مجلسا للشورى فى عام ٢٠٠ م وذلك عندما قرر الامبراطور سبتموس سيفروس انشاء هذا المجلس فى كل عواصم المحافظات المصرية ومما لاشك فيه أن السكندريين لم يسعدوا عندما وجدوا مدينتهم العريقة تقف جنبا الى جنب مع المدن الريفية ٠

وعلى الجانب الاقتصادى فان الامتيازات التى تمتع بها سكان المدن الأربع كانت مهمة ٠ فالعمليات التجارية بالتأكيد كانت متساحة فى

---

(٧) الدليل على وجود مجلس شورى Boule فى بطلمية موجود فى SB 9016 التى حفظت وثائق عامى ٤٨ م و ١٦٠ م ٠

الاسكندرية حتى لغير المواطنين . ولكن المواطنين فقط كانوا لايدفعون ضريبة الرأس مثلهم فى ذلك مثل الرومان بينما كانت هذه الضريبة تمثل عبئا ماليا كبيرا بالنسبة لسكان الاقاليم فضلا عن كون هذه الضريبة علامة على الخضوع . بالاضافة الى ذلك ففى القرن الأول من حكم الرومان لم يسمح لسكان مصر فيما عدا الاغريق من ساكنى المدن على ما يبدو بأن يشتروا أراضى عامة معينة اذا ما عرضت للبيع . والواضح بعون أى شك أنه خلال فترة الحكم الرومانى امتلك مواطنون من الاسكندرية وانطينوبولس (وربما أيضا نوقراطيس وبطوليس بالمثل) مزارع وفى بعض الأحيان اقطاعيات واسعة ، فى مناطق مختلفة من مصر تبعد أحيانا مئات الكيلو مترات من المدن التى يعيشون فيها . كانت أراضيهم فى اقليم الاسكندرية معفاة من الضرائب ، وأينما كانت أملاكهم فانهم وأسرهم كانوا معفين من القيام بالخدمات الالزامية ، وهى خدمات مختلفة الأنواع تمثل كلفة فى الوقت والمال وكان السكان المحليون مضطرين للقيام بها (الفصل الثامن) .

وأخيرا وليس آخرا فان مواطنى المدن الاغريقية كان يسمح لهم بالخدمة فى الفرق الرومانية وهكذا يمكنهم أن يصبحوا مواطنين رومان بعد تجنيدهم مباشرة ، بينما كان باقى سكان مصر يمكنهم فقط أن يخدموا كما رأينا فى الوحدات المساعدة ، والتى من خلالها يمكنهم أن يكتسبوا الجنسية الرومانية بعد أكثر من ربع قرن من الخدمة العسكرية .

ان مجرد السكنى فى المدينة الاغريقية لم يكن يعنى أن يمنح الانسان حق المواطنة فيها . فلقد عرفت هذه المدن كثيرا من السكان من غير مواطنيها فرجال الأعمال ، سواء كانوا محليين أو أجانب ، لاحقوا فرص العمل التى تقدمها المدينة ، وكانت المدن أيضا تعج بالعبيد والرعاع والمصريين من كل لون لخدمة المواطنين .

نتحدث الآن عن مجموعة كبيرة أخرى من سكان الحضر خاصة فى الاسكندرية ونقصد بهم اليهود .

ظهر اليهود فى مصر (مرة أخرى) بعد الخروج الذى ذكرته التوراة على الأقل منذ منتصف القرن السادس ق . م . وقد عثر على نحو مائة بردية وأوستراكا بالآرامية تعود للقرنين الخامس والرابع تثبت لنا وجود استقرار يهودى عند الشلال الأول على النيل كان أفراده يحرسون الحدود الجنوبية لمصر لصالح حكامها الفرس فى ذلك الوقت . نقرأ فى هذه الوثائق الآرامية عن زواج وطلاق وشراء وعتق عبيد (البعض كانت لهم أسماء مصرية بينما يحمل البعض الآخر أسماء سامية) كما نجد اشارات

الى امداد الحامية بالمؤن • وتفاصيل عن الحياة الخاصة مثل الشكاوى والفتاوى القانونية المتعددة كالتصرف في المنازل والأراضى (سواء بالبيع أو الهبة) والقروض (بفائدة سنوية تصل الى ٦٠٪) وسلف عينية (ترد بالضعف خلال عشرين يوما) • اننا نعلم دون أن تعترينا الدهشة ، أنه كان لهم معبد ليهوه Yahweh على جزيرة الفنتين ، وقد أعيد بناؤه بعد أن تهدم أو خرب (ولا نعلم كيف ولماذا حدث للمعبد ذلك) ، ولكننا نعلم أيضا مع بعض الدهشة أن آلهة أخرى كانت تعبد هناك أيضا ـ وربما كانت ارهاصات الآلهة التوفيقية Syncretistic التى سادت فيما بعد خلال العصرين الهلينستى والرومانى (الفصل الخامس) •

وفيما بعد انتشرت الجاليات اليهودية فى مصر وازدهرت • فقد سمح لهم البطالمة بأن يعيشوا طبقا لتعليمات دينهم • ورغم أنهم استمروا فى حياتهم التقليدية الا أن اليهود لم يكونوا بعيدين عن تأثيرات الحضارة الاغريقية خاصة فى الاسكندرية • وما كان ينظر اليه علماء الأمس بشك من أن الترجمة الاغريقية للعهد القديم قد تمت فى الاسكندرية خلال القرن الثالث ق•م • أصبح مقبولا الآن • وفى العقود الأولى من القرن الأول الميلادى ألف فيلون ـ الذى كان أحد يهود الاسكندرية الأثرياء والذى تعمق فى الفلسفة الاغريقية ـ مجلدات باليونانية ، ما تزال تقرأ حتى اليوم ، شرح فيها كتابه المقدس لغير اليهود مستخدما مصطلحات وتعبيرات تنتمى للتراث الهلينى •

قرر فيلون فى أحد أعماله أن سكان الاسكندرية من اليهود يبلغون مليونا على أيامه • وهذا الرقم بغير شك مبالغ فيه ، حيث كان سكان المدينة جميعهم يقدرون فى ذلك الوقت بنصف هذا العدد كما أننا نعلم أن المدينة كانت مقسمة الى خمسة أحياء ، واحد منها فقط هو الذى كان يهوديا كلية • وفى مقابل تأييدهم لأوغسطس فانه أكد المزايا التى كانوا يتمتعون بها تحت حكم البطالمة والتى كان من بينها وجود مجلس شيوخ لهم فى نفس الوقت الذى حرم فيه الاغريق من مجلس شورى لهم • ولايدهش المرء لأن اليهود أطلقوا العنان لأنفسهم لكى يتصوروا أنفسهم اسكندريين سواء بسواء مثل الاغريق بما فى ذلك حقهم فى الانضمام للجمنازيوم ، عماد الانتماء للعالم الهلينى • ولايدهش الانسان أيضا لرد الفعل السكندرى الذى تميز بالعداء الشديد لليهود حتى وصل فى عام ٣٨ م مثلا الى حد الصدام المسلح • وما تلا ذلك من ارسال مبعوثين لكل طائفة يدافعون عن وجهة نظرها أمام الامبراطور كاليجولا فى روما • كما قابل كلوديوس وهو بعد امبراطور جديد فى عام ٤١ م سفارات مماثلة • وقد أجاب كلوديوس على السفراء بخطاب مشهور (محفوظ فى بردية اقتناها المتحف البريطانى فى

١٩٢١) فارضا على الطرفين المحافظة على الوضع الراهن فى سلام • وفى خطاب شخصى كتبه اسكندرى مجهول قبل شهور من نفس العام نجد تحذيرا فى نهاية عدد من التعليمات خاصة بالبيع والشراء قائلا بأنه :

« مثل كل واحد آخر ، عليك أن تحذر اليهود » (٨) •

تقلصت مميزات اليهود كثيرا فيما تلا ذلك من سنوات نظرا لثوراتهم المتعددة خلال القرنين الأول والثانى الميلاديين • ففى أثناء الثورة الأولى حاول لاجئون من يهودية أن يثيروا التمرد فى أماكن أخرى بعد سقوط أورشليم وتدمير الهيكل فى عام ٧٠ م ولكن لم يستجب لهم يهود مصر وبقوا موالين لروما • ومع ذلك فقد أغلقت الحكومة الرومانية فى مصر معبد اليهود الرئيسى فيها والذى كان قائما فى Leontopolis قرب منف ، وتم الاستيلاء على ما فيه من خزائن • وقد لجأت الحكومة الى ذلك خوفا من أن يحل هذا المعبد كمركز للمقاومة اليهودية محل المعبد الذى هدم فى أورشليم • كما فرضت الحكومة على اليهود أن يدفعوا ضريبة النصف شيكل (= درخمتان) التى كانوا يقدمونها عن كل ذكر بالغ سنويا لصالح معبد أورشليم يدفعونها الى الاله الرومانى جوبتر الكابيتولى Jupiter Capitolinus • وكان اليهود قد أحرقوا معبده فى أورشليم قرب نهاية الثورة • وحرصت الحكومة على أن تعمم هذه الضريبة على أفراد كل منزل يهودى ابتداء من سن الثالثة ولم يستثن من ذلك حتى العبيد • لقد اتسم فرض هذه الضريبة على اليهود بالتشفى والانتقام ، ويتضح ذلك من استمرار تحصيلها حتى القرن الثانى الميلادى بعد فترة طويلة من انتهاء الهدف الذى فرضت من أجله وهو اعادة بناء معبد جوبتر • وان كان الملاحظ رغم ذلك أنه قد ترك لليهود حق العيش طبقا لعادات أسلافهم •

وبينما كانت ثورة اليهود الأولى قد بدأت فى يهودية ثم انتقلت آثارها فيما بعد لليهود المصريين ، فان الثورة الثانية لليهود ضد الرومان كان مركزها مصر • وتعود جذورها الى العداوة المستمرة بين اليهود والاغريق فى الاسكندرية وما كان ينتج عنها من اثارة ومصادمات • جاءت اللحظة المناسبة للتمرد اليهودى عند انسحاب الوحدات الرومانية من مصر للاشتراك فى حروب تراجان فى بارثيا • بدأت الثورة فى عام ١١٥ م

---

(٨) خطاب كلوديوس فى P. Lond. 1912 = Select Papyri 212 = Corpos Papyrorum Judaicorum 153.
والأخيرة بها ترجمة وتعليق وتوجد ترجمة أخرى فى L-R II pp. 366-9.
اما خطاب السكندريين فنجده فى BGU 1079 = Select Papyri 107 = Corp Pap. Jud 152.

فى مصر وبرقة وسرعان ما امتد أوارها الى قبرص ويهودية وميزوبوتاميا ٠ وبينما تم القضاء على الثورة سريعا فى الاسكندرية نفسها ، فانه لم يتم القضاء عليها فى الأماكن الأخرى الا بعد فترة وجيزة من اعتلاء هادر يان للعرش فى عام ١١٧ م ٠ ولقد ظل صعيد مصر من نهاية الدلتا الى الاقليم الطيبى ميدانا لحرب العصابات لمدة ثلاث سنوات ٠ وقد عثر على أكثر من عشرين وثيقة برديه فى عدة أماكن تشير إلى عنف القتال ٠ فالى أعداد القتلى وأولئك الذين طردوا من ديارهم بسبب التدمير الذى لحق بالمبانى والمزارع أثناء التمرد اليهودى ٠ لقد عثر على نقوش فى قورينى تتحدث عن طرق دمرت ومنازل احترقت ٠ ولدينا خطاب هام كتب بتاريخ ٢٨ نوفمبر سنة ١١٧ م موجه من استراتيجوس أحد الأقاليم الى والى مصر يرجو فيه الحصول على « أجازة لستين يوما لكى أعيد أمورى الى نصابها ٠٠ ليس فقط لأن أمورى قد أهملت كلية بسبب غيابى الطويل ، ولكن أيضا بسبب اغارة اليهود على كل شئ أمتلكه فى قرى اقليم هرموبولس كما أن مصالحى فى عاصمة الأقليم تحتاج لاعادة ترتيب ٠ فاذا وافقت على طلبى فاننى بعد أن أعيد تنظيم أمورى الى أفضل وضع ممكن سأكون قادرا على الالتفات الى واجبات وظيفتى بروح أفضل » ٠

ولقد كانت مدينة أوكسيرنخوس Oxyrhynchus ما تزال تتذكر هذه الأحداث بعد مضى مئة عام على حدوثها كما يبدو فى البردية التالية :

« ان نياتنا الصادقة واخلاصنا وصداقتنا للرومان التى أظهرها شعبنا عندما حارب معهم جنبا الى جنب ضد اليهود ٠ ونحن حتى اليوم ما نزال نحتفل كل عام بيوم (هذا) النصر » (٩) ٠

لقد انكسرت المقاومة اليهودية ضد الرومان فى مصر فى عام ١١٧ م والى الأبد ٠ وعندما قضى الرومان بعد سبع عشرة سنة على أعنف ثورة فى يهودية ضدهم بقيادة ابن النجم Bar Kochba فان النداءات الدينية للحركة لم تحرك حمية من بقى من اليهود فى مصر ٠

المصريون :

اذا كنت تسكن مصر ولست رومانيا ولا مواطنا فى احدى المدن الاغريقية الأربع كما أنك لست يهوديا اذن فانت بالنسبة للحكومة الرومانية مصرى ، ولا يعنى شيئا ان كنت قد انحدرت من ستة أو سبعة أجيال من طبقة العسكريين صاحبة الامتياز الوراثى والتى كانت قد أقطعت

---

(٩) P: Giss. 41 = W. Chr. 18 = Select papyri 298, and P. oxy. 705 = W. chr. 153.

وهذه الوثائق وغيرها التى تشير للثورة واثارها جمعت Corp. Pap. Jud. 435-50.

مساحات من الأراضى أيام البطالمة ٠٠ لقد انتهت هذه الوضعية المتميزة وانتهى معها الفخر بان أسرتك لها أصل اغريقى أو مقدونى أو من كوس أو كريت أو تساليا أو غيرها ٠ فانتم جميعا الآن مصريون فى سجلات الحكومة ٠ ويعبر المؤرخ ليفيوس عن هذه الحقيقة بكلمات أخرى قائلا « ان المقدونيين قد انحدروا الى مستوى المصريين » (١٠) وهى عبارة تعتبر بغيرشك صدى لحال الأمور فى ذلك الوقت ٠

وعادة عندما تجتمع كل هذه المجموعات من السكان سويا فى طبقة سياسية أو وضعية واحدة أمام القضاء ، فسرعان ما يخلقون لأنفسهم تدرجهم الاجتماعى داخل هذه الطبقة ٠ وفى التاريخ الحديث قامت مثل هذه التقسيمات أحيانا على أساس لون البشرة ، كما فى الهند ومنطقة الكاريبى ٠ أما بالنسبة للمصريين تحت الحكم الرومانى فقد كان المحك هو مقدار التأغرق ٠ فالزواج بين المصريين الوطنيين والمنحدرين من أصل اغريقى أصبح شائعا ، خصوصا فى الريف ٠ وكان الأطفال من مثل هذا الزواج يمنحون أسماء تتصل بأسماء الأسرتين (وسنلاحظ فى الفصول التالية أمثلة على ذلك) ولكن اذا سجل وطنى باسم مصرى ثم رغب فى تغييره الى اسم اغريقى فسيستلزم ذلك تصريحا من السلطة الرومانية المختصة ٠ وفيما يلى طلب بهذا الشأن أرخ فى ٢٧ أغسطس سنة ١٩٤ م :

« الى صاحب السعادة كلوديوس أبوللونيوس مدير الخزانة الخاصة Privy Purse من يودايمون ابن بسويس وتياتريس من قرية ٠٠٠ فى اقليم نسيت ٠ أنا أرغب ياسيدى من الآن فى تغيير بياناتى وأن أسجل اسمى باسم يودايمون بن هيرون وديدمى بدلا من بسويس وتياتريس ٠ ولن يضار بعملى هذا أمر عام ولا خاص ولكنى سأستفيد ٠ وداعا أنا يودايمون أرفع هذا ٠ (التاريخ) ٠

(تأشيرة) نظرا لعدم ضرر أى أمر عام أو خاص أوافق على ذلك (١١)٠

كانت كل العلاقات الداخلية الخاصة لهذه الطبقة (المصريون) تدخل تحت سلطة دائرة الخزانة الخاصة Privy purse للامبراطور ٠ وكان مديرها ـ الذى يعين بأمر من الامبراطور ـ ينظر فى القواعد العديدة والمحظورات ، ويجمع الغرامات من المخالفين ٠ وهناك بردية محفوظة فى متحف المصريات فى برلين الشرقية نشرت بعد الحرب العالمية الأولى تضم أكثر من مائة قاعدة من هذه القواعد ٠ ان نظرة واحدة لتلك القواعد الصارمة لاتترك شكا فى

---

(١٠) History of Rome, Book 37, ch 37.

(١١) W. chr. 52 = select Papyri 301.

أن الأساس الأول الذى وضعه أوغسطس ونفذه خلفاؤه لمدة قرنين من الزمان كان يمنع أى حركة من طبقة الى طبقة أخرى ، ويحقق الحفاظ على طبقات السكان دون تغيير على قدر الامكان • وفيما يلى مختارات من هذه الوثيقة توضح هذه النقطة :

« نسخة من القواعد التى سنها اغسطس المؤله لادارة الخزانة الخاصة ، والاضافات اليها من وقت لآخر بأمر من الأباطرة أو مجلس الشيوخ أو عدد من الولاة أو مديرى الخزانة الخاصة •

٨ ـ اذا نصت وصية مواطن رومانى على خاتمة تقول « ان التعديلات التى حررت بالاغريقية سارية المفعول » فلا قيمة لها ، نظرا لأن المواطن الرومانى غير مسموح له بأن يكتب وصيته بالاغريقية •

١٨ ـ الميراث الذى يترك تحت وصاية اغريق لصالح رومان أو رومان لصالح اغريق قد صادره (الامبراطور) فسبسيان المؤله ، ومع ذلك فقد أجيز منح من يكشف عنه نصف هذا الميراث •

٣٨ ـ هؤلاء الذين ولدوا لأم اغريقية حضرية وأب مصرى يبقون مصريين ولكنهم يرثون الأبوين كليهما •

٣٩ ـ اذا ارتبط مواطن (أو مواطنة) رومانى بزواج مع مواطن (أو مواطنة) اغريقى حضرى أو مصرى فان أولادهما ينتسبون للطبقة الأدنى •

٤٢ ـ هؤلاء الذين يسجلون أنفسهم فى طبقة غير طبقتهم يعاقبون بمصادرة ربع (ضياعهم) • وكذلك أولئك الذين يساعدونهم على هذا الفعل يعاقبون بمصادرة الربع أيضا •

٤٣ ـ اذا ذكر مصريون بعد وفاة أبيهم أنه كان رومانيا ، فيصادر الربع •

٤٤ ـ اذا سجل مصرى ابنا باعتباره ephebe (من شباب الجمنازيوم) يصادر السدس •

٤٥ ـ اذا تزوج اغريقى حضرى من امرأة مصرية ومات دون انجاب فان بيت المال يستولى على أملاكه ، واذا كان له أطفال فيصادر الثلثين • ولكن اذا كان له أولاد من اغريقية حضرية ولديه ثلاثة أبناء أو يزيد فان أملاكه تذهب اليهم ، واذا كانوا اثنين فالربع أو الخمس (لكل منهما) واذا لم يترك الا ابنا واحدا فله النصف •

٤٩ ـ يجب على السكندريين الأحرار الا يتزوجوا مصريات •

٥١ ـ اذا تزوج رجل أبوه سورى وأمه اغريقية حضرية من امرأة مصرية فان عليه أن يدفع غرامة معينة ٠

٥٣ ـ المصريات اللاتى تزوجن من جنود مسرحين وصنفن أنفسهن رومانيات يخضعن لنص انتهاك الحالة القائمه Status quo .

٥٦ ـ الجنود الذين يصنفون أنفسهم رومانا قبل استلامهم قرار التسريح من الخدمة يغرمون ربع ممتلكاتهم (١٢) ٠

تباعدت مواقف المؤرخين كثيرا فى تفسير الخط السياسى لاكتافيوس ـ أوغسطس ، ولكن مع ذلك فحتى أكثر المتحمسين له رأوا أن قانون اجراءات الخزانة الخاصة كان « أداة للتعسف فى جمع المال » ٠ ورغم أن الفقراء فى كل مكان من الامبراطورية الرومانية كانت أوضاعهم لا يحسدون عليها ، ولكن سكان مصر انفردوا بمعاملة استثنائية خشنة ٠ ان السياسة الرومانية تجاه المصريين تبين قمعا يدفع اليه حقد دفين ٠ وفى محاولة لفهم دوافع أغسطس لذلك فان الأمر يحتاج لبعض التأمل ٠ المعروف أن الرومان منذ القرن الثانى قبل الميلاد ومع الانتصارات الرومانية فيما وراء البحار تعرضوا لتأثيرات شرقية هائلة (اغريقية بصورة رئيسية) ٠ وقد أدى هذا الى حالة من الكراهية الشديدة للأجانب سادت الحياة الرومانية السياسية والثقافية ٠ ويذكر كاتو الأكبر ـ الذى قال قولته المشهورة « قرطاج يجب أن تموت » ـ باعتباره أول محرض على كراهية الأجانب ، وكانت الثقافة الشرقية هى أهم الميادين التى وجهت ضدها هذه السياسة ٠ وعندما ظهر اكتافيوس على مسرح السياسة بعد مائة سنة ، وجدت الكراهية الرومانية للأجانب مادتها فى صورة بلد يحكمها ملوكها البدناء الذين يحكمون أرضا تنمو فيها ثروات خرافية ويحفظون ملكهم بزواجهم من أخواتهم ٠ وعلى عكس تلك الصورة الهزلية فان علاقة أنطونيوس بكليوباترة قدمت لاكتافيوس سلاحا دعائيا تام الصنع استغله بمهارة ٠ وأعلن أنه لا يحارب مزيدا من المعارك الأهلية وانما يحارب ضد كليوباترة الملكة المجنونة التى تقود جيشا من الحمقى لكى تهدم معبد جوبتر على الكابتول كما يقول الشاعر هوارس ٠ انضم لهذه الدعاية كل الرومان يستوى فى ذلك السياسى والشاعر ٠ ومهما كانت الاعتبارات الأخرى التى تدخلت فى

---

(١٢) BGU 1210 ٠ وقد ظهر عنها ملخص اوفى فى L-R II, pp. 320-3.

تنظيم الحكم الرومانى فى مصر فمما لاشك فيه أن قواعد الفصل العنصرى انما تعود الى موقف رومانى قديم وصل الى أقصاه نتيجة حملات أغسطس الحربية والدعائية ضد كليوباترة (١٣) .

وفى عام ٢١٢ ميلادية أصدر الامبراطور كراكلا قراره الشهير بمنح الجنسية الرومانية لكل سكان الامبراطورية الرومانية . ان دوافع كراكلا فى الاقدام على هذا العمل غير معروفة على وجه اليقين . ولكن شيئا واحدا توضحه البرديات وهو أن التغيير كان على الأقل تغييرا نفسيا تجميليا الى حد كبير . ولكن التركيب الاجتماعى فى مصر والعلاقات الطبقية ، والمحاذير تبين عدم وجود أية تعديلات جوهرية .. وبالنسبة للمصريين فى مدنهم وقراهم كان التغيير غير ذى أثر بصورة مطلقة .

---

(١٣) عبارات هذه الفقرة مقتبسة من
T. Rice Holme , The architect of the Roman Empire II, p. 10.
— R-Syme, The Roman Revolution, p. 275 ;
— Horace, Ode , BKI, no 27.

المدن الريفية
أو
قابن الصفوة المحلية

عاصمة المحافظة

ان مصر التي ضمها اكتافيوس كانت مقسمة الى نيف وثلاثين محافظة ادارية يطلق عليها نوموس وجمعها نومون Nomoi وهي كلمة اغريقية الأصل تعني المحافظة تقريبا . وكما سبق أن ذكرنا فان أغسطس وخلفاءه تركوا هذه التقسيمات كما هي ولكنهم سحبوا الاختصاصات العسكرية من الاستراتيجوس ، وهو اللقب الذي كان يطلق على حكام المحافظات في مصر . وجعلوا من سلطة حاكم مصر الروماني تعيين الاستراتيجوس وابقاءه في منصبه طالما بقي راغبا في ذلك . وكان لكل استراتيجوس مساعد رئيسي يحل محله اذا ما خلت الوظيفة من شاغلها لأي سبب طارىء هذا المساعد هو الكاتب الملكي ، وهو لقب استمر كما هو واضح منذ عصر البطالمة .

كان لكل محافظة عاصمة Metropolis تتركز فيها ادارة الاقليم . وكانت هذه العواصم تختلف فيما بينها من حيث المساحة وعدد السكان فمنها الكبير والصغير وهذا الأمر لا يمكن أن نقرره اعتمادا على الظن وانما هو انعكاس لكمية المكتشفات الأثرية وأحجامها فضلا عن الوثائق البردية .

واحصاءات السكان ليست متاحه ولا يمكن تقديرها بدقة فقد كشف الحفائر مثلا أن محيط مدينه منف كان على شكل بيضاوى يريد طوله عن خمسة كيلو مترات ويحيط بمنطقه تبلغ مساحتها حوالى كيلو متر مربع أما هرموبولس فكان محيطها مربعا يضم مساحه تبلغ قدر مساحة منف مرة ونصف . ولكن هذا لا يعني بالضروره ان سكان هرموبولس يبلغون مرة ونصف قدر عدد سكان منف فهناك أشياء مجهولة وأمور لا يمكن السيطرة عليها حتى نثق بهذه الاسقاطات . فمثلا ما هي المناطق التى خصصت للمبانى العامة على سبيل المثال أو للمنشآت الدينية ؟ البقايا الظاهرة من مبنى مسرح مدينة أوكسيرنخوس تبين أنه كان يسع لما بين ثمانية واثنى عشر ألف متفرج . هذا الحد الأدنى والحد الأقصى لسعة المسرح كمؤشر لمحاولة حصر العدد الكلى للسكان تنسفه موجة من الأسئلة التى لا اجابة عليها . والصعوبة الرئيسية هى أنه لا سبيل أمامنا لمعرفة الشريحة التى كان المسرح معدا لاستقبالها من بين العدد الكلى للسكان . هل كان مخصصا لكل الذكور البالغين فقط ؟ أم أنه كان يضم فقط سكان العاصمة الذين يتحدثون الاغريقية وذلك فى ضوء معرفتنا بأنه كانت تقدم عليه مسرحيات اغريقية ؟ ان الوصول لاجابة عن هذه الأسئلة أمر غير متيسر .

لقد جاء من احدى العواصم هذا المسح الذى تم فى عام ١١٦ م . « من هيراكيون كاتب المدينة ، ترتيبات الأمن لطرق وشوارع المدينة :

ـ من شارع حمام النساء الى منزل فنايس Phanais ابن سيسويس Sisois فى زقاق أنوفريس Onnophris تاجر الزيت ١٢٣ منزلا . انتاوس Antaios بن هليودورس Heliodoros رئيسا . باريتوس Paretos ابن .... وهرجيوس الصغير Heryeus ابن توتستمس Thotsytmis . أعضاء شرف .

ـ من معبد سيرابيس الى منزل أورسنوفيس Orsenouphis ابن بتوسيريس Petosiris بمنزل خيراس Chairas الرساء ١٢٩ منزلا .

ياخوموس بن هيراكيون . رئيسا وفموليلوس Phmoulilous ابن ... Se.. وبنجر... Pa[illegible] بن ... Psa[illegible] اعضاء شرف .

ـ من مدخل معبد أبولو وأفروديتي ، الالهين العظيمين ، الى مكان احتفالات المجلس ١٣٢ منزلا ٠

انتاوس Antaios بن بسنتاربسيس Psentarpsais رئيسا وهاسيس Hasies ابن كلوتيخيمس Kolloutechmissen وبتيموثيس Peteimouthes ابن ميسيس Miysis ، أعضاء شرف ٠

المجموع = ١٫٢٧٣ منزلا (بعد عشر فقرات مماثلة) ٠ (١) ٠

اذا كان ما ذكر عاليه هو المسح الكلي للمدينة ـ كما يظهر من عنوان الوثيقة ـ فلابد أنها واحدة من أصغر عواصم المحافظات فبلنسبة لهرموبولس ، على العكس من ذلك ، هناك مؤشر يعطينا أن العدد الكلي لمنازل المدينة يبلغ سبعة آلاف منزل وذلك في ضوء الحصر الجزئي الذي ضم ٤٠٠٠ منزل ٠ اننا نعلم أشياء عن تخطيط مدينة هرموبولس في ضوء الحفائر التي تمت في عشر السنوات التي سبقت الحرب العالمية الثانية مباشرة ٠ نعلم مثلا أن المدينة كانت محاطة بسور من اللبن ، وكانت حوائط النصف الشمالي منها ، وهو النطاق المقدس ، مفرطة في سمكها وبلغ ارتفاعها حوالي ٢٥ مترا فكانت بحق معبدا محصنا ٠ وفي مركز هذا النطاق المقدس يقوم معبد الاله هرميس واجهته بعرض خمسين مترا وعمقه أكثر من مائة متر ٠ والاله هرميس هو الاله الذي حملت عاصمة الاقليم اسمه وهو الصورة المتأغرقة للاله المصري تحوت ٠ وأقيم داخل معبد هرميس معبد لأوغسطس ٠ وقد ضمت المنطقة المقدسة مساكن موظفي المعبد بالاضافة الى أنها لابد ضمت أيضا سكنى الحامية المحلية ، وربما أيضا سكن بعض العائلات المحلية التي ليس لها صلة بالعبادات ٠ كان الطريق الرئيسي في المدينة يحف بالحافة الجنوبية للمنطقة المقدسة ، ويمتد من بوابة القمر في الغرب الى بوابة الشمس في الشرق ثم الى ميناء المدينة على النهر ٠ وكانت تقع على الشاطيء الآخر من النهر مدينة أنطينوبولس Antinoopolis وقد غير هدريان اسم هذا الطريق على الأقل في الجزء الشرقي منه الذي كان يعرف بشارع سيرابيس لكي يحيي ذكرى أنطينوس ٠ وكان هذا الشارع يتقاطع مع الطريق القادم من مدخل معبد هرميس متجها نحو الجنوب بزاوية قائمة ٠ ومثلت نقطة التقاء هذين الطريقين قلب المدينة ومركز النشاط بها ، وبجوارها كانت تقع السوق المركزية والمباني العامة ومعابد انطينوس وهدريان وسيرابيس ـ النيل ، وأفروديتي وفرتونا

---

(١) P. Brem. 23 ٠ وقد كان واجب هذه المجالس او الجمعيات واجبا مدنيا ليس معتمدا على قوة الشرطة ٠

(الحظ) وأثينا ، أما النصف الجنوبى للمدينة فقد ضم المنطقة السكنية الرئيسيـة التى كشفت الحفائر فيهـا عن حمامين عامـين ، وجمنازيوم (بحمامه الخاص) الذى كان هدية من الامبراطور هدريان ، وكذلك عددا من المنازل الفخيمة يدل عليهـا وجود حمامات خاصـة لها • ومن مرافـق هرموبولس كانت هناك حديقة كبيرة وبحيرة (٢) •

ولكن العاصمتين اللتين نعرفهما جيدا هما أرسينوى واوكسيرنخوس، ففى آلاف البرديات التى عثر عليها فى موقع المدينة الأخيرة وفى قـرى بالقرب من العاصـمة الأولى نجد معلومات هامة كأسماء الأحياء المختلفة فى المدينة وأسماء شوارع كثيرة • وفى أوكسيرنخوس يمكننا أن نتعـرف أيضا على الجمنازيوم والحمامات العامة ومسرح وبنك فى معبد سيرابيس، وحوالى عشرين معبدا آخرين وعن نهاية القرن الثالث كنيستان • ونعلم من لفافة بردية محفوظة بالمكتبة البريطانية أن أرسينوى كان بها مياه جارية على الأقل فى بعض أجزائها حيث كانت هذه البردية تضم حصرا لايرادات ومصروفات عام ١١٣ م كتبها المسئولون عن الامداد بالمياه • وكان هناك خزانان يرفع اليهما الماء على مراحل من فرع النيل بواسطة عشرين طنبورا أو أكثر (الفصل ٦) • وكان يقوم على تشغيلها مجموعات من العمال يتراوح عددهم ما بين ٦ الى أكثر من عشرين رجلا يعملون ليل نهار على ورديات • وكان هناك من بين الزبائن من يدفع رسـوما يومية لقاء مدهم بالمياه تتراوح ما بين دراخمة وتصف دراخمة الى أكثر من ٤٠ دراخمة فى اليوم • فلقد كانت هناك حمامات عامة ودكان للبيرة قـرب معبـد سيرابيس ومعبد لليهود الطيبين (وهى اشارة تدل على وجود معبد آخر لليهود بالمدينة على الأقل) • ولا نعلم على وجه اليقين اذا كان خط المياه العمومى يصل الى المنازل الخاصـة أم لا (٣) •

الطبقة العليا والصفوة :

أغلب هؤلاء هم الذين عاشوا فى عواصم المحافظات والذين نلقاهم فى البرديات ، وكما رأينا فى الفصل الثانى فان سكان المدن ، بمن فيهم

---

(٢) سجلت نتائج حفائر هرموبولس فى
G. Roeder, Hermopolis 1929-1939. Hildesheim, 1959.
وهناك ملخص موجز قدمه شفارتز Schwartz فى :
— J. Schwartz in Ktema, 2 (1977), 59-63.

(٣) توجد التفاصيل الخاصة بمنازل البهنسا Oxyrgnchus فى P. Oxy. 43 verso.
اما الخاصة بامداد المياه فى أرسينوى Arsinoë فى
P. Lond 1177 = Select Papyri 406.
كما توجد لها ترجمة فى L-R II, pp. 333-5.

من يدعون أصلا اغريقيا خالصا ، أعادت الحكومة الرومانية تصنيفهم باعتبارهم من طبقه المصريين • ومع ذلك فان سكان عواصم المحافظات أصروا على الاستمرار في المباهاة بروابطهم مع الهلينية سواء كانت حقيقية أو غير حقيقية • ولذلك شكلوا حياتهم وما يحيط بهم على نمط المدن الاغريقية الأربع في مصر ، وعلى الأخص مدينة الاسكندرية ؟ فخططوا شوارعهم على نظام رقعة الشطرنج ، وأنشأوا مبانى عامة فخمة ، ونصبوا الألعاب الاغريقية وأقاموا الاعياد للآلهة الاغريقية بمستوى ربما زاد عن قدرة بيت المال • وبنهاية القرن الثانى كانت كثير عن عواصم المحافظات تعانى صعوبات لتدبير كل المصروفات المطلوبة • لقد حاولوا ايجاد حلول أخرى ، ولكنهم – كما هو واضح – لم يفكروا فى تقليص هذه الاحتفالات بشكل مؤثر الا كحل أخير •

ففى عام ٢٠٠ م أودع أحد المتبرعين من البهنسا وديعة « توجه فائدتها لاقامة احتفالات شبابنا السنوية بنفس الاسلوب الذى يتم فى أنطينوبولس » بل لقد استمرت مظاهر الاعلان عن التأغرق خلال كل العقود المضطربة سياسيا واقتصاديا فى منتصف القرن الثالث • وبدلا من تقليل هذه الأعياد أقامت عواصم المحافظات أعيادا جديدة مكلفة • ففى اكسيرنخوس مثلا أقيم احتفال لتكريم مائتين من سكان المدينة على حساب الخزانة العامة بمناسبة تعيينهم أعضاء فى « مجلس الشيوخ » وهى وظائف سامية تذكر ببلاد الاغريق القديمة وكان على الخزانة العامة أن تفى بنفقاتهم • كما أننا نلاحظ فى اكسيرنخوس وبعض عواصم المحافظات الأخرى – ولا نستطيع أن نقول فيها كلها – قدمت كميات من القمح المجانى الى عدد لا بأس به من الأفراد • وهذا الأمر الأخير كان محببا الى نفوس سكان المدينة ليس فقط لأنه كان سمة سكندرية أو أنطينوسية وانما لأن ذلك كان يتم فى روما أيضا (٤) •

ولا يدهشنا أن سكان عواصم المحافظات كانوا يعبرون عن حبهم للتحضر الاغريقى وازدرائهم لكل ما هو قروى ومصرى • لقد كتب أحد سكان اكسيرنخوس ، حول زيارته لأصدقائه وأسرته بعد أن تركهم لمدة عام : « ربما تتوقعون أن أكون قد أصبحت متبربرا أو مصريا جلفا » •

---

(٤) ظهرت العاعات الألعاب فى . . . . P. Oxy. 705 = W. chr. 153

وظهر مجلس الكبار فى P. Ryl. 599 = S.B 8032

وبخصوص توزيع الحبوب فى البهنسا ، راجع : P. Oxy. XL

وهناك تعليق اضافى منشور فى Chronique d'Egypte, 49 (1974), 158-62.

وقد بلغ عدد المستفيدين أربعة آلاف من البالغين الذكور وهو عدد يطابق خمس العدد الاجمالى للسكان •

لقد كتب لهم لكى يؤكد لهم أن شيئا من هذه التغييرات لم تحدث • وبالرغم من عثورنا على مئات البرديات التى تخص عواصم المحافظات فمازلنا غير قادرين على تحديد الحد الفاصل بين مواطنى عاصمة المحافظة وغيرهم من السكان (٥) •

وكان من بين الأول صفوة المستوطنين الاغريق الذين أغراهم البطالمة للاستقرار فى مصر • ولكن هل كانت هذه العائلات هى كل طبقة مواطنى عواصم المحافظات او أنها كانت فقط أقواها ؟ فى الحقيقة لا نعلم • ولكن يمكننا أن نجيب على أسئلة أخرى مثل : هل كان نتاج الزواج المختلط بين المصريين وغيرهم ضمن هذه الطبقة ؟ وهل كان وجود مسكن فى عاصمة المحافظة لشخص ما كحقيقة واقعة ipso facto يعطيه الحق فى أن يكون مواطنا من مواطنى العاصمة ؟ يمكننا أن نجيب على هذين السؤالين الأخيرين بالنفى باطمئنان ، لأن الوثائق تبين بوضوح أن أولئك الذين يعدون من مواطنى عواصم المحافظات هم فقط أولئك الذين يستطيعون تقديم ما يؤكد أن آباءهم وأمهاتهم ينتمون الى نفس الطبقة الاجتماعية (وفى هذا الصدد أيضا ، يمكن لمواطنى عواصم المحافظات أن يفخروا بأنهم كانوا يطبقون قواعد المدينة الدولية كالعصر الكلاسيكى ، وعلى الأخص النظام الأثينى فى عهد بركليس) • وتبعا لذلك فان المصريين حتى ولو سكنوا عاصمة المحافظة لم يكونوا مؤهلين للدخول فى طبقة مواطنى عواصم المحافظات وكذلك كان الأمر بالنسبة لنتاج الزواج المختلط •

هل كان مواطنو عاصمة المحافظة طبقة واحدة دون تمييز ؟ ربما لا ، فهناك مجموعة فى أرسينوى أطلق عليها مجموعة «الـ٦٤٧٥ مستوطنا» • وفى هرموبولس واوكسيرنخوس هناك « جماعة الجمنازيوم » ربما كانوا يمثلون صفوة داخل طبقة مستوطنى عاصمة المحافظة ولا يمثلون طبقة منفصلة عنها • ان أصل ومغزى وجود الـ ٦٤٧٥ مستوطنا من أرسينوى يمثل مشكلة لا نجد لها حلا مقبولا • فمن جهة نجد الاصطلاح يشير الى أفراد لا يسمح بزيادة عددهم numerus clausus ، ولكن اذا كان الحال هكذا فماذا يحدث عندما يزيد العدد بسبب الانجاب مثلا ؟ وماذا عن أطفال هذه الطبقة الصفوة ؟ هل كانوا يظلون خارج نطاق عضوية الطبقة حتى يخلو لهم مكان بموت أحد أعضائها ؟ وبأى طريقة كان يتم ملء هذا المكان الخالى أو يتم شغله ؟ هل كان ذلك بأولوية العمر ؟ أم بالقرعة ؟ كل هذه المحاذير تخالف حق الأطفال فى التسجيل فى طبقة والديهم عند

(٥) P. Oxy. 1681 (3rd century) = Select Papyri 152.

سن الرابعة عشرة • وفى ضوء هذا فانه يبدو صحيحا ـ وان كان بغير دليل حتى الآن ـ أن التفسير يكمن فى اعتبار ال ٦٤٧٥ تمثل عدد الصفوة عندما نظمت لأول مرة ، وأن الاجيال التالية كانت تذكر هذا العدد من قبيل الفخر دون أن تتصور أن هذا ربما يؤدى لمشاكل تمثل خطأ فى العدد • كان كل السكان الذكور البالغين بين الرابعة عشرة والستين (والرقم الأخير قليلا ما كان يصل اليه الأحياء فى التاريخ القديم) فى مصر الرومانية فيما عدا الرومان ، واغريق الحضر واليهود ـ وفى كلمات أخرى كل من كانت تصنفه الحكومة مصريا ـ كان مطالبا بأن يدفع ضريبة رأس سنوية ، ولكن مواطنى عواصم المحافظات كانوا يدفعون قيمة أقل لأنفسهم ولعبيدهم • ونحن نعلم أن مواطن عاصمة المحافظة كان يدفع ثمانى درخمات سنويا فى هيراكليوبولس وهرموبولس ، واثنتى عشرة فى اكسيرنخوس وعشرين فى أرسينوى • هذا الاختلاف فى قيمة الضريبة من عاصمة محافظة الى عاصمة أخرى ربما كان يعكس مستوى الوفرة فى هذه الأماكن : فقد كان اقليم أرسينوى خصبا بشكل خاص ومنتجا (انظر الفصل السادس) وعلى هذا كانت الضريبة فيه أعلى من غيره •

وعندما يصل طفل من سكان عاصمة المحافظة الى سن الرابعة عشرة من عمره ، يقدم والداه طلبا لتحديد حالته epikrisis مع طلب لتسجيله فى طبقتهما الاجتماعية • وكان يجب أن يحدد الطلب على الأقل السنة التى سجل فيها والد الطفل أو والد أمه • وبالنسبة للصفوة فيبدو أن مقدم الطلب فى مدينة أرسينوى كان عليه أن يثبت أن والد الطفل وأمه كليهما ينتميان الى طبقة ال ٦٤٧٥ مستوطنا • وعلى العكس من ذلك ففى اكسيرنخوس وهرموبولس كان الطلب لعضوية صفوة الجمنازيوم يدعم بذكر كل من كان عضوا بها من خط الأم أو خط الأب • سواء كان ذلك فى القائمة الرئيسية التى سجلت فى العام الرابع أو الخامس الميلادى أو بمنحة خاصة من جهة مختصة حتى عام ٧٢ ـ ٧٣ م عندما كانت الدفاتر فيما يبدو مغلقة أمام أى عضوية جديدة • وفى الطلب التالى الذى كتب فى اكسيرنخوس فى ٢٨ اغسطس عام ٢٦٠ م نلاحظ ذكر سلسلة أسلاف طفل فى طبقة الجمنازيوم بفخر الى سابع جد •

« طبقاً لقواعد epikrisis للتأكد من أن الراغبين فى الدخول هم من طبقة الجمنازيوم ، ابنى (الاسم مفقود) الذى يبلغ من العمر اربعة عشر عاما فى العام الجارى السابع (من حكم الامبراطورين فاليريان وجاللينوس ، بدون علامة مميزة ، وهو مشترك فى التدريب وقد سجل فى حى ... ولتأكيد ال epikrisis فاننى أعلن أن جد جدى الأكبر

ديونيسيوس ابن فيلون كان مسجلا فى حى Metroön فى طبقة الجمنازيوم التى أعلنت فى العام الخامس من حكم فسبسيان المؤله (٧٢ — ٧٣ م) ، طبقا للأدلة التى قدمها أن جده ديونيسيوس ابن فيلون ، كان فى قائمة السنة الرابعة والثلاثين من حكم أغسطس المؤله (٤ — ٥ م) ٠ ان والد جدى الأكبر (الاسماء مفقودة) كان مسجلا فى الحى الكريتى فى القوائم التى تمت فى العام ٠٠٠٠ من حكم دومتيان المؤله (٨١ — ٩٦ م) ، ان جدى الأكبر ، كورنيليوس مسجل فى حى Metroön فى قائمة المرشحين فى العام السابع عشر من حكم تراجان المؤله (١١٣ — ١١٤ م) ٠ وجدى كان مسجلا فى نفس الحى فى قائمة سنة ٠٠٠٠ من عهد أنطونينوس المؤله (١٣٧ — ١٦١ م) ٠ ووالدى سيرابيون كان مسجلا فى حى Anamphodarch فى قائمة المرشحين فى العام السادس من عهد ماركوس أوريليوس المؤله ولوكيوس فيروس (١٦٥ — ١٦٦ م) ٠ كما أننى سجلت فى الحى الكريتى ٠

وبالاضافة الى ذلك فمن جانب أم ابنى كان جدها الأكبر أبولونيوس ابن أبولونيوس مسجلا فى الحى الكريتى فى القائمة التى قيل انها تمت فى العام الخامس من حكم فسبسيان المؤله (ثم يتلو بعد ذلك م. يتصل بتسجيل أسلاف الأم مع الاشارة الى السنة التى تم فيها التسجيل) اننى أقسم بقدرة أباطرتنا (الأسماء) أن ما كتب بعاليه صحيح ، وأن (الاسم مفقود) هو ابنى حقا أنجبته من (اسم الأم مفقود) ، لا هو متبنى ولا زائف ، وأننى لم استخدم أوراق أو اسم أى انسان آخر — وأنا مسئول عما يترتب على هذا القسم من تبعات (التاريخ وتوقيع ثلاثة من الشهود) (٦) ٠

ويضم مجلد نشر حديثا من مجموعة برديات اكسيرنخوس ما بقى من ملف خاص بمثل هذه الطلبات ٠ والطلبات الباقية ثلاثة عشر طلبا أرقامها فى الملف من ١٠٩ الى ١٢١ وكلها مؤرخة من عام ١٤٩ م ، فاذا كانت الأرقام المفقودة من ١ الى ١٠٨ مؤرخة من نفس العام — وهذا محتمل وان كان من الصعب تقديم الدليل على صحته — فان تقديم أكثر من مائة طلب فى سنة واحدة يمكن أن يوحى بأن صفوة الجمنازيوم فى اكسيرنخوس كانت أكبر عددا مما قدرنا (٧) ٠ وليس مدهشا أن نعلم بأن مواطنى عواصم المحافظات ومجموعة الصفوة بينهم كانوا يمثلون طبقة تنمو نموا داخليا بصورة ملحوظة كما لاحظنا توا ، فالمعروف أن الزواج الخارجى

---

(٦) P. oxy 2186.

(٧) الالتماسات الباقية منشورة فى : P. oxy. 3276-84.

من خارج الطبقة كان يعنى استبعاد الأطفال تلقائيا من الطبقة المتميزة .
ولكن المدهش حقا هو اكتشاف القارىء الحديث أن الزيجات لم تتم بين أسر الطبقة ككل ولكن انتشرت أيضا فيما بين أفراد العائلات بما فى ذلك الزيجات بين اخوة وأخوات أشقاء . أمثلة ذلك متوفرة فى كل مكان فى البردى ، فى تقارير الاحصاء وفى عقود الزواج والطلاق وفى الخطابات الخاصة وكذلك فى كل أنواع الوثائق الأخرى . وفيما يلى نختار مثلين اثنين لأسباب وجيهة . الأولى وثيقة من حوالى عام ١٦٥ م تبين زواج أخ وأخت فى ثلاثة أجيال متعاقبة فى أسرة من طبقة الجمنازيوم ، والثانية من عام ١٨٩ م وتعرفنا من خلالها على أسرة لديها سبع زيجات من هذا النوع خلال أربعة أجيال ، بل ولدينا أيضا دعوة لاحدى هذه الزيجات .

« تدعوكم هيرايس الى (حفل) زواج ابنيها ، فى المنزل غدا الخامس (من الشهر) ويبـدأ (الحفل) من الساعـة التاسعة (الثالثـة بعد الظهر) (٨) .

ظهرت عادة زواج الاخوة فى عصور ما قبل التاريخ . وحالاتها الأولى المسجلة وجدت فى البيوت الملكية فى الممالك الشرقية .وقد مارسها بعض الفراعنة ، وكذلك بعض ملوك البطالمة . وفى سنوات الحكم الرومانى اتسع نطاق الممارسة حتى شملت كل الطبقات بما فيهم الفلاحين المصريين. ولكن مواطنى عواصم المحافظات ، بتكوينهم الطبقى ، وجدوا من السهل عليهم أن يتجاهلوا الطابع المصرى لهذه الزيجات ، ومارسوها باعتبارها امتدادا للزيجات بين الاخوة من ملوك العصر الهلينستى .

عنـدما بدأت حالات من زيجات الاخوة تظهر فى البرديات نظر الى وجودها نظرة شك من بعض النواحى ، حيث كان هناك شك فى أن مجتمعا يمكنه أن يسمح حقيقـة بهذا الفسـق بالمحـارم ، ورأى آخرون أن دعوة

---

(٨) العائلات المشار اليها لتعدد حالات الزواج بين الاخوة
P. Amh 75 and BGU 115 = W. Chr. 203.
وهناك تفصيلات اضافية فى نفس الفصل من هذا الكتاب . أما دعوات الزواج فقد ورد عدد منها فى P. Oxy. 111 = W. Chr. 484. وهناك امثلة لزيجات بين اخ واخت مرات متعددة فى القرى مذكـورة فى الفصـلين الرابع والثامن . وقد كتب ثيرفلدر H. Thier Felder فى عام ١٩٦٠ رسالة تعرض فيها لموضوع زواج الأخ باخته بصورة أكثر اتساعا من الأمثلة الموجودة فى الوثائق . ويرى أن زواج الأخ بأخته فى مصر الرومانية حقيقة لا يمكن انكارها . وقد ذهب الكاتب (ص ص ٩٠/٩٤) الى الاعتماد بان التاثير الدينى كان أكثر اهمية من الاعتبارات الاقتصادية . ولكن هذا الرأى لم يجد قبولا كافيا .

الزوجة « بالأخت » لا يخرج عن نطاق الاستعارة في اللغة ولربما كان نداء الزوجة بأختي له نفس المعنى المنتشر في منطقة الشرق الأدنى لنداء الصديق بأخي · ولكن سقطت كل هذه التفسيرات في مواجهة الأدلة القاطعة التي جاءت في عشرات البرديات من الوثائق الرسمية والشخصية ذكر فيها أن الزوجة هي أخت زوجها « ولدت لنفس الأم ونفس الأب » · وقد ذكر ديودور الصقلي وجود مثل هذه الزيجات بين الاخوة في كتابه · والواضح أن الحكومة الرومانية كانت على دراية رسمية بهذه العادة : فالمادة رقم ٢٣ من قواعد ادارة الخزانة الخاصة تنص على أنه « غير مسموح للرومان أن يتزوجوا أخواتهم أو عماتهم ، ولكن يسمح لهم بزواج بنات الأخ » · هذا التحريم لزواج الاخوة أحدث بلا شك أثره العملي وربما الفوري حيال الرجال المصريين الذين حصلوا على الجنسية الرومانية خلال الخدمة العسكرية · ولقد حرم زواج الاخوة أخيرا في كل الامبراطورية الرومانية بقرار امبراطوري صدر في عام (٢٦٥ م) (٩) ·

كان لزواج الاخوة فوائد اقتصادية أيضا : فلقد بقي ميراث الأخوين الزوجين سويا ، وكثير من الاقطاعيات نجت بذلك من التفتيت والواضح من الوثائق على اختلاف أنواعها أن معظم عائلات مواطني عواصم المحافظات كانت حالتها المالية طيبة ، فقد كانت كل عائلة من عائلات مواطني عواصم المحافظات تملك منزلا في المدينة على الأقل ومزرعة في الريف · وكانوا يشاركون أيضا في مختلف الأعمال التجارية ، وبعضهم كانوا أصحاب أملاك هائلة وثروات ضخمة · وفي احدى القرى كانت ضيعة أحد مواطني عاصمة المحافظة تدفع للضرائب ما نسبته حوالي ١٥٪ مما تقدمه أراضي القرية كلها · وفي قائمة عن الدورة الزراعية لقرية أخرى ، نجد أن الفلاحين المحليين بذروا ما يتراوح بين أردب واثنى عشر أردبا من القمح ، بينما في أراضي بعض الملاك الغائبين ـ أحدهم روماني والباقين من مواطني عواصم المحافظات ـ فان كمية ما بذر من قمح كانت في حالة ٢١ أردبا وفي أخرى ٣٤ أردبا ، وفي حالة ثالثة عند مجموعة من الاخوة بلغ مقدار ما بذر من قمح للانبات ١٣٤ أردبا · ونجد أيضا مواطنا من عاصمة محافظة يمتلك ١٨ مزرعة بالاضافة الى مساحة كامل بئر يبلغ مساحة الجميع أكثر من مائة أرورة (فدان) · ان حجم أعمال هذا الرجل يمكن أن نتعرف عليها من حساباته التي تبين أن مصروفاته الشهرية للمشتريات وأجور العمال كانت

---

(٩) المرسوم منشور في : Diodorus Historical Library.. BK. 1, ch 27.
والاشارة لديودور وردت في Codex Justinianus, BK. 5, ch. 4, no 17.

تصل الى ٢٣٠٠ دراخمة بينما كان يبلغ دخله الشهرى أكثر من ٢٧٠٠ دراخمه (١٠) ٠

ومن بين أعمال الاستثمار المختلفة التى مارسها مواطنو عواصم المحافظات فان اقراض الأموال احتل أهميه خاصة ٠ ومن الامثلة الوفيرة التى تتحدث عن قروض صغيرة القيمة نذكر قرضا قيمته ١٥٠٠ دراخمة أو آخر قيمته ٦٥٠٠ دراخمة والفائدة القانونية ١٪ شهريا وهذا يعنى انه كان يأتى بعائد لا يجب أن نستخف به ٠ وهناك وثيقة ذات أهمية خاصة تؤرخ من عام ١٨٦ م تقرر أن عضوا من صفوة الجمنازيوم أقرض آخر مبلغا قيمته تالنتان أى ١٢١ الف دراخمة ، وكان هذا المبلغ يشترى فى ذلك الوقت قاربين نهريين صغيرين أو خمسة من العبيد وربما ستة ونظرا لأن الفائدة المنصوص عليها كانت ثلثى المعدل المعتاد فيمكننا القول بأن الأمر كان به مجاملة بين صديقين ٠ هناك وثيقة أخرى تذكر لنا أن مواطن عاصمة المحافظة كان قادرا على أن يقترض من صندوق البلدية ـ وهى نفس المنحة التى أقيمت قبل ٢٥ سنة لكى ينفق منها على مباريات الشباب ـ مبلغ ١٢ تالنت و ١٧٠٠ دراخمة أى ٧٠٠ر ٧٣ الف دراخمة ٠ وهذا يعنى أن المقترض كان متمتعا بثقة جعلته يحصل على هذا المبلغ كقرض ٠ وهو ما يعنى أن أملاكه الظاهرة كانت تفوق القرض قيمة ٠ وهناك وثيقة عمل أخرى تذكر واحدا من طبقة الجمنازيوم يملك مصنعا يوظف فيه ٣٦ من النساجين (١١) ٠

كان سكان عواصم المحافظات قادرين على استخدام ثرواتهم ليس فقط فى تحقيق حاجاتهم ورغباتهم وانما أيضا بطرق تربط بين الاسراف الواضح والمظهر الاجتماعى ٠ خلال الامبراطورية الرومانية كانت الصورة المحبوبة للعطاء والبذل فى سبيل المجتمع تتم باهداء احد المبانى أو المرافق العامة كالحمامات والأروقة والأسواق أو زخرفة مثل هذه المبانى ٠٠٠ الخ ٠ وقد عثر على كثير من الكتابات المنقوشة أسفل التماثيل التى نصبها بعض المتبرعين فى حوض البحر المتوسط وان كانت التماثيل نفسها قد دمرت منذ زمن فى أغلب الأحوال ٠ ومن المعروف أن عواصم المحافظات فى مصر

---

(١٠) الوثائق المنوه عنها هى :
BGU 141, J. lond. 188, P. Mil. Vogl. 52 and 130 Introd.
ونذكر مثالا آخر لأحد مواطنى عاصمة محافظة يمتلك مزرعة فى الفصل الثامن ٠

(١١) الأمثلة مأخوذة من :
P. Griss. 32, St. Pal. xx 18, PSI 12583, P. Oxy. 2848, P. Grenf. 150.

لم تمارس قبل القرن الثالث أى صورة من صور الحكم الذاتى ولا حتى الى حد محدود يقارن بالمجتمعات اليهودية • ولكن كان لمواطنى عاصمة الاقليم حق اختيار موظفين للقيام بمهام عامة محددة • وكان مسموحا لهم أن يكرموا هؤلاء الموظفين حتى باطلاق لقب الحكام عليهم ؛ وقد مال الكتاب المحدثون الى استخدام هذا الاصطلاح كما لو كان هؤلاء الموظفون يمارسون بالفعل سلطة حكومية • وعلى هذا فيجب هنا أن نؤكد أنه حتى عام ٢٠٠ م ، عندما منح الامبراطور سبتموس سيفروس عواصم المحافظات مؤسسات ومسئوليات ادارية معينة (سوف نناقشها فيما بعد) ، فان هؤلاء الموظفين الساميين لم يكونوا أدوات الحكومة ولكنهم كانوا ملاحظين لنشاطات معينة فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع • ولم يكونوا حكاما كما لم تكن مدنهم دولا حقيقية ، ولكنهم سعدوا بتضخيم الذات • والمعروف أن الاستراتيجوس ومعاونيه مارسوا خلال القرنين الأول والثانى سلطة الحكومة على كل المحافظة بما فيها عاصمة المحافظة •

حاز هؤلاء الموظفون داخل طبقة مواطنى العاصمة مكانة رفيعة مقصورة عليهم • يتضح ذلك من تضخيم الألقاب التى يتمتعون بها رغم أن المرشح لمنصب ما كان يدفع رسوما عند حصوله على اللقب والمهام ، كما كان يتحمل تكاليف المنصب كليا أو جزئيا ، من جيبه الخاص • وكانت الجماعة كلها عندئذ تساهم بالاحتفال بالموظف المختار وكذلك بالقاء الكلمات رفيعة المستوى •

وكان الموظفون يحملون ألقابا استخدمت فى أثينا فى القرن الخامس ق • م ، ويقيمون حفلا للتكريس يوضع خلاله تاج على رأس الموظف الجديد • وكان الحفل يسمى حفل التتويج • وقد عثر على دعوة لواحدة من هذه الحفلات فى أكسيرنخوس :

« يدعوك أيدمون الى الغذاء فى الجمنازيوم بمناسبة تتويج ابنه نيلوس فى أول الشهر ابتداء من الساعة الثامنة (الثانية بعد الظهر) » (١٢) •

وبعد تولى واحد من هؤلاء لوظيفته فان الرجل يبقى لما بقى من حياته

---

(١٢) P. Oxy. 2147. وكان المرشحون يتولون اعمالهم فى أول ايام السنة المصرية الجديدة وهو الموافق لأول ايام شهر توت Thoth (= ٢٩ أغسطس) •

يحمل اللقب فهذا جمنزيارخ أو كوزموتيس Kosmotes الخ ... وهى عادة مانزال لدينا بالنسبة لمن شغل وظائف عليا مرة فى حياته .

ان الوظائف (السـامية) فى عاصمة المحافظة كان عـددها ستة ، خمسة منها عرفت بنفس التسمية التى عرفت بها فى أيام البطالمة ، وان كانت واجباتها قد تطورت بما يفى بحاجات النظام الرومانى. أما الوظيفة السادسة وهى الايوثنيارخ Eutheniarch فقـد دخلت لأول مـرة فى القرن الأول أو القرن الثانى الميلاديين والوظـائف الست ومسئولياتهـا الرئيسية هى :

Gymnasiarch (حاكم الجمنازيوم) وهذا لم يكن اداريا يقدر ما كان مصدرا للانفاق على الجمنازيوم . فلقد كان مسئولا عن العمليات اليومية فى الجمنازيوم . وكان يقدم الامدادات الأساسية اللازمة للنشاط وخاصة : الوقود لتسخين المياه والزيت اللازمين للتدريبات والاضاءة . لقد كانت علامة شغله للوظيفة عصابة أرجوانية حول الرأس وحذاء أبيض متميز فى قدميه . وفى المناسبات والاحتفالات كان يصاحبه حرس شرف يضم أربعة شبان من شباب الجمنازيوم .

Kosmetes « المشرف على النظـام » وكان يشرف على الاجـراءات والأنظمة الموضوعة لتدريب شباب صفوة الجمنازيوم المعروفين ephebes . وفى المناسبات والاحتفالات كان يصاحبه حرس شرف من شابين اثنين من شباب الجمنازيوم .

Exegetes « المدير » وكان يرأس جماعة الحكام للعام الجارى . وهى الجماعة التى أصبحت بنهـاية القـرن الثـانى ـ ان لم يكن أبكر من ذلك ـ جماعة متماسكة . واذا كانت هناك واجبـات أخرى له فهى ما تزال غامضة (١٣) . وكان حرس الشرف الخاص به يضم شابين من شباب الجمنازيوم .

Eutheniarch (مفتش التموين) ووظيفته كانت محددة بامداد المدينة بالطعام ، وبعبارة أخرى كان ينظر فيما اذا كانت عمليات طحن القمح للمدينة واعداد الخبز لا تتعرض لأزمات . ونظرا لأنه لم يكن متمتعا بسلطات بوليسية فقد كانت أدواته الرئيسية لمنع الاضرابات والسيطرة على وسائل الاعتراض الأخرى هى الحديث المنمق وكيس النقود المنتفخ .

---

(١٣) هناك بعض المهام الأخرى التى ظهرت فيها أحد المديرين Exegetes مثل تعيين اوصياء على اليتامى والنساء يبدو أنها لم تكن من بين واجبات منصبه .

وكان ينتظر منه أيضا - وإن لم يكن بشكل رسمي - أن يساهم من ماله الخاص في تخفيف أثر أى نقص فى الامدادات • وكان له حرس شرف من شابين من شباب الجمنازيوم •

Agoranomus « منظم الأسواق » وفيما عدا ما يفهم من لقبه فان ما نعرفه عن واجباته قليل • وفي وثيقة تعود الى منتصف القرن الثالث نرى أحد منظمى الأسواق يقوم بتأجير محلات السوق كمندوب عن مجلس المدينة • وقد كان له حارس شرف واحد •

Archiereus « الكاهن الرئيس » وبعكس ما يحمله لقبه ، فانه لم يكن رئيسا للكهنة • وكانت وظيفته الرئيسية هى تنفيذ الاحتفالات المحددة لعبادة الأباطرة وأفراد الأسرة الامبراطورية ، وكان له حارس شرف واحد •

القائمة السابقة نظمت بشكل يظهر منها فيما يبدو تسلسل أهمية ومكانة عدد من الوظائف • وسنويا كان ينتخب لكل وظيفة واحد أو أكثر يبقون لمدة عام واحد • وكان هذا من الناحية العملية يوسع دائرة من يتحملون التكاليف ولكنه يوسع أيضا دائرة الحائزين على شرف تقلد ذلك الوظائف • كان البعض يتطوع للخدمة لمدد أطول خاصة فى رياسة الجمنازيوم • ويبقى غير واضح من هم الذين كان لهم حق الترشيح لهذه الوظائف ؟ وان كان يمكننا أن نخمن ذلك على الأقل بالنسبة للوظائف الأكثر مهابة والتى كانت مخصصة لأعضاء صفوة المدينة ، ولكنها اتسعت فيما بعد لكى تشمل كل مواطنى عاصمة الاقليم ، حيث انه بمرور الوقت وتغير الأحوال أصبح من الصعب أن نجد مرشحين كافين لشغل هذه الوظائف من بين طبقة الصفوة •

ولدينا الآن دليل كاف على أن مشكلة نفقات هذه الوظائف صارت عبئا متزايدا على شاغلها ابتداء من النصف الأخير من القرن الثانى • وتزايد هذا العبء بمرور الزمن حيث بدت على اقتصاد مصر (وأيضا الامبراطورية ككل) علامات لا تخطؤها العين باتجاهه نحو التدهور ، وبدأ رخاء كثير من عواصم المحافظات يذهب • وصارت الوظائف الشرفية غير مرغوبة بعد أن كان المرشحون فى الماضى يتدافعون للفوز بها • وأصبح تكليف الناس بالخدمة فى هذه الوظائف يتم فى بعض الأحيان بالالزام • وبدأ استخدام وسائل مختلفة تتفق مع حقائق العصر فتزايد عدد الموظفين الشاغلين لوظيفة واحدة على أساس أن يتمتع كل منهم بشرف شغل الوظيفة لمدة عام فى مقابل أن يكون مسئولا عن نفقات شهر واحد أو ربما فترة أقل • وفى تطور آخر بدأ المرشحون يساومون على الوظائف التى كانوا

على استعداد لقبولها . فبعد التذرع بالفقر بسبب الوظائف التى سبق أن تولوها ، وبعد الرجاء باعفائهم من تولى الوظائف هذه المرة ، فان المعين يعلن قبوله لشغل وظيفة تكلفتها أقل من تلك المرشح لتوليها ».

وفى عام ٢٠٠ ميلادية عرف الهيكل الادارى فى عواصم المحافظات تطورا رئيسيا عندما أمر سبتموس سيفروس بانشاء بولى Boule أو مجلس المدينة فى كل عاصمة محافظة . لقد كانت هذه الخطوة تعتبر مرحلة فى طريق وصول عاصمة المحافظة الى درجة البلدية الرومانية Municipia (وقد تمت الخطوة الاخيرة فى هذا الاتجاه فى القرن الرابع) . وقد كان هذا رفعا لمكانة مواطنى عواصم المحافظات وقد قوبل بفرح وسعادة .

ان اتجاهات سيفروس وسياساته كامبراطور عدلت بل وناقضت فى بعض الاحيان سياسات أسلافه . وقد عزا المؤرخون ذلك الى نشأته فى شمال أفريقيا . ومهما كان الدافع وراء سياساته فمما لا شك فيه أن فترة حكمه كانت بداية فترة وصلت فيها الولايات الى مكانة كانت مقصورة فيما سبق على ايطاليا وحدها . فقد كسب الفقراء والغوغاء مركزا أفضل واقامة مجلس شيوخ (بولى) فى عواصم المحافظات دليل على ذلك . فهى تعنى شرفا ومهابة لعاصمة المحافظة من خلال المجلس الجديد وأعضائه . ومع ذلك فلم يكن لبولى عاصمة المحافظة أية سلطات تشريعية وانما كان جهازا اداريا واجباته الأساسية ادارة الشئون المالية ومراقبتها ، كذلك الأعمال العمومية والمبانى العامة فى عاصمة المحافظة ، وجمع الضرائب المطلوبة للدولة من كل اقليم المحافظة .

ولكن هؤلاء الرجال الذين أخذوا مسئوليات أكبر صاروا مطالبين بنفقات أكبر على حسابهم الخاص . ونظرا لأن القرن الثالث شهد تقلص ثرواتهم ورخائهم فقد سعوا الى اشراك آخرين من خارج طبقتهم فى تحمل هذه المسئوليات . وهناك بردية فى المكتبة البريطانية (من منتصف القرن الثالث) تكشف عن محاولات فاشلة من الموظفين السامين فى أرسينوى لتخفيف العبء عن مواطنى عاصمة المحافظة بدعوة رجال ذوى ثراء من سكان قرى المحافظة لشغل بعض وظائف عاصمة المحافظة . ولكن القرويين الذين كانوا يتمتعون بازدراء مواطنى عاصمة المحافظة حتى ذلك الوقت ، رفضوا تلك الاغارة على جيوبهم . وعرضت المسألة أمام الوالى الرومانى فى مصر فى جولاته واستمع الى قول القرويين وعلق قائلا : سوف أقرأ قانون سبتموس سيفروس الذى قال بأن القرويين

لا يجب عليهم أن يجروا الى خدمات عاصمة المحافظة ... وبعد سيفروس طبقه كل الولاة الرومان فى مصر » . وقد أجاب أحد الخصوم فى هذه الدعوى على الحاكم قائلا : ان القوانين بالتأكيد يجب أن تحترم وتنفذ ، ولكن عندما تحكم فى هذه القضية فيجب أن تضع فى الاعتبار كيف كان الولاة السابقون متأثرين بحاجات المدن ... انك تجلس للحكم على مواطنى أرسينوى (عاصمة المحافظة) ، التى كانت فيما سبق مدينة مأهولة ومزدهرة بالرجال ، ولكن أهلها سيفلسون اذا تولوا الوظائف لمدة يومين . وبعد قليل يوجه الحاكم سؤالا لأحد محاميى المدينة : « ماذا تقول فى قانون سيفروس وقرارات الحكام (السابقين) ؟ أجاب المحامى : لقد أصدر سيفروس قانونه فى مصر عندما كانت المدن ما تزال فى رخاء . عندئذ يقول الحاكم : ان مقولة الرخاء ، أو التحول عن الرخاء ، تنطبق على القرى والمدن سواء بسواء » .

وقد بلى باقى البردية ، ولم تحتفظ لنا بالحكم النهائى للوالى ، ولكن كان من الواضح بالفعل أنه سيحكم لصالح القرويين نظرا لأنه أضاف « أن قوة القوانين تزداد (وليس العكس) بمضى الزمن » . وبعد مضى نصف قرن على هذه القضية كان قانون سيفروس ما يزال يحمى الفلاحين المصريين ضد بعض الانتهاكات الادارية لمواطنى عواصم المحافظات (١٤) .

كان عضو مجلس البولى يدعى Bouleutes (وجمعهـا Bouleutai) ونقابل عددا من أعضاء البولى فى عشرات من البرديات لدرجة أننا نعرف أسماء عدة عشرات منهم ومع ذلك فمازلنا لانعرف على وجه اليقين كيف كان الرجل يختار عضوا فى البولى ، أو ما هى الكفاءات اللازمة للعضوية . اننا نعلم على وجه اليقين أن العضو كان يدعى بهذا اللقب لما بقى من حياته ، ولكن لايعنى هذا بالضرورة أن العضوية كانت لمدى الحياة . ويبدو أقرب للقبول ، كما فى حالة الوظيفة ، أنه كان يحتفظ باللقب كشرف لمدى حياته بمجرد أن يخدم لدورة واحدة على الأقل . وبالتأكيد كان يمكنه أن يخدم أكثر من دورة واحدة .

ومن المنطقى أن نفترض أن أعضاء المجلس كانوا يختارون من بين طبقة الصفوة فى عاصمة المحافظة . ولكن هل اقتصرت عضوية البولى عليهم وحدهم ؟ أو أنها كانت لكل الذكور من مواطنى عاصمة المحافظة ؟

---

(١٤) عقدت هذه الجلسة فى عام ٢٥٠ م وسجلت فى SB. 4696. وبكل أسف عانت أجزاء متعددة من البردية من سوء الحفظ .

وكم كان عدد أعضاء البولى ؟ كل هذه الأسئلة ليس لدينا اجابات شافية عنها •

كان عضو المجلس (البولى) مثله فى ذلك مثل الموظفين العامين فى المدن فى أنحاء الامبراطورية الرومانية - يدفع « رسم شرف » عند دخوله الوظيفة • وقد نشرت حديثا بردية تعود الى عام ٢٣٣ م كشفت أن رسم العضوية كان فى اكسيرنخوس ١٠,٠٠٠ دراخمة أو أكثر • وهذا المبلغ كان يشترى فى تلك الأيام نصف دستة من المنازل الفخمة فى المدينة ، كما أنه كان يكفى لدفع أجر عشرين عاملا زراعيا لمدة عام كامل • ومن الواضح أن هذا يعنى أن الرجال القادرين على هذا هم وحدهم الذين كان يمكنهم القيام بواجبات عضو المجلس •

والآن حان الوقت لكى نتحول عن الحياة العامة للأعيان المحليين لكى نتعرف على لمحات من حياتهم الخاصة واليومية • وهنا أيضا - كما كان الحال فى حياتهم العامة - تفوح رائحة الترف من الوثائق المتعلقة بالموضوع - على الأقل الى ما قبل منتصف القرن الثالث • ولنأخذ المنازل التى كانوا يعيشون فيها كمثال : الوثائق تذكر لنا أن منازل المدينة كانت تضم طابقين وأحيانا ثلاثة طوابق ، وتتحدث أيضا عن منازل تضم أجنحة منفصلة أو حجرات استقبال للرجال وأخرى للنساء • وتشير الوثائق أيضا الى مداخل ببواك للاستمتاع بشمس الشتاء وبالراحة فى ليالى الصيف • والواضح أن أصحاب المنازل اهتموا بما تهتم به من أبراج وسقائف فضلا عن مختلف الأشياء التى صممت للراحة والانسجام • وكانت بعض المنازل تستخدم الحجرات المطلة على الشوارع كحوانيت - وهو تنظيم نعرفه من أطلال بومبى وهيركولانيوم • وهناك بردية نشرت حديثا تحتوى عرضا لتأجير منزل على الناصية يضم ثلاثة حوانيت فى الأمام وحانوتين على الطريق الفرعى (١٥) • ونادرا ما نعثر فى الوثائق على ما يدل على مساحة المنزل أو مساحة الحجرات ومع ذلك نجد من اكسيرنخوس ذكرا لمساحة منزل بالغ الصغر حتى ان مساحته لم تتعد ١٥ مترا مربعا وآخر تغطى مساحته ما يزيد على مائة متر مربع • أما حوائط المنزل فقد أقيمت من المادة الخام المنتشرة فى مصر منذ الأزل ، وهى الطوب اللبن • ونظرا لقلة المطر فان المبانى من هذه المادة يمكن أن تبقى الى مالا نهاية • كانت الحوائط الخارجية سميكة تضم عددا من صفوف الطوب • بينما كانت الحوائط الداخلية يكتفى

---

(١٥) P. Turner 37.

فيهـا بسمك طوبتين فقط • وكانت السطوح الداخلية للحوائط تغطى بطبقة من الملاط وكانت تزخرف عادة بألوان زاهية تضم مناظر أسطورية ودينية محبوبة • لقد كانت الأحجار متوفـرة فى محاجر عديدة فى مصر ولكنها مكلفة اذا قورنت بتكاليف الطوب اللبن • ولذلك كان استخدام الاحجار نادرا فى المنازل الخاصة • وا لتفى باستخدامه فيها لعمل عتبات الأبواب وتزيين بعض أجزاء البوابات الخارجية • ولذلك عندما نصادف رجلا غنيا من اكسيرنخوس يتحدث عن منزله الحجرى فالأرجح أنه يشير الى منزله ذى الواجهة الحجرية وليس الى أن منزله قد أقيم بأكمله من الأحجـــار (١٦) •

ومهما كانت مساحة المنزل فى المدينة ومدى ترفه فلابد له من خط امداد بالمياه يبدأ من بئر محفورة فى ساحته • ونظرا لأن الطوب اللبن لايحتمل التعرض للمياه بنيت جوانب الآبار من الأحجـار أو من الطوب المحروق مع اضافة طبقة خارجيـة من الأحجار فى بعض الأحيان وكانت حجرات المعيشـة والنوم تقـام عادة فى الطابق السفلى أما الأقبية فقـد استخدمت بصورة رئيسية للتخزين كما استخدمت لنفس الأغراض بعض الحجرات فى الطابق العلوى • وهناك بردية تعود لعام ٢٠٠ م تحتوى الجرد التالى :

قائمة بأشياء منزلية :

فى القبو : حوض من البرونز (١) كوز صفيح (١) مكيال خشبى مكسو بالحديد (١) طشت غسـيل (١) مســـند مصباح برونز بعاكس علوى (١) •

فى المخازن : طبق صغير صفيح (١) ، أكواب وأطباق صفيح (٢) مصباح صغير برونز (١) عباءة لونها ذهبى (١) ، غطاء سرير شرحه (١) فى الحجرات العليا : غلاية برونز ، كوب صفيح (١) ، سلطانيـة شربة برونز (١) ، مصفاة صغيرة برونز (١) ، سلطانية مزج (٢) ، سكاكين تشذيب الشجر (٣) ، طبق كبير (٢) ، ستائر ذهبيـــة اللون (٣) ، غطاء سرير كبير من الكتان (١) ، وسائد خضر (٢) ، غطاء سرير مان (١) ، حشايا (مراتب) (٢) ، غطـاء سرير (١) ، سرير (١) ، صندوق (١) ، اناء صغير (؟) برونز (١) (١٧) •

---

(١٦) P. Oxy. 243.

(١٧) Stpal XX 67 recto.

الأشياء المذكورة عاليه ـ ربما كانت زيادات أو عيزنت من أدوات المطبخ أو المفروشات التى كانت تستخدم فى الطابق السفلى من المنزل · أما الصندوق والسرير والأشياء الأخرى التى ذكرت فى نهاية الوثيقه فتعطى ايحاءات بوجود حجرة لنوم الضيوف بالطابق العلوى · ورغم غياب اى ذكر للملابس فيبدو أنها كانت تترك فى غرف المعيشة والنوم الموجودة بالطابق الأرضى · والأغطية الأربعة فى المخازن ربما كانت اغطيـة خارجية ثقيلة خزنت للشتاء القادم ·

والسؤال الآن ماذا كان يلبس أعيان المدن ؟ لقد كانت صـنادلهم وأحذيتهم تصنع من كل شيء بدءا بالبردى وانتهاء بالجلد ، ويبدو أنهم كانوا يفضلونها مطرزة بالخرز والأشياء الأخرى ذات الألوان اللامعة · أما الكسوة فوق أجسامهم فكانت ملونة خاصة الأخضر والأحمر مع تفضيل واضح للأزرق بكل درجاته ·

أما القمصان التى كانت تلبس على الجسم مباشرة فكانت عادة من الكتان · وكانت الملابس الخارجية من الكتان والصوف · وكان المعتقد حتى وقت قريب أن القطن تم استيراده من الهند فى فترة متأخرة عن العصر الرومانى · ولكن قدمت ثلاث برديات من مجموعة متشجان الدليل على أن القطن لم يكن يستخدم فقط فى مصر بل كان يزرع أيضـا هناك على الأقل منذ القرن الثانى الميلادى · أما المنسوجات الحريرية ـ وهى صناعة صينية وهندية الأصـل ـ فكانت تستورد من فارس للاسـتخدام فى الأغراض الزخرفية ، مثل الياقات والحواف ، فى ملابس الترف (١٨) ·

أما أحجام العائلات وأعداد أفرادها فتصلنـا من مختلف النصوص الخاصة بالوصايا والميراث ووثائق توزيع الرجـل لأملاكه أثناء حياته Intervivus والاحصـاءات السـكانية حيث كان كل مالك مسئولا عن تقديم هذا الاحصاء كل أربع عشرة سنة ونلاحظ أن عائلات عواصـم المحافظات ـ التى وصلتنا أعدادها فى البرديات ـ تضم على الأكثر خمسة أطفال وان كان المتوسط يتراوح بين طفلين وثلاثة أطفال ·

كانت نسبة المواليد بالطبع أعلى مما تدل عليه الأرقام · فلابد أن الأعداد كانت كبيرة لكى تقابل ·

أولا : النسبة العاليـة جدا لوفيات الأطفال التى ميزت التاريخ القديم كله ·

---

(١٨) عن القطن فى مصر الرومانية P. Mich. 500 ملاحظة فى السطر السابع ·

ثانيا : نظرا لعادة الاغـــريق بترك المواليــــد غير المرغوب فيهم لكي يموتوا ٠

وثالثة : ان اقرارات التعداد لم تكن تشمل الأطفال الذى شبوا وتركوا الأسر الممتدة نجد زوجا عمره ٥٠ عاما وزوجته أخته عمرها أربعة وخمسون أو أكثر وكل معه زوجته وأطفاله وفي أحيـان اخرى نجد أحـد الأبوين أو أصهارا ٠

وفى الغالب كان هناك عبد أو اثنان عند أسرة واحدة من بين كل اربع أسر في عاصمة المحافظة كما تدل الوثائق الموجودة ٠ وفى احدى هذه الأسر الممتدة نجد زوجا عمره ٥٠ عاما وزوجته أخته عمرها أربعة وخمسين عاما ، وتتراوح أعمار أبنائهما بين ٢٩ و٩ سنوات ولديهما ابنة عمرها سبع سنوات ٠ وكانت زوجة الابن الأكبر لديها توءم عمرهما سنة واحدة وزوجة الابن الثانى وابناهما ــ الأعمار غير معروفة ــ وهناك أيضا ثلاثة أولاد أخ تتراوح أعمارهم بين ١٩ و ٣٤ عاما ٠ وزوجة ابن الأخ الأكبر وبنتاهما وعمرها عام واحد ٠ ورجــل عمره ٤٤ عاما ويبــــدو أنه كان ابن الجد من ناحية الأم ومعه زوجته الأخت وعمرها ٥٢ وابنهما وعمـــره ثمانية أعوام وثلاثة اخوة أعمارهم بين ٥٢ و٢٦ عاما ٠ ويضم المنزل أيضا زوجة الابن الثانى والأخت الزوجة لأصغر الأبناء الثلاثة وعمرها ٢٣ عاما ٠ كل هؤلاء وعددهم ١٧ من الكبار والصغار يتم الاقرار بأنهم يعيشون فى عشر منزل $\frac{١}{٢}$ من منازل المدينة (١٩) ٠

كان متوسط العمر خلال التاريخ القديم يتراوح بين ٢٥ الى ٣٠ عاما ٠ واذا كانت هذه الأرقام تبدو منخفضة لنا ٠ فيجب أن نتذكر أن النسبة العالية للوفاة بين الأطفال كانت تؤثـر فى هذا التقدير ٠ ان التحليلات الحديثة وبرامج الكمبيوتر للمعلومات المتاحة عن مصر الرومانية تبين أن الأحياء بعد سن المراهقة يصبحون نصف عددهم كل عشر سنوات ٠ وهذا يعنى أن الأشخاص الذين يصلون الى سن الخامسة عشرة لايصل منهم الى سن الخامسة والعشرين سوى نصفهم ٠ وربعهم هم الذين كانوا يصلون الى سن الخامسة والثلاثين ٠ هذه الحقيقة تشرح لنا لماذا نجد فى مصر الرومانية كثيرا من الأرامل والزيجات لثانى مرة واخوة غير أشقاء ٠

ومن بين عشرات الاقرارات الخاصة بالتعداد التى عثر عليها فان أسرتين اثنتين فقط من عاصمة المحافظة كان لهما بنات أكثر عددا من البنين (وقد بلغت الزيادة بنتـــا واحدة فى الحالة الأولى واثنتين فى الحـــالة

---

(١٩) BUG 115 = W. chr. 203.

الثانية) . وقد استمر مواطنو عواصم المحافظات في اتباع العادة الاغريقية القديمة بالتخلص من المواليد الجدد غير المرغوب فيهم . أما المصريين الذين كان دينهم يمنع وأد الأطفال فكانوا أحيانا ينقذون الأطفال الذين تركوا للموت . وكان القانون يسمح لهم في هذه الحالة بتبني ما يجدونه أو ينشئونه كعبيد . ونتعرف على مثل هؤلاء الأطفال من الأسماء التي أطلقت عليهم مثل Kopreus. التي تعني عند كوم السباخ واشتقاقاتها .

وفي خطاب مؤرخ في ١٧ يونيو من العام الأول ق.م كتب رجل يدعى Hilarion وكان في مهمة بالاسكندرية الى زوجته التي كانت أخته أيضا يقول : اليس « فلتعلمي أنني ما أزال في الاسكندرية . لاتقلقي اذا عادوا جميعا وبقيت في الاسكندرية . انني أرجوك وألح في الرجاء أن تعتني بابننا الرضيع . وبمجرد أن أتسلم نقودا فسوف أرسلها لك . واذا رزقت طفلا (قبل أن أعود) فأبقي عليه ان كان ولدا أما ان كانت أنثى فتخلصي منها . لقد أرسلت الى تقولين لاتنساني ! كيف أنساك ؟ أنني أرجوك ألا تقلقي » .

ان معرفتنا عرضا باستمرار هذه العادة الاغريقية تجاه الأطفال الجدد يجسدها بوضوح اتفاق عقد في الاسكندرية في العام الثامن ق.م تقر فيه أرملة صغيرة مات عنها زوجها بعد سنة ونصف من الزواج ، أنها استعادت من حماتها كل الدوطة التي كانت قد أحضرتها لزوجها المتوفي ، وأنها بالمقابل تتنازل عن كل الحقوق تجاه ضيعته . وتذكر في هذا الصدد : بالرغم من أنها حامل ، فلن تطالب بأي تكاليف فراش لوليدها ، حيث انها قد اكتفت (ماديا) فيما يخص ذلك ، ولكنها تحتفظ لنفسها بحق التخلص من الطفل لترتبط برجل آخر » (٢٠) .

ولا يجب أن نتصور أن المواليد الاناث فقط هن اللاتي كن يتعرضن للالقاء حتى الموت . ولكن كل الأدلة تشير الى أنهن عانين هذا المصير أكثر من المواليد الذكور . ان الاعتبار الأول الذي كان يجعل الأهل أقل رغبة في ضم اناث لعائلاتهم كان بالطبع الحاجة لتجهيزهن بالدوطات . ولقد كان تقديم دوطة كبيرة نوعا من الفخر الاجتماعي للأسر الغنية . ففي عام ١٢٧ م على سبيل المثال أرسل أبوان ابنتهما العروس ومعها جهاز فخم يضم زوجا من الحلقان يزن ٣ مينات و ١٤٫٥ كوارتر (*)

(٢٠) P. Oxy. 744 = Select Papyri 105, and BGU 1104.

(*) الكوارتر وحدة وزن تعادل ٢٥ رطلا في الولايات المتحدة و ٢٨ رطلا في بريطانيا . وكانت تساوي في مصر في ذلك الوقت وزن ثلاث أوقيات .

وبروش زنة ٨ كوارترات بالاضافة الى الجواهر الأخرى التى تجعل الوزن الكلى ٥ مينات • وردانين (أحدهما احمر والآخر وردى) ، ورويا ، وعباءة وكلها تساوى ٥٦٠ دراخمة فضية (وهذا الثمن كان يشترى نفس الكميات خمس مرات إن كانت سادة وعادية) بالاضافة الى ١٨٠٠ دراخمة نقدا ، وهذا يجعل قيمة الدوطة ٤١٠٠ دراخمة •

كان الشبان يتزوجون فى حوالى سن الثامنة عشرة الى العشرين • والعرائس كن عادة أصغر منهم بعدة سنوات • وكثيرات من الفتيات كن قد تزوجن بالفعل وأصبحن أمهات عند الخامسة عشرة أو السادسة عشرة • وعقود الزواج ، كما يظهر من الأمثلة الموجودة منها كانت تتضمن عادة الرغبة المخلصة للزوجين فى العيش سويا باخلاص وأن يراعى كل منهما واجبات الزواج : فالزوج يمد زوجته بكل ضرورات الحياة طبقا لامكاناته والواجبات المتبادلة للزوجين كانت تكتب أحيانا بتفصيل شديد كما يلى « انه لن يعاملها معاملة سيئة أو يطردها أو يهينها أو يحضر امرأة أخرى فى داخل المنزل ، فان فعل كان عليه أن يدفع الدوطة مرة ونصف • وهى سوف تنجز كل واجباتها تجاه زوجها ولحياتهما العامة ، ولن تقضى أى ليلة أو يوم خارج المنزل بغير اذن (زوجها) ، ولن تهتك أو تضر بمنزلهما ، ولن تكون لها اتصالات برجل آخر • أما ان فعلت ووجدت مذنبة فى أى من هذه الجرائم فسوف تحرم من قيمة الدوطة » (٢١) •

ويبدو أن الطلاق كان سهلا وشائعا ، وعلى الأخص بين الأزواج الشباب وعندما كان ينتهى الأمر بالطلاق فان الزوج كان عليه أن يعيد كل الأشياء التى شملتها الدوطة والهدايا المصاحبة (اذا كان هناك) ، والا فعليه أن يدفع قيمتها نقدا • ولكن وكما هو الحال الآن ، لم يكن الطلاق دائما رغبة متبادلة • والخطاب التالى رغم غموضه بعض الشىء فانه يعتبر أفضل مثل على زوج راغب فى اعادة زوجته التى تركته مع كوبولس Kobolos (الذيل القصير) وربما كان هذا اسم الرجل الذى هربت معه •

« من سيرينوس Serenus الى ازيدورا Isidora أخته وزوجته ، تحيات كثيرة • قبل كل شىء فانى أدعو أن تكونى بصحة جيدة ، وفى كل صباح وكل مساء أقدم باسمك الطاعة للالهة Thoeris التى تحبك • اريدك أن تعلمى أنه منذ تركتينى وأنا فى حزن دائم ، ابكى بالليل وأنوح بالنهار • ومنذ اغتسلت معك يوم ١٢ بابه Phaophi فاننى لم أغتسل ولم أدهن بالزيت حتى ١٢ هاتور Hathyr

(٢١) BGU 1052 = select papyri 3. Mothers at fifteen, p. 70.

(٣٠ يوما تالية) ٠ وعندما استلمت خطابا منك يمكن أن يحطم الصخر ، أصابتني كلماتك باحباط شـديد ٠ لقد كتبت لك فورا ، وأرسلته يوم ١٢ مرفقا به خطابك ٠ تقولين في خطـابك : « أن كوبولس جعلني عاهرة » ٠ ولكنـه قال لى : « زوجتـك ترسل اليك هذه الرسالة : [ذكريه] لقد كان هو نفسه الذى باع سوارى ، وهو نفسـه الذى وضعنى فى القـارب » انك فقط تقولين ان النـاس لن يصدقوا دفاعى ، ولكن انظرى ، اننى سوف أكتب اليك وأكتب اليك (فهل) ستعودين أم لن تعودى ٠ قوليها لى » (٢٢) ٠

وكان يمكن أن ينتهى الزواج بتدخل من الأب الذى كان صاحب الحق القانونى فى أن يأخذ ابنته المتزوجة من بيت زوجها حتى ولو كان ذلك ضد رغبتها ، وفيما بعد يزوجها لآخر (وهو أمر يمكن البحث عن أصوله فى أثينا الكلاسيكية) « ولكن خلال قرون الحكم الرومانى فى مصر نال هذا القانون بعض التهذيب على أسس انسانية ، كما ظهر فى احدى القضايا التى حسمت فى عام ١٨٦ م بعد مناوشات قانونية استمرت ما يقرب من عامين : فالابنـة التى كانت تقاوم أوامر أبيها بمغادرة بيت زوجها » وضعت السوابق الآتية أمام أنظار المحكمة : فى عام ١٢٨ م وضع حاكم مصر آنذاك قاعدة جديدة ، وهى الحكم لمن ترغب « السـيدة المتزوجة أن تعيش معـه » ٠ وفى قضية أخـرى بعد خمس سنوات نفذ الابيستراتيجوس Epistrategos هذه القاعدة التى قررها الحاكم « فأمر بأن السيدة يجب أن تسأل عما ترغب ٠ وعنـدما اجابت « أريد أن أبقى مع زوجى » أمر لها بذلك ٠ وبعد عام أو اثنين فان خبيرا قانونيا أعطى رأيا استشاريا لمحكمة أقل درجة ذهب فيه الى مدى أبعد قائلا : « ان المرأة وقد تزوجت بأمر والدها ، فانها لم تعد فى نطـاق نفوذ الوالد بعد ذلك » (٢٣) ٠

ان الأسرة فى عاصمة المحافظة كانت تتكون من الوالدين والأطفال وربما بعض الأقارب والعبيد ٠ ومعظم الأسر ، كما يبدو كان لديها على الأقل عبد أو اثنـان ، وكثيرون كان لديهـم عدد أكبر ٠ وعلى الجانب الآخر ، فان امتلاك الأعداد الكبيرة من العبيد كان اسـتثناء ٠ وقد علمنا

---

(٢٢) P. Oxy. 528 = Select Papyri 125.

(٢٣) P. Oxy. 237. وتحتوى على قضية ١٨٦ م والسوابق ـ وقد ذكرت وقائع جلسة عام ١٢٨ م فيما بعد فى الفصل التاسع ٠ وقد نوقشت هذه الأدلة وأدلة أخرى فى Revue Internationale de; Droits de l'Antiquite, 17 (197), pp. 251-8.

حديثا ـ على سبيل المثال ـ أن أسرة اسكندرية مشهورة ، رقيت للجنسية الرومانية ، كان فيها الأب وثلاثة أبناء يملكون معا حوالى مائة عبد » (٢٤) ٠

وأغلب العبيد ، كما هو واضح ، كانوا يقومون بالخدمة فى المنازل أو يدربون على مهارات تدر دخلا على سادتهم ٠ وما نلاحظه من غياب تأثير العبيد على الانتاج الزراعى ـ وهو ملمح عام فى كل المجتمعات القديمة ـ يعود جزئيا لحقيقة أن الفلاحين الأحرار الذين كان أغلبهم يعيش حياة من الفقر جعلتهم مصدرا جاهزا لقوى العمل الموسمى فى الزراعة أرخص من استخدام العبيد ـ الذين كانوا يحتاجون الى توفير رأس المال اللازم لشرائهم بالاضافة الى التكاليف اليومية اللازمة لحياتهم ٠ العامل الثانى الكبير هو أن وادى النيل عكس الوضع فى ايطاليا وشمال أفريقيا واد ضيق ، يخترقه نهر خصيب تحده الصحراء من كل ناحية ٠ ومن ثم فهو لايقدم الظروف المناسبة للاستغلال الاقتصادى لقوة العبيد ٠ صحيح أن بعض الاقطاعيات ذات المساحات الكبيرة ـ بالاضافة لتلك الخاصة بالامبراطور ـ بدأت فى الظهور فى القرن الثالث والقرون التالية ، الا أن النموذج الدائم للضيعة فى مصر خلال الفترة المبكرة من الامبراطورية (البرنكيبت) هى الوحدة الصغيرة التى يقوم على زراعتها ملاكها ومساعدوهم ٠

وبالنسبة لمصدر الحصول على العبيد وأسلوب الاستفادة بهم فان الأدلة فى مصر تقدم صورة عما كان يحدث خلال الامبراطورية الرومانية كلها لا مصر فقط ٠ ففى القرن الثانى ق٠م وحده قدمت حروب روما التوسعية أسرى يقدرون بعشرات الآلاف لأسواق العبيد ٠ وعندما يكون العبد البالغ رخيص الثمن جدا ، فان ملاك العبيد لايجدون الحافز القوى لتربية ذرية العبيد ٠ خاصة اذا وضعنا فى الذهن معدل الوفاة العالى جدا فى السنوات الطفولة المبكرة فكان الأطفال يموتون قبل أن يصلوا السن التى يمكن أن تعود أعمالهم ببعض العائد على المالك مقابل ما أنفقه ٠ ولكن حدث تطور هام خلال القرنين الأول والثانى بعد الميلاد اذ أصبحت الحروب الخارجية أقل ٠ ومن ثم تضاءل عدد الأسرى المعروضين للبيع ٠ وبالتالى تحول السادة الى تشجيع العبيد على انجاب الأطفال ، وبدأ يظهر تعبير « مولود فى المنزل » و « محلى » فى البرديات ٠ فقد كان المشترون يفضلون أن يكون العبد عارفا بالظروف المحلية ، على عكس العبد المستورد

---

(٢٤) P. Oxy. 3197, of AD 111.

الذى لايعرف تاريخه السابق أو أصله • وليست هناك أدلة تشير الى أن العبد المحلى كان سعره أعلى ولكن كانت هناك تحذيرات شديدة فى قانون قواعد الادارة تمنع تصديرهم خارج مصر •

ومع ذلك استمر استيراد أعداد صغيرة من العبيد طول الوقت لمصر من أماكن مختلفة من الامبراطورية وكذلك من الأقاليم المتاخمة للحدود • ومن بين الأماكن التى ذكرت فى البرديات نجد تراكيا وفريجيا و Osrhcenia وجالاتيا وليكيا وبامفيليا والولاية العربية وأثيوبيا وموريتانيا •وأيضا أولئك الأطفال الذين كان البعض يتخلص منهم بالقائهم فى العراء كان يمكن أن يؤخذوا وينشئوا كعبيد • والواقع أن الحكومة الرومانية كانت تشجع هذا الاتجاه حيث كانت تجرم اتخاذ هؤلاء اللقطاء أبناء لمن التقطوهم فقد ذكرت المادة الرابعة من قواعد الادارة :

« اذا ربى مصرى طفلا من أولئك الذين ألقوا فى العراء وتبناه ، فسوف تصادر ربع ضيعته عند وفاته » •

كانت معاملة مواطنى المدينة لعبيدهم تتميز بنبل واضح حيث تشير الوثائق الموجودة الى أن كثيرا من العبيد كانوا يعرفون القراءة والكتابة وأعدادهم كانت أكبر من كونهم مجرد عناصر ارتزاق لصالح مالكيهم • فمن المؤكد أن وجود العبيد لثلاثة أو أربعة أجيال فى خدمة نفس الأسرة قد صنع حالة من انسانية التعامل • وكانت قمة هذه الحالة هو عتق العبد وتحريره • وكان العتق يتم أحيانا بأمر من المالك فى وصيته الأخيرة كمكافأة على الأمانة والخدمة مدى الحياة • ففى وصية من عام ١٥٦ م على سبيل المثال يهب الموصى الحرية عند وفاته لأربعة من العبيد « لطيبتهم وحنوهم » • ويترك لورثته « عبيده الآخرين وأية ذرية يمكن أن ينجبوها » • وأحيانا أخرى كان العبيد يحررون فى حيوات سادتهم • وكان بعض العبيد من ذوى المهارات الخاصة قادرين على شراء حريتهم بتوفير جزء مما يكسبونه • ولقد كان منح أو شراء الحرية من خلال وساطة المعبد وتحت رعاية الآلهة منتشرا بصورة عامة (٢٥) •

ولكى ننهى هذا الفصل علينا أن نجيب على السؤال التالى : ماذا يقول البردى عن مستوى القراءة والكتابة فى مجتمع عاصمة المحافظة ؟ ان نظرة الى قائمة النصوص الباقية تبين أن أعمال كل المؤلفين الاغريق

(٢٥) هناك مثل تم ذكره فى الفصل الثامن • والوثيقة المقتبسة فى هذه الفقرة مأخوذة عن P. Oxy. 494 = M. Chr. 305

الكبار وكثير من مؤلفات الكتاب الأقل شهرة قد استمر نسخها في مصر طوال فترة الحكم الرومانى بل ولعدة قرون تالية . ومن الواضح أن المشترين كانوا على استعداد لاقتناء هذه الكتب أو استعارتها لينسخوا لأنفسهم منها نسخا لاضافتها الى مكتباتهم الخاصة . وكان هوميروس ، الذى أشار اليه الاغريق خلال كل تاريخهم القديم بالشاعر ، الأكثر انتشارا بين القراء سواء من يقرءون قراءة حرة أو من يتعلمون فى حجرات الدراسة . ولقد نشرت حتى اليوم ٧٠٠ بردية وأوستراكا تحمل نصوصا هوميرية معتمدة تتضمن بيتا أو أبياتا من مختلف أشعاره وبخاصة الالياذة . وكان التالى له فى الانتشار هو ديموسثينس ثم يوربيديس ثم هيزيود . وقد عثر لكل منهم على ما يقرب من مائة قطعة .

ان الأدلة التى يقدمها المكان هامة أيضا . فبينما البرديات التى عثر عليها فى قرى — مثل تبتينس وكرانيس — تضم بعض القطع من الأدب فان الأغلبية الساحقة من الأعمال الأدبية والدينية جاءت من اطلال المدن وأكوام القمامة التى خلفتها . هناك أمل محدود فى العثور على مثل هذه المكتشفات فى الاسكندرية أو بالقرب منها : فبصرف النظر عن التدمير الذى ينال الأشياء القديمة نتيجة الاستعمال المستمر لنفس الموقع ، فان البردى قد تحلل فى تربة الدلتا لطول ما بقى فى الرطوبة ذلك باستثناء عدة عشرات من البرديات عثر عليها متكربنة — أما فى انطينوبولس Antinoopolis ، فان بعثة اثرية عثرت فى شتاء ١٩١٣ — ١٩١٤ على ٢٠٦ برديات باليونانية منها ١٤٨ محتوياتها أدبية أو تكنولوجية (طب — فلك الخ ...) فى بانوبولس Panopolis احدى عواصم محافظات مصر العليا ، كانت المصدر الوحيد للمسرحية الهزلية التى وصلتنا كاملة من تاليف ميناندر كما كانت كذلك مصدر اغلب أجزاء المسرحيات الثلاث الأخرى . كما أنها مصدر اقدم بردية مخطوطة لأسفار العهد الجديد والكتابات المسيحية الأخرى ، والتى يعود أبكرها الى عام ٢٠٠ م . ولكن أغنى الأماكن التى أمدتنا بالبردى هى اكسرينخوس . لقد تمت الحفائر هناك حوالى بداية القرن وكشفت عما يمكن أن يكون على الأقل بقايا مكتبتين خاصتين . مئات من النصوص الأدبية من اكسرينخوس تم نشرها بالفعل البعض منها معروف والبعض الآخر جديد ، ومئات أخرى ماتزال تنتظر النشر .

أحيانا تعطينا وثيقة ما ومضة عن كيف مضى محبو الكتب من سكان المحافظات فى بناء مكتباتهم الخاصة من خلال الشراء أو الاستعارة

أو الاستنساخ . ومنها بردية تسجل المبلغ المدفوع لناســخ مسرحية بلوتوس Plutus لأرستوفانيس و Third Thyestes لسوفوكليس.
وبردية أخرى تحكى عن ابن فى الاسكندرية يشحن صــناديق كتب الى والده فى أوكسيرنخوس وفى بردية أخــرى نقرأ الحاشــية التالية فى خطاب : « انسخ وأرسل لى نسخا من Butts of comedy لهبسيكراتيس Hypsikrates الكتابين ٦ و ٧ . ويقول هاربوكراتيون Harpokration انها ضمن كتب بوليو Polio . (ولكن يبدو أن آخــرين أيضــا قد استعاروها) ، وعنده أيضــا المختصرات النثرية لأســاطير التراجيدية The Myths of Tragedy لثيرساجوراس Thersagoras .
حاشية أخرى تضيف :

« وطبقا لقول هاربوكراتيــون فان ديمتريوس بائــع الكتب لديه اياهم . لقد كتبت لأبولونيديس Apollonides ليرسل لى بعض كتبى الخاصــة ، الذين سيريك اياهم سليوكس بنفسه . واذا وجدت أى شيء غير ما ذكرت لك ، أعــد نسخا منها وأرسلها لى . ديودورس أيضــا واصدقاؤه لديهم كتب أخرى لا أملك مثلها » .

ان المعلقين يعتقدون دون أن يكون لديهم دليــل قاطع بامكانية أن يكون الجامع الأول للكتب فى الخطاب السابق هو Vallerius Pollio الاسكندرى المعــروف بأنه أتم قاموســا اتيكيــا وكان لديه ابن يدعى ديودورس .

وهناك برديتان أخريان احداهما فى فلورنسا والأخرى فى ميلانو ، البردية الأولى كانت فى الأصل سجلا للضرائب على بعض أنواع الأراضى . وعندما لم يعد هذا السجل مستخدما ، فان أحد مواطنى اوكسيرنخوس ، وربما كان تاجر كتب . سجل على ظهره قائمة بكتب يبدو أنه كلف أحدا بشرائها له . فهو يحتاج عشرين من محاورات أفلاطون ، التى سـجلها بعناوينها ، وأربعة أعمال لاكسنفون ، وكل ما يمكن أن تجده من (أعمال) هوميروس وميناندر ويوريبيديس وأرستوفانيس . وفى البردية الثانية يذكر الكاتب استلامه للكتب التثقيفية التالية من الاسكندرية : عن التدريب لبويثوس Boethos وعن الزواج لديوجنيس وعن التحــرر من الألم

(لديوجنيس أيضا) وله أيضا عن دور الآباء • (وأخيرا) عن الاقناع (الكتاب الثالث) لبوسيدونيوس Poseidonios) (٢٦) •

لاشك فى ان المباهاة تدخلت ـ كما هو الحال الآن ـ فى اقتناء مكتبات ذات أحجام كبيرة أو مكتبات ذات مجموعات منتقاة • ورغم هذا نحس بأن الكتب كانت تقتنى لكى تقرأ أو لكى تعاد قراءتها • ان ولع مواطنى عواصم المحافظات بالمحافظة على القديم واضح بما فى ذلك تمثيل المؤلفات الكلاسيكية والجديدة على المسرح فى الأعياد والمسابقات • وقد نشر حديثا جزء من مسرحية ليوريبديس يؤرخ من القرن الثالث الميلادى ، يحتوى هذا الجزء على تعليمات كتبت على الحواشى للممثلين • وهناك من نفس العصر تقريبا حساب يبين دفع ٤٩٦ دراخمة الى ممثل و ٤٤٨ دراخمة لراوى شعر هوميروس • وهى مبالغ طائلة اذا قيست بأجر العامل الماهر مثل البناء وكان لايستطيع أن يكسب أكثر من أربع درخمات فى اليوم (٢٧) •

ومن الجدير بالذكر أيضا أن عددا من الكتاب مختلفى المكانة والشهرة ولدوا فى مدن وعواصم محافظات مصر • مثل أثينايوس Athenaeus جامع المتنوعات الذى لايكل • وقد ولد فى نقراطيس ، وفيلسوف الأفلاطونية الجديدة أفلوطين Plotinus الذى ولد لأسرة رومانية تسكن فى ليكوبولس فى صعيد مصر • ومن المؤكد أن هؤلاء رحلوا عن مدنهم لكى يتموا تعليمهم فى الاسكندرية وروما • ولكن أماكن ميلادهم التى قضوا فيها سنوات التكوين لم تكن أرضا بورا من ناحية الثقافة • عنصر آخر جدير بالذكر خاص بالساحة الثقافية وهو وجود مؤلفات لاتينية فى البردى • هذه الوثائق اللاتينية قليلة العدد جدا ، واغلبها يؤرخ من بعد القرن الثالث ، أى عقب تعميم حق المواطنة الرومانية • ومن النتائج الهامة لذلك خلق سوق للقواميس مزدوجة اللغة ، مساعدة للمتكلمين بالاغريقية عند نسخهم لنصوص لاتينية •

كل هذه الأدلة على النشاط الأدبى والتلقى تستدعى صورة مجتمع يتكون من اناس يعرفون القراءة والكتابة (وعما اذا كان هذا يصدق على النساء كما يصدق على الرجال فهو أمر سنبحثه فيما بعد) • وفى

---

(٢٦) طبقا للنظام المذكور عاليه توجد الوثائق Aegyptus 2 (1921) 283-5 و P. Oxy 1153 & 2192 و Aegyptus 2 (1921) 19-20 ص ص ١٩ ـ ٢٠ ومعها بعض التعليقات فى رقم ٤٤ (١٩٦٤) ص ص ٢٣ ـ ٢٤ و P. Mil. vogl. II.

(٢٧) P. Oxy. 2548 and 529.

هذا أيضا كان مواطنو عواصم المحافظـــات يشبهون أنفســهم بمواطني اثينا في العصر الكلاسيكي (٢٨) ٠

ولكن البرديات الأدبية ليست هي الدليل الوحيد أو حتى الدليل الأفضل على مدى معرفة مواطني عواصم المحافظات للقراءة والكتابة ٠ ان افضل الأدلة نجدها في البرديات غير الأدبية وهي وثائق الحياة اليومية ٠ نقص في مدرسي اللغة الاغريقية ٠ والبعض منهم كانوا عبيدا والبعض أن يوقع بالأصالة عن نفسه يوقع عنه واحد آخر ويضيف أنا « فلان » قد كتبت له أو (لها) لأنه أو (أنها) أمي أو (أمية) ٠ وقبل ثلاثين عاما تم حصر للبردى المنشور من القــرون الثلاثة الأولى ٠ ووجد ستمائة أمي من بينهم ثلاثة فقط من مواطني عواصم المحافظات ٠ كما أن هؤلاء الثلاثة يظهرون في بردى القرن الثالث ، عنــدما أصبحت عائلات حضرية كثيرة لاتعيش في رخاء وكفت عن التعليم الذى كان فيما سبق أحد الضرورات الاجتماعية ٠ وفي الحقيقة ، فان عائلات حضرية أكثر وأكثر امتنعت عن الترفع المطلق عن ســكان المدن الريفيــة من المصريين ، وبدأت الزيجات المشتركة تأخذ مكانها ٠

ولدينا دليل يلقي ضوءا على ذلك ـ نشر حديثا ـ وهو طلب ضم ولد الى صفوة الجمنــازيوم في أوكســيرنخوس ويعــود هذا الطلب الى عام ٢٦٠ م تقريبا ٠ ففي تسجيل شجرة عائلة نجد تفاصيل مثيرة منها أن أسلافه لمدة خمســة أجيال ذوو أسماء إغريقية ، ولكن الولد نفسه يحمل اسما مصريا هو باتيرموثيس Patermouthis (٢٩) ٠

ومع ذلك فان هؤلاء الأميين الثلاثة من مواطني عاصــمة المحافظة يعتبرون استثناء ، فحتى في تلك الأيام الأقل رخاء كانت طبقة مواطني عواصم المحافظات ككل ترسل أولادها الى المدارس ٠ بالنسبة للبنات فان قرار التعليم أو عدمه يبدو أنه كان قرارا شخصيا يتعلق بالوالدين أكثر منه موقفا اجتماعيا ٠ وهناك ستة خطابات من أوائل القرن الثاني تتحدث عن ابنة استراتيجوس اقليم كانت تلميذة بمدرســة بعيدة عن المنزل ٠ وعلى الجانب الآخر هناك وثيقة من عام ١٥١ تبين عضوا من صفوة المعمرين

(٢٨) ناقش مستوى اجادة القراءة والكتابة في اثينا في القرن الخامس :
F. D. Harvey, Revue des Etudes Grecques, 79 (1966), 535-636.

(٢٩) P. Turner, 38.

وهو أحد الاغريق الحضريين وكان مواطنا أميا من انطينوبولس ٠ وذلك في الوثيقة التي ترجع لسنة ١٩٨ م وقد نشرت منذ ثلاثين عاما مضت ٠

فى أرسينوى يوقع نيابة عن أخته لأنها أمية . ان المرأة التى كانت تقدر على الكتابة كانت تحس فخرا بذلك ، وكانت أحيانا تسعى للتنويه بهذه الحقيقة سواء كانت المناسبة تحتمــل ذلك أم لا . وهنا من عام ٢٦٣ م امــراة تدعى Aureila Thaisous وتعرف أيضــا ب Eolliane قدمت عريضة لحاكم مصر لكى تمنح وضعية معينة ــ رغم عدم وجــود صلة وثيقة بين هذه الوضيعية ومعرفة القراءة والكتابة قالت فيها :

ان النساء اللاتى لديهن ميزة الثلاثة أبناء ، أعطين الحق فى التعامل المستقل والتفاوض دون وجود ممثل ذكر فى أى مهمة ينجزنها ، والأحرى بذلك النساء اللاتى يعرفن الكتابة . وعلى هذا ، وحيث اننى رزقت كثرة من الأبناء والمقدرة على الكتابة بسهولة مطلقة نظرا لكونى متعلمة ، فاننى التمس من عظمتكم (الخ) (٣٠) ...

وفى عواصم المحافظات بل وفى بعض القرى الكبيرة ، لم يكن هناك نقص فى مدرسى اللغة الاغريقية . والبعض منهم كانوا عبيدا والبعض الآخر نساء . ويبدو أن سن المدرسة كان يبدأ فى العاشرة . ولكننا نلاحظ بين من يصلون سن التاسعة من لايعرفون التوقيع بأسمائهم فى وثائق الميراث . ونصادف من يتعلم القراءة والكتابة وهو فى سن الرابعة عشرة من بين صفوة الجمنازيوم . وفى تعداد عام ٢١٦ م نجد أبا يسجل ابنيه اللذين يبلغ أحدهما ثلاث عشرة سنة والثانى عشر سنوات ، ويضيف بعد اسم كل منهما أنه « يتعلم الحروف » (٣١) .

ان التعليم فى المدرسة المحلية يعلم التلميذ كيف يقــرا ويكتب ويقربه من ثروة المؤلفات الكلاسيكية . ولكن التعليم لمرحلة أعلى من هذا المستوى كان يتطلب فترة من الدراسة فى الاسكندرية . وكثير من أبناء العائلات الحضرية أرسلوا هناك للحصول على تلك اللمسة المهيبة الأخيرة . وعادة ما كان يصــحب الواحـد منهم عبدا أو اثنين لكى يقوم على حاجاته وراحتــه . ولكن أحيــانا تكون التجــربة العظيمة المنتظرة مخيبة للآمال . حيث يكتشف الشاب حقيقة أن المدينــة الكبيرة بجانب دورها المتميز لديها نصيب من الأعمال المتوسطة والهابطة . ففى وقت ما من القرن الأول أرسل شاب من هؤلاء لأهله قائلا :

---

(٣٠) P. Oxy. 1467 = Select Papyri, 305.

(٣١) P. Flor. 56, and 382 = W. Chr. 143, and St Pal. II, p. 27.

« ان على أن أجد معلما فورا · لقد رفضت ثيون Theon · نعم لقد كونت أنا ايضا رايا سيئا عنه لأنه غير مسئول بالطبيعة · وعندما أعلمت فيلوكسيموس Philoxemos برأيك وافق قائلا ان المدينة عانت من نقص الأساتذة · ولكن ديديموس الذى (يبدو) أنه صديقه ، يبحر شـــمالا ويملك مدرسة · وقال ان ديديموس سيكون أكثر انتظاما من الآخرين · واقنــع أيضـــا أبنـــاء أبوللونيوس Apollonios ابن هيروديس Herodes لكى يدرســـوا مع ديديموس ، لأنه منذ مــوت Philologos الذى كانوا تلاميذه وحتى اليوم مايزال يبحث معهم عن معلم أكثر تأثيرا · ومن ناحيتى فان دعواتى ستستجاب اذا وجدت معلمين أكثر جدارة بالثقة ولم أكن مضطرا أن تقع عيناى على ديديموس ولو من بعيد · والشىء الذى يجعلنى أحس بالاحباط أن (ديديموس) ينظر اليه باعتباره أهلا للدخول فى منافسة مع المعلمين الآخرين · هذا الرجل الذى لم يكن شيئا سوى ناظر مدرسة ريفية · ونظرا للتحقق من أنه لا طائل من وراء التعاقد مع أى معلم موجود حيث ستدفع رسوما بلا مقابل · فاننى أعتمد على تدابيرى الخاصة · اكتب لى سريعا عما تعتقد · هناك ديديموس وهو دائمـا على استعداد كما وضح Philoxemos لأن يعطينى وقته ويفعل كل شىء لى · ولكنى متأكد أننى سأكون بخير بمشيئة الآلهة حتى لو اكتفيت بالسماع للمحاضرات العامة ومن بينها ما يلقيه بوزيدونيوس Poseidonios ...“

وكتب والد طالب آخر أن ضغط الأعمال سوف يؤخر زيارته للشهر القادم ، واضاف « وفى مطلب علمك ركز كل اهتمامك مع كتبك ، وسوف تستفيد منها » ·

قد يستطيع أحد كتاب العصر الحديث أن يقدم لنـــا هذه المعانى بأسلوب أكثر رشاقة أو أكثر عظمة · ولكن هذا لا يجعلنا ننسى الأسلوب البسيط المختصر الذى عبر به أب عاش من ١٨٠٠ عام عن مدى الاهتمام غير المحدود الذى يبذله الآباء من أجل حياة أبنائهم ·

---

(١٢) الخطابان المنشوران من :
P. Oxy. 2190, and 531 = W. Chr. 482.

قرى الفلاحين

عاش الفلاحون معا في قرى ونجوع • وكان عليهم أن ينتقلوا منها الى مناطق حقولهم على اقدامهم أو فوق ظهــــور الحمير • وكانت هذه الحقول تقع فى بعض الأحيان على بعد مسافات كبيرة من مناطق سكناهم • وكانت القرية في هيكلها العام كعاصمة محافظة ولكنها أصغر حجما • فالقرية تبدو فى عينى القادم اليها من بعيد كومة من الحوائط الســاذجة مبنية من اللبن غارقة فى أحضان الطبيعة •ولكن عندما يقترب المسافر فانه سيكتشف أن هذه الحوائط لمنازل تقع فى مجموعات تفصلها شوارع ضيقة وأزقة • وأفضل الأمثلة الباقية للقرية المصرية فى العصر الرومانى نجـدها فى اقليم الفيوم • وعلى بعـد أكثـر من خمسين كيلو متـرا الى الجنوب الغـــربى من القاهرة ، حيث عثر على أطلال كرانيس القديمة والتى قامت بالحفر فيهـــا جامعـــة متشجان فى السنوات الفاصلة بين الحربين العالميتين •

وقد وصف أحد الزائرين فى عام ١٩٦٣ منزلا منها قائلا : هذا المنزل جزء من مجموعة اكبر • كان

يتم الدخول اليه باعتلاء ثلاث درجات من ممر ضيق يقودنا شمالا من الطريق الرئيسى . نلاحظ أن كتلة الخشب الخاصة بعتبة الباب لا تزال فى موضعها عند باب المنزل ، الذى يوصل الى حجرتين ، كل واحدة منهما مساحتها ٩ × ١٠ اقدام ، لها ارضية طينية وحوائط مبيضة . لا يدخل الضوء الى الحجرة الأولى الا عن طريق الباب ، والمعروف أن الشمس تسطع بقوة فى مصر ودخول الضوء أمر غير مستحب ... أما الحجرة الداخلية ففيها فجوة فى حائطها الشمالى ونافذة تطل على الممر ... وعلى الحائط المطل على الشارع من الحجرة الرئيسية فى مواجهة الباب الرئيسى ، سلسلة من مخازن الغلال . وهذه الأخيرة يبدو أنها حولت فيما بعد الى محل ، ربما بباب منفصل على الزقاق .. وليس للمنزل أقبية أو سراديب ، مثل كثير من مبانى السكن وليس له فناء لكى يضم الأفران أو الطاحونة او الحيوانات (١) .

لقد دهش هيرودوت عندما زار مصر فى القرن الخامس ق.م من أن الفلاحين المصريين يضعون حيواناتهم المستأنسة فى داخل منازلهم . وقفز من ذلك الى نتيجة هى أنهم كانوا الشعب الوحيد الذى يفعل ذلك (٢) .

وبالنسبة لغالبية الناس فقد كانت القرية هى موطنهم من المهد الى اللحد . ولكن الفلاحين الذين يثرون كانوا أحيانا يبحثون عن حياة افضل وأكثر تحضرا بأن ينقلوا أسرهم لكى تعيش فى عاصمة المحافظة ، حيث يمكنهم أن يعيشوا حياة متحضرة كتلك التى يعيشها أهل البندر وأن يطوروا حياتهم بما يناسب ثقافة أهل عاصمة المحافظة ، على الرغم من انهم كانوا مستبعدين بصورة دائمة من الانضمام الى الطبقة المميزة هناك بسبب أصولهم الوضيعة . ولدينا حالة سيرابيون ابن ايوتيخديس Sarapion son of Eutychides الذى كان يقترب من سن الأربعين حوالى عام ١٠٠ م عندما نقل سكنه هو وزوجته سيلين الى هرموبولس ومعهما أولادها الأربعة وابنتهما ، ومربية الأطفال . اننا نعلم عن هذه الأسرة واهتماماتها العملية من أرشيف يضم حوالى ١٥٠ بردية موزعة فى

---

(١) E. G Turner, Greek Papyri, an Introduction, pp 78-9.

(٢) Herodotus, Histories, BK II, ch 36.

الوقت الحالى بسبب البيع بين متحفين وخمس مكتبات في أوربا والولايات المتحدة • ففي التوبارخي ، او الضاحية الريفية ، قرب عاصمة المحافظة تملك هذه الاسرة مزرعه بها كروم ومراع ، فضلا عن حقول ينمو فيها القمح والمحاصيل الاخرى • هذه الأملاك كانت قريبة بما فيه الكفاية حتى ان سرابيون وفيما بعد أبناءه أمكنهم أن يمارسوا اشرافا مباشرا على العمليات اليومية بها • وكانت قطعانهم من الأغنام والماعز تزيد على ألف رأس ، باعوا منها مايزيد عن حاجتهم في مجموعات تتراوح أعدادها من دسته الى سبع دستات للمجموعة الواحدة • لقد كان هذا الجزء من نشاطهم يقدر برأس مال ١٥ ألف دراخمة • وبالنسبة للزراعة فقد امتد نشاطهم لأكثر من الأراضى التى كان يملكون فأجروا أرضا أخرى من آخرين • وفى عام واحد ، كما تظهر الوثائق ، حصدوا ٢٣٠ أرورة (١٥٦ أكر أو ٦٢ هكتارا) وهو ما يساوى من ٢٠ الى ٣٠ ضعف المساحة التى يزرعها الفلاح الصغير • وبالاضافة الى ذلك فان سيلين امتلكت ، وربما في الغالب عن طريق الميراث قطعة أرض فى المركز الواقع الى الشمال ، وبسبب البعد عن هرموبولس ، فقد فضلوا أن يؤجروا هذه المساحة الى مزارعين محليين وكانوا قادرين على أن يحصلوا على ايجار طيب وشروط مناسبة • وأخيرا فان وجود مبالغ نقدية متوفرة لديهم ، جعلتهم قادرين على تخصيص مبالغ للاقراض • وتتراوح قيمة القرض الواحد بين مائة ومائتى دراخمة • من كل هذه النشاطات تزايدت ثروة هذه الأسرة (٣) • ولكن لم يكن ذلك بغير ثمن فقد كان الابن الأكبر للأسرة والذى كان محاربا بالطبيعة ــ قد أصيب بشيخوخة مبكرة بسبب حالة عصبية غير قابلة للعلاج •

ولم يكن كل قروى يصيبه الثراء مشوقا للاقامة فى عاصمة المحافظة ، بل ان كثيرين وربما الأغلبية كانوا يفضلون البقاء حيث هم عمد المجتمع المحلى • يعيشون فى منازل تقارب منازل المدينة فى المساحة وبها ديكور مماثل ، وأعداد من العبيد • وكان الراغبون منهم قادرين على الوصول الى مستويات راقية من التعليم والثقافة : والا فكيف نفسر وجود نسخ من مؤلفات هوميروس وهزيود ويوربيدس وأفلاطون وغيرهم بين أطلال القرى ؟ • وعندما أرادوا مكنتهم ثرواتهم من أن يستأجروا راقصين وممثلين من عاصمة المحافظة :

---

(٣) هذه الوثائق الباقية نشرت مع تعليق مسهب فى
J. Schwartz, Les archives des sarapion et de ses fils, Caire, 1961.

« الى ايزيدورا Isidora ، راقصة الصاجات ، من أرتيميزيا ، من قرية فيادلفيـــا • اننى أرغب فى اســتئجارك مع راقصتين أخريين لنصاجات • لترقصن فى منزلى لستة أيام من ٢٤ من شهر بؤونة بالحساب القديم • وبالنسبة لأجرك فسوف تتسلمين ٣٦ دراخمة يوميا ، وبالنسبة لكل المدة أربعة أرادب من الشعير وعشرين زوجا من أرغفة الخبز ، وسوف نحفظ لك فى أمان أى ملابس أو حلى ذهبيــــة تحضرينها معك ، وسوف نمدك بحمارين لرحلة الاياب (من العاصمة) ومثلهما لرحلة العودة • التاريخ ١١ يونية عام ٢٠٦ » (٤) •

لقد كان عدد هؤلاء الرجال والنساء الأغنياء قليلا بالنسبة للتعداد العام لسكان القرية • ولكن الأغلبية كان تعيش فى مستوى يتيح لهـــا الحياة بالكاد • لقد كان الرجال والنساء والأطفال والحيوانات المستأنسة مكدسين فى أحياء ضيقة ومزدحمة • ونعرف مدى الزحـــام من كثير من الوثائق التى تسجل بيع أجزاء صغيرة من منازل $\frac{٤}{٥}$ منزل أو $\frac{١}{٦}$ منـزل فى احدى الحالات • وفى حالة أخرى $\frac{١}{١٠}$ أو حتى $\frac{١}{٢٤}$ من المنزل، وحتى فى المدينة تجد ١٧ من البالغين وسبعة أطفال يعيشون سوريا فى $\frac{١}{١٠}$ منزل •

كم عدد البشر الذين يعيشون فى قرية نمطية ؟ هذا هو نـــوع السؤال الذى لانستطيع الاجابة عليه اجابة قريبة من الدقة بسبب نقص المعلومات الاحصائية • وأفضل ما نستطيع هو أن نفترض بعض التخمينات معتمدين فى ذلك على بعض الأدلة • ففى عام ٩٤ م وفى قرية فقد اسمها تم احصـــاء ٦٣٦ رجـــلا خضعوا لضريبـــة الرأس أى تتراوح أعمارهم بين ١٤ و ٦٠ عاما • وهذا يعنى أن اجمالى السكان يبلغ حوالى ٣٠٠٠ • وفى سجلات ضرائب كرانيس لعام ١٧٢ ــ ١٧٣ م بلغ عدد البالغين الذكور دافعى الضرائب حوالى ألف وهذا يجعلنا نقدر مجموع سكان القـــرية ما بين أربعة آلاف وستة آلاف نسمة • وبالمقارنة فلدينا مادة علمية من فيلادلفيا القريبة تشير الى أن عدد السكان فى القرن الأول ربمـــا يقل بألف عن سكان كرانيس • وعلى العكس من هذه القرى الكبيرة هناك كفور كثيرة صغيرة • فنسمع عن كفر هرب سكانه ربما بسبب الطاعون الذى انتشر لعدة سنوات خلال حكم ماركوس أورليوس ، حيث ان عدد الرجال فى القرية تضاءل من ٢٧ الى ثلاثة ثم الى صفر • وفى كفر آخـر تضاءل العدد من ٥٤ الى أربعة ثم الى صفر (٥) •

---

(٤) P. Corn 9 = Select papyri 20.

(٥) W. Chr. 63, P. Mich. 224, Psi 101 and 102.

كيف كان طعام القروى ؟ كما هو الحال فى معظم المجتمعات الزراعية كان الأكل يتكون بصورة رئيسية من الكربوهيدرات التى يتم الحصول عليها أساسا من الحبوب والبقول التى ينتجهـا الفلاحون أنفسهم . بالاضافة الى ذلك ، النباتات البرية التى تنمو فى أحراش النيـل كانت مصدرا طول العـام لكثير مما يؤكل وتعتبر « أمانا من الحاجة للفقراء » على حد قول ديودور الصقلى . وكانت محاصيل الأحراش تضم اللوتس، وهى وجبة كانت تصنع كنوع من الخبز وأنواع من التـوت البرى تقدم كحلوى وتسلية . أما سيقان البردى فكانت هى أيضـا تؤكل مسلوقة أو مشوية أو تمضغ نيئة لامتصاص عصيرها ثم تلقى الفضـلات خارج الفم كما يفعل المصريون الى اليوم بالقصب وكما يفعل الصينيون باطراف البامبو . أما الدجاج ، ولحوم الحيوانات المستأنسة فكانت تقدم البروتين والدهن لمن يربيها أو من يمكنه دفع ثمنها . وهنـاك اشـارات للحليب واشارات أكثر للجبن . ويبدو أن السمك كان كثيرا فى النهر والبحيرات والقنوات وكذلك الطيور البرية مثل الأسماك فى المستنقعات . وكان هناك رسوم يجب أن تدفع للسماح بصيدها . ولكن التهـرب من دفع هذه الرسوم كان منتشرا . وهناك بردية من عام ٣١ م تسجل أن سمكا قيمته ٦٠٠٠ دراخمة قد سرق من بركة خاصـة . وهناك بردية أخرى من عام ١٦١ م ، تظهر ثلاثة رجال يدفعون ١٨٠ دراخمة للحصـول على حق الصيد فى مجموعة من البرك لمدة سبعة شهور . وسواء كان هذا باسلوب قانونى أو غير قانونى فمن الواضح أن نقودا كانت تجمع من التعامل فى السمك . ونحن نعلم من الوثائق المتوافرة أن بعض السمك كان يؤكل طازجا والباقى كان يحفظ للمستقبل بالتجفيف والتمليح . أما الشراب فكان هناك نبيذ العنب والبيرة المصنوعة من الشعير (٦) .

وبالنسبة لكميات الطعام المستهلكة : نقرأ فى حساب احدى المزارع أن الأجراء كان يدفع لهم أجورهم فى صورة رغيفين من الخبز يوميـا أى حوالى نصف كيلو للفرد . وفى دراسة لمصدر آخر يظهر أن كمية الطعام تختلف تبعا للسن والمنزلة ... الخ . وهى تتراوح بين ١٢٠٠ الى ٥٠٠٠ سعر حرارى فى اليوم . وفى وقتنا هذا نعتقد أن الرجـل الذى يزن خمسين كيلو جراما ويعمل عملا عضليا مرهقا كعامل زراعى يحتـاج الى حوالى ٢٢٠٠ سعر حرارى كحد أدنى لكى يستمر فى صـحة جيدة . وبالتخمين كان هنـاك كثـير من الفلاحين المصريين يزن الواحـد منهم

---

(٦) Diodorus, Hi torical Liberary, BKI, ch. 34.
I' Oxy. 2234; P. Turner 25.

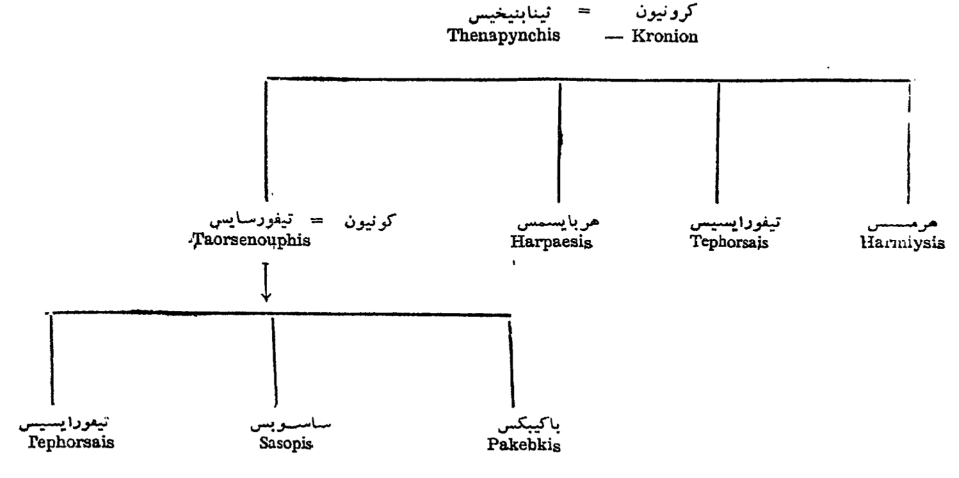
خمسين كيلو جراما أو أكثر ، ولكن عما اذا كان الواحد منهـــم يستهلك ٢٢٠٠ ســعر حرارى كل يوم فى نظـــام غذائى متوازن ، فان الأمر محل شـــك (٧) .

وماذا كان يلبس القرويون ؟ مثـل كل الفلاحين ، كان لدى من يستطيع منهم طقم واحد من الملابس الجيدة لكى يلبسها فى المناسـبات والاحتفالات • أما فى أيام العمل العادية فكانوا يكسون أنفسهم فى الأماكن العامة بقمصان وعباءات من تلك التى يلبسها سكان المدينة • ولكن على عكس سكان المدن كان الفلاحون يسيرون حفـاة أغلب الوقت • ونتيجـة لذلك ارتفعت نسبة أمراض الأقدام •

ان تبتينس Tebtynis وهى قرية تقع على الحافة الجنوبيـــة لمحـــافظة أرسينوى ، تعـــد واحدة من أهم المصـــادر الغنية للبردى اليونانى • ومن الكنـــوز التى عثر عليهـــا فيهـــا ، (وهى الآن فى جامعة ميلان الحكومية) مجموعة من ٦٩ وثيقة تنتمى الى شخص يدعى كرونيـــون Kronion وأسرته فى السنوات من ١٠٧ ــ ١٥٣ م • وهناك أيضا وثيقة تؤرخ من عام ٣٥ م فى جامعة متشجان يبـــدو أنها تنتمى الى والد كرونيون • وحيث أن هذه هى أفضل أسرة قروية موثقة ذات امكانات متواضعة فان من المناسب أن ننظـر فى أرشيف كرونيون هذا لنلم ببعض التفصيلات • وفيما يلى أولا شجرة العائلة :

---

(٧) بيانات الاستهلاك مستقاه من
T. Reekmans, Papyrologica Bruxellensia.


خيوس = تاورسنوفيس
Taorsenouphis — Cheos —
كرونيون = ثينابنيخيس
Thenapynchis — Kronion
كونيون = تيفورسايس
Taorsenouphis
هربايسمس
Harpaesis
تيفورايسيس
Tephorsais
هرمسس
Harmiysis
تيفورايسيس
Tephorsais
ساسوبس
Sasopis
باكيبكس
Pakebkis

وكانت أم خيوس تدعى تايسس Thaësis ابنــة بسوسنيوس Psosneus ولدت في العــام الخــامس ق ٠ م ٠ وكانت في ســن الخامسة عشرة فقط عندما ولدت خيوس (ولا نعلم اذا كانت قد ولدت اولادا آخرين أم لا ، وكان عمر خيوس ٤٢ سنة عندما ولد له كرونيون ، وهذا لم يكن شيئا غريبا في مصر : فهناك رجل آخر عمره ٦٩ عاما وله زوجة ثانية عمرها ٥٢ عاما ، كان لهما ابن في الثالثة من عمره ٠ لقد نتج عن زواج كرونيون من تاؤرسنوفيس خمسة أطفال ــ أو خمسة هم الذين بقوا أحياء وسجلوا في الأرشيف ــ ثلاثة أولاد وبنتان ٠ الولد الأول ولد عندما كان كرونيون في التاسعة عشرة وكانت زوجته في الخامسة عشرة ٠ والأولاد الأربعة الأخر ولدوا خــلال فترة تزيد عن عشرين عاما ٠ وهذه ايضــا لم تكن ظــاهرة نادرة : فالأوراق التى نشرت حديثا والخاصــة بسوتيرخــوس Soterichos الذى كان يعيش فى قريــة ثيادلفيــا Theadelphea فى القرن الأول ، تبين نفس الظاهرة ٠ فزوجته ولدت ابنها الأول عند سن الخامسة عشرة ، وابنهما الأخير ولدته وسنها ثلاث وأربعون سنة ٠ وحيث ان هذا المجتمع لم يكن يعرف وسائل السيطرة على الحمل فيبدو أن فترة الـ٢٨ سنة التى فصلت بين مولد الطفلين شملت اجهاضا وموت مواليد بين الأطفال فى سن مبكرة ٠ وهناك امرأة أخرى ولدت أطفالا على فترة أكثر من ٢٨ عاما وقد ظهرت فى احصاء للسكان (راجع الفصل الثامن) (٨) ٠

ونعود الى كرونيون وأسرته فقد تزوج كرونيون الابن وهو أكبر الأبناء من شقيقته تاؤرسنوفيس التى كانت تصغره بأربع ســنوات ٠ لا يوجد فى الأرشيف ما يدلنا عن أين وكيف عاشت هذه الأسرة ، أكثر من أنها كانت تعيش فى تبتينس أو احدى ضواحيها ٠ هناك ايصال يشير الى أن كرونيون دفع فى عام ١١٤ م مبلغ ٢٨ دراخمة لايجار منزل . وهو ما يدل على أنه حتى سن الخمسين من عمره لم يكن قد اقتنى مسكنا ٠ ونعرف من وثائق أخرى أن الثمانى والعشرين دراخمة كانت ايجارا سنويا للمنزل ، ولكن اذا كان الأمر كذلك فلا يمكن أن يكون المنزل كبيرا فاذا كان كرونيون قد اتخذه سكنا لكل أسرته فلابد أنهم عاشوا فى ضيق شديد ٠ ولكن هذا الزحام كما رأينا فى الفصل الثالث لم يكن أمرا غير عــادى ٠

لقد كانوا يملكون مساحة من الأرض ، وخلال السنوات استطاعت تاؤرسنفيس أن تشترى بما ادخرته أرضا جعلت مجموع ما تمتلكه الأسرة

---

(٨) العائلات الأخرى المشار اليها مذكورة فى
P. Lugd. Bat. V col. V = P. Brue. 5 and P. Soterichos.

١٧ أرورة (= ٥ر١١ أكر = ٥ر٤ هكتارا) . ولكن يبدو أن الأسرة عانت من قلة انتاج هذه المزرعة الصغيرة . ولذلك زرعت قطعا اضافية من الأرض بالايجار . لقد كان عماد دخل هذه الأسرة في الحقيقة مزرعة مساحتها ٢٥ أرورة أجرتها من صاحبها الغائب لمدة أربعين سنة متصلة أو يزيد . ولاستغلال هذه المزرعة كان عليهم أن يسافروا عشرة كيلومترات أو يزيد من تبتينس . ولابد أنهـا كانت أرضـا شـديد الخصوبة أو أنهم أجروها بشروط ميسرة جدا والا لما استمرت هذه الأسرة متمسكة بها عاما بعد عام رغم بعد المسافة . وبالاضافة الى هذه الخمس والعشرين أرورة فان هذه الأسرة من وقت لآخر كانت تؤجر مسـاحات أصغر من الأراضي تتراوح مساحتها بين ٥ر٢ الى ١٢ أرورة .

وفيما عدا عددا قليلا ممن تمتعوا بالثراء فان الحياة في القرية المصرية ارتبطت ارتباطا وثيقا بالاقتصاد الطبيعي — نظام المقايضة . وبالنسبة للضرائب والالتزامات الأخرى التي كان من الضروري دفعها نقدا . فان كرونيون وأمثاله كانوا يعانون من ضيق ذات اليـد ويتجهون للقروض القصيرة الأجل . ولذلك فليس مستغربا أن نجد أن ١٩ من الـ٦٩ وثيقة خاصة بأرشيف كرونيون تتصل بقروض أخذها من واحد أو آخر من ميسوري الحال . وقد تراوحت هذه الديون بين ٤٥ دراخمة الى ٢٧٣ دراخمة . وهناك أيضا ديون عينية مثل عشرين أو أربعين أو خمسين أردبا من الحبوب . ومثل هذه القروض كانت تسدد عادة في وقت الحصـاد بفائدة ٥٠٪ (٩) .

ومن خلال النشاطات والتدابير الموضحة بعاليه كانت أسرة كرونيون قادرة على الحياة في مستوى وسـط بين الفقر المدقع والحياة السهلة — وهو مستوى فرض على سبيل المثال على رجال الأسرة المساهمة بالقليل جدا في النفقات العامة في القرية وهو التزام لم يفرض على الطبقة الأكثر فقرا من السكان (انظر الفصل الثامن) . وكما هو متوقع فان هذا الأرشيف يعطينا بعض ومضـات عن الحياة الخاصة لأفراد هذه الأسرة . فنحن

---

(٩) ونلاحظ ذلك أيضـا في حـالة سوتيوخوس Soterichos من ثيادلفيـا Theadelphia والذي عرفنا عنه من أحد المطبوعات الحديثة جدا . وكما لاحظ ناشر هذا الأرشيف (في ص ٢٢) فان سوتيرخوس كان يدبر حاله يوما بيوم . وأنه استطاع بصعوبة أن يكون لديه أي احتياطي . هذا كان بالضبط حال المزارع في ذلك الوقت . ولكن هذا لم يجعله فقيرا بمقياس عصره . وقد كتب أحد المفتشين أن « سوتيرخوس كان مستأجرا بصفة رئيسية ولم يكن مالك أرض . ويبدو أنه كان باستمرار مدينا برأس المال الذي احتاجه لمغامراته في الفلاحة . وعند موته خلف ديونا كثيرة استغرقت من ارملته وأولاده سنوات عديدة ليسددوها .

نكتشف انه بعد انجاب ثلاثة أبناء واستمرار الزواج لمدة ٣٠ سنة طلق كرونيون الابن تاؤرسنوفيس . وعقد الطلاق الذى نورده فيما يلى يذكر أن الزواج قد تم بدون وثيقة مكتوبة . ومن المفهوم أن الارتباط بين زوج أخ وزوجة أخت كان يتم مع الاستغناء عن التوثيق المعتاد للحقوق مثل الدوطة وما اليها . ولكن فى العادة كان الزواج حتى من هذا النوع يحتفل به ويسجل بتوثيقه .

فى ١٣ يونيو عام ١٣٨ قسم كرونيون أملاكه على النحو التالى : (التاريخ) فى تبتينس فى قسم بوليمون Polemon من اقليم أرسينوى يعلن كرونيون بن خيوس (بن هارميسيس) وتاؤر سنوفيس من قرية تبتينس والذى يبلغ من العمر حوالى ٧٥ سنة وله ندبة فى يده اليمنى . (يعلن) أنه بعد موته قد كتب (أملاكا) الى أولاده من زوجته المتوفاة ثينافينخس ابنة باثينس Pathynis وهم بالاسم أبناؤه هارميسس وهارفيسس وأيضا الى توفورسايس Teophorais القاصر ، وهى ابنة ابنه كرونيون الأصغر وتاؤرسنوفيس (كتب) الى الثلاثة كورثة كل ما يتركه كرونيون الأكبر من ورائه أو أى شىء يتركه أعنى الأثاث (و) الأدوات (و) المهمات المنزلية الخ وكل الديون التى له وكل شىء آخر مهما كان نوعه ، لكل منهم الثلث . ولأبناء كرونيون الآخرين ، كرونيون الابن وتاؤرسنوفيس وتفورسايس Teophors كما يلى : ترك لكرونيون (الابن) فقط ٤٠ دراخمة فضة لأن كرونيون الأب ، كما أوضح قد عانى كثيرا من الأضرار على يديه خلال حياته . وخصص لابنتيه تاؤرسنوفيس وتيفورسايس هدية مائة (؟) دراخمة من الفضة لكل واحدة بالاضافة الى الحلى الذهبية والفضية والملابس التى يؤكد انه قدمها لهما . الثلاثة الورثة هارميسس وهارفيسس وتوفورسايس القاصر سوف يهتمون بجنازة ودفن الموصى كرونيون وكذلك بدفع تكاليف ما سبق ذكره من مهام أو ديون خاصة أو عامة تظهر حياله . ولكن طالما بقى الموصى كرونيون على قيد الحياة فانه يبقى صاحب سيطرة كاملة على أملاكه لكى يديرها كيفما يشاء (توقيعات وأختام كرونيون (الأمى ـ وكتب له بعضهم) وستة شهود وتأشيرة مكتب التسجيل فى تبتينس) (١٠) .

فى الوثيقة السابقة شىء مؤثر وان كان محزنا ، فالاخطاء التى ارتكبها كرونيون الابن تمت الاشارة اليها كتبرير لتقليل نصيبه من التركة وان لم تذكر هذه الأخطاء بالتفصيل اذ أن تضمين الوثيقة خصوصيات سوف يؤدى الى (نشر الغسيل القذر للأسرة) على العامة . والأخطاء التى

---

(١٠) P. ril. Vogl. 84 = P. Kronion 60.

عوقب عليها كرونيون الابن يبـدو أنها كانت متصلة بتطليقه لزوجتـه تاؤرسنوفيس • وهو الطلاق الذى تم تسجيله بعد الوصاية بأحد عشر أسبوعا فى ٣٠ أغسطس : « صـورة اتفاق • (التاريخ) فى تبتينس فى قسم بوليمون من اقليم أرسينوى • كرونيون بن كرونيون ، عمـره حوالى ٥٤ عاما ، وله ندبة على الساعد الأيسر ، وزوجته حتى الآن ، التى هى فى نفس الوقت أخته ولدت لنفس الأب ولنفس الأم تاؤرسنوفيس ، حوالى خمسين سنة وليس بها عـلامات مميزة ـ ووليها الشرعى أبوهما كرونيون بن خيوس ويبلغ من العمر حوالى ٧٦ سنة وله ندبة فى يده اليمنى ـ يعلنان باتفاق الطرفين أنهما قد فسخا الزواج الذى تم بينهما بدون وثيقة مكتوبة ، وأن كلا منهما أصبح حرا فى تصريف أموره الخاصة كما يشاء • وأن تاؤرسنوفيس لها الحق فى أن تتزوج رجلا آخر دون أى اعتراض • والحلى وهى وزن مينـا (واحدة) وعشرة أرباع من الذهب و٢٨ ستاتر من الفضة التى يقر كرونيون أنه تسلمها من أخته تاؤرسنوفيس والتى حولها الى نقـود سـائلة لصـالحه ـ فان على كرونيـون أن يعيدها لأخته تاؤرسنوفيس بما يقابلها جواهر خلال ستين يوما من اليوم • وتاؤرسنوفيس المذكورة لها حق التنفيـذ القانونى على أخيهـا كرونيون وكل ممتلكاته • وبالنسبة للأشياء الأخرى بهذا الزواج فان كلا منهما ليس له أن يطالب الآخر بشىء فى أى ظروف وعلى الأخص فان كرونيون لن يطالب تاؤرسنوفيس بأية ممتلكات اشترتها حيث انها دفعت الثمن من أموالها الخاصة • وباختصار يسرى ذلك على أى شىء مكتوب أو غير مكتوب الى اليوم • أما الأولاد الذين ولدوا لهما فهم الابناء ساسوبيس Sasopis وباكبكس Pakebkis والفتاة تفورسايس » (١١) •

ومن وثيقة أخرى مؤرخة بعد ذلك بشهرين نعلم أن كرونيون كان يعمل لعدة سنوات كمراقب عمال عند سيدة تملك ثروة لا بأس بها فى الجوار • وبقراءة ما بين السطور نعرف أن أصل الاضطراب الأسرى عند كرونيون كان بسبب قصة غرام بينه ـ وكان قد بلغ الرابعة والخمسين من عمره ـ وصاحبة العمل وكانت فى الخامسة والأربعين •

فلنترك أسرة كرونيون لمسراتها وأحزانها لكى نسجل بعض عناصر الحياة فى القرية • ان الأفراد مثل أولئك الذين استأجر منهم كرونيون

---

(١١) P. ril vogl. 85 = P. Kronion 52.

وقد تم الحساب على أساس ان أوزان الذهب والفضة المذكورة تساوى ما يزيد عن تسعمائة دراخمة ، وكما رأينا (فى الفصل الثالث) فان بائنة الفتيات من سكان عواصم المحافظات كانت تساوى أضعاف هذه الكمية عدة مرات •

بعض الحقول لزراعتها ، يمتلكون معا نسبة ضئيلة من الأراضى الخصبة . واستمرت المعابد تملك بعض الأراضى حيث ان أملاكها التى كانت ذات يوم واسعة جدا خفضها أغسطس بقسوة . وأما معظم الأراضى الواسعة من كل نوعيات الخصوبة والانتاجية فكانت تخص اما الدولة أو شخص الامبراطور . وفى المائة سنة الأولى من الحكم الرومانى نلاحظ أن عددا قليلا من الأسرة الامبراطورية والبلاط - كمـــا كان الحال بالنســبة لأثرياء الاسكندرية - وجدوا فى تملك الأراضى الزراعيـــة فى مصر استثمارا ذا عائد مرتفع . ولكن قبل نهاية القرن الأول الميلادى ذهبت هذه الضياع المملوكة للأفراد كلها الى ملكيه الامبراطور بطريق أو آخر . وقد استمرت هذه الأراضى تعرف لما يزيد عن القرن بأسماء مالكيها السابقين مثـــل مايكيناس Maecenas وأنطونيا Antonia وسنيكا Seneca وغيرهم . وكانت حياة القرويين مرتبطة بأراضى الدولة وأراضى الامبراطور .

ان أراضى الدولة (وهى التى تحدد رسميا بأنها « عامة » أو « ملكية » (والمصطلح الأخير واحد من مصطلحات ما قبل الرومان) كانت تدار تحت اشراف المسئولين فى عواصم المحافظات والمحليات ، وهم الذين كانوا يعرضونها للايجار دوريا لمن يدفع أكثر . وهؤلاء الذين استأجروا هذه الأراضى كونوا طبقة « الفلاحين الحكوميين » . وعادة كانوا يزرعون الأراضى بأنفسهم ، ولكن كان يمكنهم أن يؤجروها من الباطن ان أرادوا . وكان عليهم قبل أن يحصلوا على حق الايجار أن يقدموا للدولة ما يكفى من الضمانات . ومن المحتمل أن هذه كانت فى شكل سند ، وحيث ان قليلا من الفلاحين كانت لديهم القدرة على وضع ضمانات نقدية فكان المعتاد تقديم قائمة أصدقاء كضامنين .

كان نظـار الزراعة المعينون مســئولين عن العمل فى الضــياع الامبراطورية . وفى بعض الأحيان كان عليهم أن يؤجروا أجزاء من الضيعة أو حق استغلال مصدر من مصادرها الى الفلاحين الأفراد ، الذين كانوا عندئذ يميزون باعتبارهم « فلاحى الضيعة » أو « فلاحى الامبراطور » . وفى أوقات وأماكن أخرى كان نظار الزراعة يفضلون أن يطبقوا النظام الذى طبق فى الضياع الامبراطورية الكبيرة ، وعلى وجه الخصوص فى شمال أفريقيا . وفى هذه الحالة كانت الضيعة تؤجر كاقسام كبيرة لعدد محدود من رجال الطبقة الوسطى . وهؤلاء كرجال أعمال يملكون المال كانوا يؤمنون للادارة دفعة مقدمة من قيمة عقود الايجار والضرائب ، وفى المقابل عليهم أن يتوقعوا تحقيق أرباح مجزية من خلال تأجير ما استأجروه - كقطع صغيرة لأفراد من « فلاحى الضيعة » و المثال التالى لهذا النظام من التأجير من الباطن كتب فى ١٠ أكتوبر عام ١٢٠ م .

« من بتيخون Petechon بن هاريوس Hareos الى هارمياس Hermias ابن سابوريون Sabourion تحياتي . لقد أجزت منك للعام الحالي (وهو العام الخامس من حكم مولانا هدريان قيصر ، لزراعة الخضروات ، ثلاث أرورات من أرض الضيعة الامبراطورية التي في يدك بالايجار وكانت في التقسيم السابق لأبولونيوس Apollonios بن أجاثينوس Agathinos وذلك مقابل ثلاثة أرادب بمكيال صناع الزيت لكل أرورة مما يظهر على خريطة المساحة عند مراقب الضيعة ، أعني : القطعة التي زرعها في العام الماضي وهو الرابع من حكم مولانا هدريان قيصر فينيون Phinion ابن توثيس Tothes وسوف أدبر الايجار في شهر أبيب Epeiph وعندما تحمل النصف الخاص بك من الجرن فسوف يكون جديدا نقيا ، غير فاسد ، مغربلا ومكيلا بالأردب Seven-metra الخاص بالالهة أثينا . والمستخدم في الضيعة . وسوف تبقى أنت مسئولا عن دفع الايجار للضيعة (التاريخ) أنا ديوسكورس Dioskoros (١) بن ديديموس Didymos كتبت هذا بدلا عنه لأنه أمي (١٢) » .

وبالاضافة الى هذا فان الدولة والامبراطور كملاك أراض كانوا يحصلون على مميزات معينة وقوة لم تكن متاحة للملاك الأفراد . فمن ناحية أية مطالب لهم ضد الحائزين بسبب الاهمال أو التأخير في دفع الايجار كانت لها أولوية على كل الديون الخاصة . وقد تبقى بعض الحقول بدون ايجار حتى اقتراب موسم بذر الحبوب . وهو ما كان يحدث تقريبا في كل عام بسبب أو لآخر كانعدام الخصوبة أو بعد المكان أو غيرهما ، وكان المالك الفرد في هذه الحالة يحاول أن يستأجر أحدا لكي يزرع له الحقل ، أو يحاول اغراء مزارع بتخفيض الايجار . واذا أخفق في عقد مثل هذا الاتفاق ، كان عليه أن يوطن النفس على رؤية الأرض بورا في ذلك العام . ولكن أراضي الدولة والامبراطور كانت محصنة ضد هذا المصير . ففي مثل هذه الحالات فان الدولة ببساطة تفرض على الأراضي الخاصة في الجوار التزام نسبي لزراعة أروراتها البور . ولذلك صار أمرا طبيعيا في اجراءات نقل الملكية أن يتم التأكد من أن الأرض موضوع العقد ليست عليها مثل هذه الارتباطات . وعندما كان الأمر يتعلق بمساحات كبيرة جدا من أرض الدولة — الأمثلة المعروفة تتراوح بين ٢١٠ و ٨٥٩ أرورة (٥٨٤ آكر أو ٢٣٦ هكتارا) — كانت هذه الأراضي تفرض كليا أو جزئيا على القرية أو القرى المجاورة وكانت هذه الأخيرة مطالبة بتدبير قوة العمل

P. Ryl. 168. (١٢)

L-R II, p. 185. وهناك امثلة اخرى موجودة في

التى يطلبها الموظفون المحليون . وما هو أكثر من ذلك أن الأرض محل الأمر عندما تكون بعيدة جدا أو متسعة جدا لدرجة أن الرجـال المكلفين لا يستطيعون اتمام زراعتها بينما يعيشون فى بيوتهم ، فان قوة العمل المسخرة كان تنتقل لمكان العمل وتبقى هناك . وليس لدينا معلومات حول كيفية تسكينهم فى مكان العمل . ولكن يبدو من المأمون أن نتصور أنهم كانوا يعيشون فى أكواخ تقام لهم فى الضيعة أو فى مساكن بدائية بالقرب من هنـــاك .

فى أغلب الحالات المعروفة (وقد جمعت دراسة حديثة ما يقرب من ٥٠ حالة) فان المسافات بين القرية التى جاء منها العمال والموقع المحدد للعمل لم تزد عن عشرة الى اثنى عشر كيلو مترا . وهى مسافة ـ كما رأينا سابقا ـ كان رجال أسرة كرونيون على استعداد أن يقطعوها عاما بعد عام من أجل أن يزرعوا حقلا . ولكننا رأينا أيضا عمالا من سكنوبايونيسوس Seknopaiou Nesos فى باكخياس ، على بعد ٣٢ كيلو مترا . وفى حالتين أخريين وصلت المسافة الى أربعين كيلومترا . بعض الوثائق أيضا تعطينا معلومات عن أعداد الرجـال المكلفين والأرورات المحددة للزراعة المخصصة كما يلى :

التاريخ	عدد الرجال	المساحة المزروعة	المسافة كم
٧٠ م	٣ فلاحين عموميين	١٩ أرورة	٣ أو ٤
١٠٠ ـ ١٠١ م	٢ فلاحين ضيعة	٥١ أرورة	٣ أو ٤
١٤١ ـ ١٤٢ م	٢ فلاحين عموميين	١٣ أرورة	٦ أو ٧
١٥٣ : ١٥٤ م	٣ فلاحين ضيعة وعموميين	٣٧ أرورة فى أربع مناطق	٥ أو ٦
٢١٥ م	٢١ فلاحا عموميا	٩٣ أرورة	١٠ أو ١٢

وبالنسبة لنقل العمال فهـو حقيقـة مؤكدة ، ولكن معلوماتنـــا عن الأعداد نادرة . وهنـــاك وثيقـة من عام ٢١٣ ـ ٢١٤ م تحـكى أن ستين رجلا نقلوا الى قرية منديس Mendes ؛ ولكن السـجل المحفوظ غير كامل ولا نعـترف من أين جلب هؤلاء . ان المثـــال الواضـــح يرد فى بردية طويلة خاصة بالضرائب فى عام ١٦٧ م بخصوص مساحة واسعة تبلغ ٢٤٥٩ أرورة (= ١٥٧٢ اكر أو ٦٧٦ هكتارا) من أرض الحكومة وأرض الضياع فى بطوليميس نيا Ptolemais Nea منها ٨٥٩

اروورة أى أكثر من ثلث المساحة الكلية ـ فرض على كرانيس أن تزرعه . والباقى كلف به ملاك الأراضى فى كل من بطوليميس نيا نفسها وعاصمة المحافظة . وعلى الرغم من أن كرانيس وبطوليميس نيا كانتا جارتين ، لا تزيد المسافة بينهما عن ٦ الى ٨ كيلومترات ـ فان ٤٤ رجلا نقلوا من كرانيس لكى يقوموا بالعمل فى بطوليميس نيا . ومما لا شك فيه أن ذلك كان راجعا لمساحة الأرض نفسها (١٣) .

واذا جمع مثل هذا النقل القهرى الى حالات الغياب لأسباب أخرى فانه يمكن أن يفقد القرية فى أى لحظة ما يتراوح بين ٢٠ الى ٣٠٪ من ذكورها البالغين . وبالنسبة للباقين فان الأغلبية كانت بعيدة عن القرية أثناء النهار ـ لعمل أغلبهم فى الحقول ولارتباط البعض فى نقل بضائع أو أشخاص . وهكذا تبدو القرية للزائر الغريب ناعسة تشوى فى الشمس المحرقة . ولكن هذا الوهم سرعان ما يتبدد عندما يدخل القرية ويجد نفسه محاطا بنشاط من كل نوع ، الحرفيون يعملون والأطفال يلعبون أو مشغولون فى المساعدة فى أعمال منزلية ، والزوجات فى أشغالهن أو يثرثرن . وبعض المشاحنات تثور فجأة بسبب أضرار حقيقية أو مفتعلة . وفى خلفية الصورة لص يحاول أن يقوم بسرقة سريعة ويهرب مستغلا ضوضاء القرية وانشغال النـــاس .

وتظهر جرائم الخسة والعنف بوضوح فى أوراق البردى ، وبالطبع كان أسهل الضحايا هم النساء والمسنين والعجزة (الأمثلة تظهر بوفرة فى الفصول التالية) . كان المصريون فى نظر الرومان مدانين بأنهم مجتمع غير مستقر وغير خاضع للقانون ، ومازال هذا الرأى يحظى بقبول أكثر من كاتب حديث . ومع ذلك ، لا يوجد مبرر واحد يجعلنا نفترض أن الحياة القروية المصرية كانت تتسم بالجريمة أكثر من أى بقعة أخرى على سطح الأرض . ولو كان لدينا كميـــات كبيرة من أوراق البردى من الأقاليـــم الرومانية الأخرى لكان من المتوقع أن نجد صورة مشابهة هناك . ان النسبة العادية من الجشع الانسانى تشكل دافعا عاما لارتكاب الأعمال غير المشروعة خصوصا كلما اشتد الفقر .

ويوجد فى مكتبة جون ريلاندز John Rylands بمانشستر ، مجموعة تتكون من ٢٨ شكوى من الأعمال الاجرامية حفظت بملفات بين

---

(١٣) الوثائق الرئيسية هى
SB 7528, P. land 27, P. Hamt. 65, P. Phil. 15, CPRI 33, BGU 618, and P. Bour. 42.

واحدى الدراسات الهامة بالموضوع هى التى قام بها G. Poethke .
G. Poethke, Papyrologica Bruxellensia 8 (1969).

عامی ٢٨ و ٤٢ بأمر من رئيس بوليس قرية ايوهميريا Euhemeria من محافظه أرسينوى Arsmoi تضم سبع شكاوى عن عنف جسدى وثلاثة كسر واقتحام وسبع عشرة شكوى عن سطو وسرقة وثمانى شكاوى تتعلق باتلاف محاصيل بسبب تعدى مواشى تخص الغير.وبعيدا عن أهمية هذه الشكاوى من الناحية الانسانية فهى والتقارير الأخرى من مختلف المواقع تعطينا لمحات حية عن العلاقات الشخصية والاجتماعية فضلا عن الظروف الاقتصادية فى القرن . وفيما يلى بعض الأمثلة المختارة من بين البرديات المنشورة :

« الى سيرابيون Serapion رئيس الشرطة من أورسنوفيس Orsenouphis بن هاربيسس Harpaesis شيخ قرية يوهميريا Euhemeria التى تقع فى قسم ثيمستس Themistes . فى شهر مسرى فى السنة الرابعة عشرة من حكم تيبيريوس قيصر المبجل (٢٨ ميلادية) . بينما كان البناء بيتسوخوس بن Petesouchos بيتسوخوس يقوم بهدم جدران قديمة من عقار لى ـ وكنت قد تركت القرية لأحضر بعض المؤن ـ وجد كنزا كانت أمى قد قامت بوضعه سرا فى صندوق صغير فى السنة السادسة عشرة من حكم أغسطس قيصر (١٥ ق.م) وهو عبارة عن زوج من الحلقان الذهبية وزنه ٤ أرباع ، وهلال ذهبى يزن ثلاثة أرباع ، وزوج من الأساور الفضية وزن ١٢ درهما وعقد مزين بالفضة يساوى ٨٠ دراخمة ، هذا بالاضافة الى ٦٠ دراخمة من الفضة . ثم غافلى مساعديه ورجالى وقامت ابنته بناء على أوامر منه بحمل اللقية الى منزله . وقامت بتفريغ الأشياء المذكورة آنفا وحينئذ أعاد الصندوق فارغا الى منزلى ، وهو يعترف بأنه وجد الصندوق ولكنه يدعى أنه كان فارغا . وبناء على ذلك أطالب ، بعد اذنكم ، بمثول المتهم أمامكم ليواجه تبعات عمله ، وداعا .

الى رئيس المئة من سوتيرخوس Soterichos بن ثيون Theon من قرية تبتينس Tebtynis : قام بعض الأشخاص باقتحام منزلى فى القرية فى الليلة السابقة للثانى والعشرين من هاتور الحالى (أعنى : اليوم) منتهزين فرصة نومى بعيدا عن المنزل نظرا لوفاة زوج ابنتى . (وتمكنوا من الدخول) بازالة المسامير من الأبواب واستولوا على كل ما فى منزلى . وسوف أقدم قائمة مفصلة بما استولوا عليه عند الطلب . ولذا فاننى أقدم هذا الطلب ، وأطالب بالتحرى بمعرفة السلطات المختصة حتى يتوفر لى النجدة من طرفك (التاريخ ١٨ نوفمبر عام ١٧٦ م) .

الى هيراكس Hierax الشهير نيمسيون Nemision ، استراتيجوس اقليم أرسينوى ، قسم هيراقليديس . من جميللوس Gemellus الشهير ايضا بهوريون Horion بن جايوس أبولنياريوس G. Apolinarius الانتينويتى Antinoite . سيدى ، لقد لجأت بالشكوى الى ألمع حاكم

لمصر أميليوس ســــاتورنينوس Amilius Saturninus لكي أبلغه
عن الهجوم الذى وقع علي وقام به سوتاس Sotas الذى ســـخر منى
لضعف بصرى · وخطط للاستيلاء لنفسه على ممتلكاتي عن طريق العنف ·
وقد تقيت الكتاب المبجل (للوالى) يعطينا فيه تعليمات باللجوء لسعادة
الابيستراتيجوس · ولما كان سوتاس قد مات في غضون ذلك فقد قام أخوه
جوليوس Julius بالاستيلاء على بعض الحقول التى زرعتها مستخدما في
ذلك العنف المعروف عنه ، كما قام بحمل كمية لا بأس بها من التبن ·
وليس هذا فقط ولكنه أيضا قام بقطع وسرقة بعض شتلات الزيتون الجافة
وبعض النباتات المورقة وذلك من بســتانى الذى يقع بالقرب من قريــة
كيركيسوخا Kerkesoucha · وقد علمت بذلك عند وصولى هنا في
موسم الحصاد · ولم يكتف بذلك فعاد مرة أخرى الى أرضي وكان بصحبته
في هذه المرة زوجته وشخص يدعى زيناس Zenas وأحضروا معهم رمز العين
الشريرة · عازمين على احاطة مستأجر مزرعتي بالسحر الأسود ، مما أدى
الى تركه للعمل بالمزرعة بعد أن حصد (فقط) جزءا من حقل آخر خاص
بى · وقاموا هم بحصد المحصول لأنفسهم · وبعد ذلك واجهت جوليوس
Julius بنفسي وكان معى مسئولو القرية ليكونوا شهودا · ومرة أخرى
وبنفس الطريقة قام معاونوه بتصويب العين الشريرة نحوى ، عازمين على
أن يحيطونى أنا الآخر بالسحر الأسود · وكان ذلك في وجود بتيسوخوس

Petesouchos وبتوللاس Ptollas شيخي كرانيس وهمــا يشغلان
أيضا منصب كاتبي القرية · وفي حضور سوكراس Sokras مساعدهما ·
وبينما كان المسئولون ما يزالون هناك أخذ جوليوس رمز العين الشريرة ،
والمحاصيل الباقية من الحقـول وحملهـا بالقوة الى منزله · ولقد قمت
بتسجيل أعماله هذه من خلال الموظفين المذكورين آنفا ومن خلال جباة
ضرائب الحبوب في القرية المذكورة · ولذا أقوم بتقديم هذه العريضــة
مطالبا بحفظها في ملف ، وذلك للحفاظ على حقي ضــدهم أمام فخامة
الابيستراتيجوس ، نظرا لما ارتكبوه من أعمال العنف ولتحصيل ضرائب
هذه الحقول لصالح بيت المال الامبراطورى حيث انهم قاموا ظلما وعدوانا
بجنى المحصـــول ·

(التوقيع ــ ٢٢ مايو سنة ١٩٧ م) ·

الى أبوللونيوس Appollonios استراتيجوس اقليم أرسينوى من
تونيس Thouonis بن أكوسيلاوس Akousilaos من قرية أريس Ares
فى قسم بوليمون Polemon · (بالأمس) بينما كنت أصفى حساباتى
مع بنتنتس بن بنتيتس Bentetis وهو راع من قرية اكسيرنخــا
Oxyrhyncha التى تقع بالقســم المذكور فيما يتعلق بالديون التى لى

عنده ولما كان المذكور لا يريد الدفع وانما يريد خداعى فقد أساء معاملتى أنا وزوجتى تانورس Tanouris ابنة هيروناس Heronas وذلك بقريتنا قرية أريس المذكورة وليس هذا فحسب بل قام أيضا بتوجيه الضربات المبرحة بلا رحمة الى زوجتى تانورس على الأجزاء التى استطاع الوصول اليها من جسدها بالرغم من أنها حامل مما أدى الى اجهاضها ونزول الجنين ميتا ٠ وهى الآن طريحة الفراش وحياتها فى خطر ٠ وبناء على ذلك أرجو أن تكتب الى كبار أكسيرنخا ليرسلوا المتهم اليكم ليواجه عاقبة فعله (التاريخ ٢٤ نوفمبر عام ٤٧ م التوقيع) (١٤) ٠

ولكن ليس من العدل لأناس عملوا بجد وقاسوا طويلا أن ننهى هذه النظرة الى حياتهم القروية عند تلك الملحوظة التى تصيب النفس بالكآبة لقسوة الانسان على أخيه الانسان ٠ فحقيقة وجود مجتمع تعنى بالضرورة وجود ألفة بين الجيران ، والمجتمع المنظم لا ينمو بطريقة أخرى ٠ واذا كانت السجلات الموجودة تزخر بأمثلة عن العنف والظلم أكثر مما تزخر بأدلة عن الانسجام والتعاون فان هذا ما هو الا تأكيد لصحة المثل القائل بأن ما يقترفه الناس من شر يخلفهم ٠ ومع ذلك فان العطف الذى تتسم به الطبيعة البشرية لم يتوقف تدفقه رغم صعوبة الحياة فى القرية المصرية ٠ ففى الخطاب التالى الذى كتب فى وقت ما من القرن الأول نرى رجلا يتوسل الى أبيه من أجل العناية بزوجة صديق حامل حيث انها تقترب من شهر المخاض فى غياب زوجها ٠

« ٠٠٠ الحضور عبر النهر لكى يتوسل اليك لتعتنى جيدا بزوجته ٠ ولكن ليست لديه فرصة (لعمل ذلك) حيث ان مكتب الأورابارخ Arabarch أخره وهو الآن على وشك حل (مشكلة) ميراثه ــ حقيقة كان على وشك أن يرسل أخاه فى قارب سريع للتوسل اليك ، حيث انه مشغول جدا ٠ ولكن قلت له « دعنى ، سوف أرسل لوالدى أولا عن خصوصيات وضعها ، وثانيا عن غيابك الاضطرارى » ٠ ولذا أرجوك يا والدى اذهب اليها قرب نهاية أمشير أو منتصف برمهات Phamenoth حتى تكون هناك قبل أن يأتيها المخاض ٠٠٠ وكل شىء تم اعداده لولادتها ٠٠٠٠ ولذا من فضلك يا والدى ٠٠٠ (الباقى مفقود) ٠

---

(١٤) هناك راى مطابق لوجهة النظر الرومانية عن « الشعب المدمن للشغب » كوصف للشعب المصرى نجده مذكورا فى :
J. G. Winter, Life and Letters in the Papyri, p. 113.

اما الشكاوى المذكورة فى نصوصنا فماخوذة من :
P. Ryl. 125 = Select Papyri 278, P. Mich. 421, BGU 22, P. Teb. 332, and P. Mich. 424 and 228.

وهناك مثال آخر وجه الى قائد مئة (انظر الفصل الثامن ، وراجع أيضا الفصل السادس ٠

ويتضمن الخطاب التالى عواطف دافئة وهو مكتوب فى القرن الثانى .

« من أبوللونيوس Apollonios وساربياس Sarpias الى ديونيسيا Dionysia تحيـــاتى : لقـــد غمرتنـا الفرحة باعلانكم الأخبار السعيدة عن زفاف ابنكم العزيز سرابيون Sarapion . وكان علينا أن نأتى مباشرة فى ذلك اليوم ، الذى طال اشتياقنا له ، لكى نخدمه ونشارككم فرحكم . ولكن نظرا للجلسات السنوية وكذلك لاننا مازلنا نتماثل للشفاء من المرض فلن نتمكن من الحضور . ان الأزهار ، لم تتفتح تماما هنا ـ وفى الحقيقة هى نادرة ـ ولذلك لم نتمكن ـ من كل المشاتل وبائعى الزهور ـ الا من الحصول على ألف وردة أرسلناها لكم مع ســارباس Sarapas بما فيها الورد الذى كان لا يجب قطفه قبل الغد . كما جمعنا كل ما تحتاجون من النرجس حتى اننا أرسلنا أربعة آلاف بدلا من الألفين اللذين طلبتموهم . اننا نود ألا تظنوا بنا الظنون وتسخروا منا بكتابتكم أنكم أرسلتم الثمن (الزهور) بينما نحن ننظر الى أولادكم باعتبارهم أولادنا ، وتقدرهم ونحبهم أكثر من حبنا لأبنائنا . وكذلك فنحن سعداء جدا مثل سعادتكم وسعادة أبيهم (التحيات المعتادة) » (١٥) .

ويعد قراءة هذه الخطابات التى تنم عن الصداقة والاهتمام . قد تنتابنا الدهشة عندما نعلم أنه من بين آلاف الخطابات الخاصـــة التى نشرت ، فان خطابات التعزية قليلة ومتعلقة بموت الأطفال . ومن الواضح أن وفاة البالغين ، سواء من الصغار أو الكبار ، كانت تمثل جزءا روتينيا من ظروف الحياة لدرجة لا تتطلب تعليقا خاصـــا ، حتى من الناحيـة الشكلية . وخطابات التعزية الموجودة صياغتها اللغوية رنانة . واحدة من أبرز هذه الرسائل من عاصمة المحافظة ولكن أفكارها العاطفيـــة ليست قاصرة على الاطلاق على مجتمع عاصمة المحافظة . أرسلت هذه الرسالة فى الرابع عشر من ديسمبر عـــام ٢٣٥ الى مواطن بارز من اكسـيرنخوس : (الحروف السوداء تشير الى العبارات النمطية) .

« من Minesthianus الى أبوللونيـــانوس Apollonianus وسبارتياتى Spartiate (زوج وزوجـة) ، **كونوا شـجعانا ! الآلهـة شهود** فعندما علمت عن رحيل سيدى (ولدكما) **حزنت ونحت عليه كما لو كان ولدى انا** . لقد كان انسانا يحب . وهممت بالحضـور عنـدما استوقفنى بينوتن Pinouton قائلا انك ، ياسيدى أبوللونيانوس، أرسلته لى لكى لا أحضر ، لانك ستكون خارج محافظة أرسينوى . حسنا ، **تحملوا فى نبل فهذه ارادة الآلهة** (بعد ذلك تتحدث الرسالة عن بعض الشئون

---

(١٥) الخطابات المذكورة من : BGU 665, and P. oxy 3313.

المتعلقة بالعمل الى أن يختم الرسالة) • لقد خسرت أنا الآخر عبدا ولد في المنزل يساوى تالنتا سلامى لسيدى وكذلك سيدى (والدكم) فى رعاية كل الآلهة » (١٦) •

والآن دعنا نختتم هذا الفصل ، كما اختتمنا الفصل السابق ، بالقاء نظرة على مستوى البيئة الثقافى • وكما لاحظنا من قبل ، نجد أنه من بين الستمائة أمى الذين تم احصاؤهم فى البردى المنشور هناك ثلاثة فقط من أبناء عواصم المحافظات • أما الباقون فكانوا حرفيين وفلاحين مصريين • ويضم هؤلاء الأميون كذلك كهنة ، وشيوخ قرى ، ومديرى ضياع وجنديا سابقا فى القوات المسلحة لم يتمكن من التخلص من أميته بالرغم من خدمته بالجيش لمدة ٢٦ عاما •

ومنذ حوالى خمس عشرة سنة نشرت مجموعة من أوراق البردى هى ما تبقى من مكتب موظف فى قرية لا يعرف « كيف يكتب » • وبعد أن أشرنا الى ذلك مرارا يجدر بنا أن نوضح أن المقصود كان عدم معرفة الكتابة الاغريقية • فكثيرون ممن لا يعرفون هذه الكتابة ــ خصوصا أعضاء طبقة الكهنة ــ كانوا قادرين على الكتابة بلغتهم المصرية الوطنية وان كان من النادر الاشارة بدقة الى هذه الفروق • ولكن فى مزاد علنى لبيع منزل فى عام ٥٥ م على سبيل المثال نجد أحد التوقيعات تقرأ كما يلى : (فلان وفلان كتبا بدلا منه حيث انه كان جاهلا بحروف اللغة الاغريقية ولكنه يكتب باللغة المصرية) •

ان ممارسة الكتابة بالخط الديموطيقى ، باعتبارها الصورة الأخيرة للكتابة المصرية القديمة • بدأت فى الاختفاء فى القرن الثانى الميلادى وان استمرت فى الظهور من وقت لآخر لمدة مائتى عام تالية (١٧) •

وغالبا يكون الشخص الذى يوصف بأنه بطىء الكتابة لا يستطيع سوى التوقيع فقط بالحروف الاغريقية ولكن بطريقة غير متقنة • ولكن

---

(١٦) PSI 1248 • وهناك خطاب عن امرأة توفيت اثناء الولادة نجده مذكورا فى L-R II, pp. 408-9.

(١٧) عن بتايوس "Petaus" الكاتب الذى لا يعرف الكتابة : راجع Chronique d'Egypte, 41 (1966), 127-43.
والاوراق التى عثر عليها خاصة بمكتبه عدد ١٢٧ وثيقة ثلاثة ارباعها فى جامعة كولون Cologne والربع الباقى فى جامعة ميتشجان • وقد نشرها فريق امريكى الماني (Hagedorn-Youtie) فى
Das Archiv des Petaus, Papyrologica coloniensia 4, 1969.
اما الرجل الذى وقع ولا يستطيع الكتابة باليونانية ، ولكنه يستطيع الكتابة بالمصرية القديمة فقد ظهر فى SB 5117 وعن الأمية بوجه عام انظر الفصل الثالث •

بالتأكيد كان هناك قرويون يستطيعون أن يكتبوا أفضل من هذا · بل ان البعض كان يمكنهم قراءة وتقدير الأدب الاغريقي ، يؤكد ذلك ما عثر عليه من أجزاء من المؤلفات الاغريقية فى أنقاض بعض القرى · وأخيرا ، وكما رأينا سابقا فى هذا الفصل فان العدد القليل من القرويين الأثرياء والذين كانوا يحاولون أن يصعدوا السلم الاجتماعى (كما نقول اليوم) كانوا يميلون الى تقليد حياة أبناء عواصم المحافظات · وهذا الميل كان يشمل السعى لتعليم أبنائهم تعليما اغريقيا · غير أن الجو السائد فى القرية المصرية على العصر الرومانى ظل أميا · فالمثقفون القليلون يحيط بهم أميون كثيرون · فى البداية ، أى فى العصور الفرعونية ، كانت الكتابة نطاقا خاصا محفوظا للكتبة ، تلك الطبقة المقدرة جدا وتضم المحترفين المهرة وقد بقى شىء من هذا الموقف التقليدى سائدا فى القرى المصرية حتى خلال العصر الرومانى وربما فيما بعد · والانسان ما يزال يرى فى الشرقين الأدنى والأوسط الكاتب جالسا على منضدة صغيرة بالقرب من الشارع الرئيسى والناس يتوافدون عليه ومعهم خطاباتهم لكى يرد عليها وشكاياتهم لكى يختصرها وعقودهم لكى يصوغها ويوقعها · وقديما كان الكتبة يعملون بنفس الطريقة تقريبا فيما عدا أنهم كانوا يجلسون متقاطعى السيقان ، ويكتبون متكئين عليها · وهناك فى الشارع كما توضح بعض العقود كتبت أكثر معاملات القرويين الورقية · وكان المستوى الثقافى للكتبة يختلف باختلاف الأفراد ولكن الأغلبية العظمى منهم تترك انطباعا بأنهم كانوا يستطيعون الكتابة فقط ولكنهم لم يكونوا على درجة عالية من الثقافة · وغالبا ما كانوا يكتبون صيغا شائعة وعبارات مكرورة وهذه الحقيقة تظهر فى العقود المختلفة والخطابات الشخصية التى كتبوها ·

ولعل القارىء لن يفشل فى ملاحظة أن هذا الفصل أقصر الى حد كبير من الفصل السابق · وهذا يرجع الى ان الحوليات القصيرة والبسيطة للفقراء هى التى تتم حكايتها · ومع ذلك فان الناس فى الريف والذين يشكلون الأغلبية العظمى من سكان الولاية سيكونون الممثلين البارزين أيضا فى معظم الفصول التالية ·

الخرافات والخزعبلات
أو
أعمال وأيام الآلهة والمردة

لم يعبر أحد قط عن احتقار الرومان للمصريين وأساليب حياتهم بكراهية أكثر مما فعل الشاعر جوفينال Juvenal . فقد كان عدوه اللدود مصريا ويدعى كريسبينوس Crispinus الذى أثرى فى وقت قصير ووصل الى مركز مرموق فى روما . ولكن جوفينال لم يحصر كراهيته فى عدوه وانما مدها لكى تشمل كل الناس . ففى مقطوعته الهزلية الخامسة عشرة نجده يسخر من ذلك العالم المجنون الذى يعبد الحيوانات . ويزعم جوفينال أنه قد عرف الكثير عن هذا العالم أثناء زيارته لمصر ويحكى ما حدث عندما أثار أشخاص مقهورون — الروح الطائفية فى احدى المدن المصرية ، فاغاروا على مدينة أخرى أثناء احتفالها بالهها المحلى . وتحولت الكلمات الى صفعات ، وأدت هذه بدورها الى نشوب شغب على نطاق واسع حفل بوحشية شملت أكل لحوم البشر .

ولن يتسنى لنا معرفة ما اذا كانت كتابات جوفينال جادة أم لا . فقد انقسم العلماء حيالها فريقين ، ولم

يقتنع أحدهما بما أورده الفريق الآخــر من أدلة • حقيقة كمــا وصف بلوتارخوس وديوكاسيوس هما أيضا المصريين بأنهم ذوو حساسية مرهفة تجاه عقائدهم المحلية ، غير أن هذا الرأى مختلف تمــاما عن القصة المرعبة التى يرويها أو يخترعها جوفينال • ولكن مما لا شــك فيه أن الحقيقة اليومية التى نقابلها على النقوش وأوراق البردى خــلال القرون الثلاثة الأولى تختلف اختلافا كليا عن هذا : فنرى الأرض تضم آلهة ثقافات ثلاث وهى المصرية الوطنية والاغريقية ــ التى أرست قواعدها بعد فترة تكيف دامت ثلاثة قرون تحت رعــاية البطالمة ــ والرومانيــة ــ آلهــة الوافدين الجدد •

اندمجت هذه الآلهة دون أى انقسام يذكر • صحيح أن آلهة الثقافات الثلاثة احتفظت أحيانا بسماتها المستقلة ولكن فى الأغلب الأعم تحالفت للتوفيق بين المعتقدات المتعارضة •

والرومان الذى أقاموا فى مصر تعودوا بسرعة وسهولة على حركات التداخل الثقافى المصرية والاغريقية التى وجدوها هناك ، والتى كانت تهدف الى التوفيق بين المعتقدات المختلفة • ويعطينا أحد نقوش السنة الحادية عشرة الميلادية مثالا واضحا على ذلك • تم اكتشاف هذا النقش من حوالى ثلاثين عاما بصحراء مصر الشرقية على طول الطريق القديم الذى يمتد من قفط Coptus على النيل الى ميناء على البحر الأحمر • وهذا النقش يقرأ كمــا يلى :

« لحســن الحظ : عنــدما كان بــوبليوس جوفنتيوس روفوس Publius Juventius Rufus ، النقيب الحربى السابق للفرقة الثالثة وحاكم مناجم جبل برنيكى Berenike والمدير المسئول عن مناجم الزمرد والياقوت وانتاج اللؤلؤ وكل المعــادن بمصر • قام معتوقه أجاثابــوس Agathopous بتخصيص هذا الضريح فى منطقة أوفيات Ophiate للاله بان (Pan) ، ذلك الاله العظيم باسم بوبليوس جوفنتيوس الخير » (١) •

ان التمازج الثقافى فى هذا النقش يستحق الملاحظة الدقيقة • فمقدم الهبة هنا ، عبد محرر يحمل اسما اغريقيا ، يكرم وليه ونصيره وسيده السابق وهو رومانى ذو منصب رفيع • والنص باللغــة اليونانيــة محفور على لوحة مصرية من حيث الشكل والزخرفة ، والاله بان روح الصــحراء بقفرها وعزلتها التى تملأ الناس بالرعب يظهر باسمه الاغريقى ولكنه مصور

---

(١) SB 10173 a = SEG XX no. 760.

على اللوحة بالاسلوب المصرى بشكل المومياء (Ithyphallic) .

وفى خطاب من القرن الثانى أو الثالث نقرأ :

« ماركوس Marcus أوريليوس أبوللونيوس Apollonius Aurelius العراف ، تحية الى حامل سلة طقوس (قرية) مسميس Hesmeimis من فضلك اذهب الى (قرية) سنكيفا Sinkepha حيث معبد ديميتر Demeter لأداء التضحيات المألوفة من أجل أسيادنا الأباطرة ونصرهم ولارتفاع منسوب النيل وزيادة المحاصيل ومن أجل طقس ملائم والى اللقـــاء » .

وهنا أيضا مزيج متعدد : فالكاهن مواطن رومانى ، ولكن العبادة ليست لاله رومانى . والالهة تسمى بالاسم الاغريقى ديميتر الذى يعنى فى القرية المصرية اشارة لايزيس (ISIS) (وقد أشار للربط بين الالهتين هيرودوت Herodotus فى القرن الخامس ق.م) . وفى معبدها كان يتم تقديم القرابين لعبادة الأباطرة الحاكمين ونهر النيل وآلهة الطقس (٢) .

لم تكن القرى الصغيرة فقط مثل سنكيفا Sinkepha — حيث السكان قلة والموارد محدودة قاصرة عن بناء معابد منفصلة للالهة المختلفة — هى فقط التى تقدم هذه الخدمة المتعددة ، بل ان هذا التداخل الثقافى واضح أيضا فى المعابد المخصصة للآلهة الاغريقية والرومانية فى عواصم المحافظات . وفى داخل مصر كان المواطنون الحضر ومقلدوهم من ساكنى عواصم المحافظات يتمسكون بعبادة آلهة البانثيون الاغريقى كمظهر يدل على أصولهم وعاداتهم الهلينية ، بيد أنهم كانوا يمثلون جزرا هلينية فى محيط من الثقافة الوطنية حاولوا الهروب من التأثر بها دون فائدة فبقيت الآلهة الأوليمبية كأسماء ولكنها توارت كحقيقة .

ان حركات التوفيق الكثيرة التى حدثت كانت فى الأغلب الأعم اغريقية مصرية ، ومع ذلك كان هناك أيضا مزج بين آلهة ذات أصول شتى خاصة من منطقة الهلال الخصيب وآسيا الصغرى . فتم الربط بين اثينا Athena وتاوريس Thoeris وزيوس مع آمـــون أما هرميس فتـــم الربط بينه وبين تحوت Thoth . وحدث نفس الشىء مع الآخرين . ولكن معظم الآلهة تماثلوا مع أكثر من اله واحد . وقد اتخذ ذلك أشكالا مختلفة

---

(٢) البردى المذكور من P. Merl. 63 and P. Oxy. 2782.
أما الاشارة الى هيرودوت فالمقصود بها : Histories, BK. 2, ch. 59 and 156.

فى الأماكن المختلفة • فعندما نجد القرويين ذوى الأسماء المصرية يطلقون على أنفسهم القاب كهنة هرميس وأفروديتى ندرك أن هذا مجرد اسقاط يستخدمون فيه المسميات الاغريقية التى كانت لغة الطبقات المتميزة — لآلهتهم القومية • وقيل عن احدى الحركات التوفيقية بين العقائد المصرية والاغريقية بأنها كانت أداة سياسية • فقد قام بطلميوس الأول بابتداع الاله سارابيس Sarapis أو سيرابيس Serapis وفيه دمج ذو معنى أسطورى لاله اغريقى وآخر مصرى • فقد كان الهدف من هذا اعطاء نموذج للاخوة والمساواة بين الثقافتين وهى أمنية لم تتحقق • لقد كان سارابيس Sarapis الها ناجحا ومستمرا بالنسبة للمصريين لوعده لهم بحياة افضل ، وبالنسبة للاغريق ونسلهم لأنه سمح لهم بأن يستمتعوا بتحويل فكرة المساواة المثالية نحو تكريس الحالة الراهنة • فى البداية أسس له معبد منفصل وأيضا انتشر فى مناطق ثانوية متعددة ، فتطابق مع زيوس Zeus فى مكان وتطابق فى مكان آخر مع اله النيل هكذا ••

كانت أكثر العقائد المصرية انتشارا عقيدة الالهة ايزيس (Isis) الكريمة ، واهبة الحياة • وقد انتشرت عبادتها فى كل عالم البحر المتوسط • وكانت روما نفسها مركزا رئيسيا لها • ويسجل جزء من كتاب دينى وجد فى أوكسيرنخوس قائمة بالهيئات والألقاب والسجايا والمخصصات والتشبيهات التى عرفت بها « هذه الآلهة ذات الأسماء المتعددة » فى أماكن متعددة فى الوطن وفى الخارج • ويكفى قدر ضئيل من الاقتباس لاعطاء أمثلة على الـ ١٥٠ اسما ولقبا التى وجدت فى أكثر من مائة مكان مدونة بقوائم •

« فى أفروديتوبولس Aphroditopolis التى تقع فى محافظة بروسوبت Prosopite (يطلق عليك) قائدة الأسطول ، ذات الأشكال المتعددة أفروديت • وفى نقراطيس Naukratis ، البكر ، والفرحة والمنقذة والجبارة والعظيمة • وفى هرموبولس Hermopolis ، افروديت الملكة المقدسة وفى تانيس الرشيقة وهيرا وفى كانوبوس Canopos قائدة ربات الفنون ، وفى روما المحاربة وفى ايطاليا موضع حب الآلهة » •

كان الزوار الاغريق والرومان عادة يتجاهلون هذا الفيض من الأسماء ويصرفون النظر عنه باعتباره منافيا للعقل ومشوشا • وقد لاحظ ديودور الصقلى ذلك وكانت كلماته بها نبرة من عدم الصبر « أن نفس الالهة يسميها البعض ايزيس (Isis) والآخرون يسمونها ديميتر Demeter والبعض يسميها مانحة القانون وسيلين وهيرا ، والبعض يدعونها بكل هذه

الألقاب مجتمعة . وأطلق البعض على أوزوريس ديونيسيوس والبعض الآخر أطلقوا عليه بلوتو Pluto أو آمون Ammon وعدد قليل يسمونه زيوس Zews وكثيرون يسمونه بان Pan ، (٣) .

وفي اكسيرنخوس ، ومعلوماتنا عنها الأكثر اكتمالا يمكننا أن نتعرف على عدد كبير من المعابد ، كان أكبرها معابد سارابيس وأثينا - تاؤريس (والأخيرة كان لها معبد هائل من الطراز الرباعي) . وكانت أحياء المدن التي تقع فيها هذه المعابد معروفة باسمائها . وفي حي تاؤريس Thoëris كان يوجد معبد لزيوس . وفي الحي الجنوبي الشرقي كان يوجد معبد ابولو ، الاله العظيم والروح الخيرة . كما يوجد معبد لنيوترا Neotera (أي أفروديت - حتحور) . وفي الحي الجنوبي كان يوجد معبد لديميتر Demetrion . وفي ثلاثة أحياء أخرى كان يوجد بكل منها معبد مشترك لزيوس وهيرا وأتاوجاتيس (أي : عشتار السورية التي تطابقت أحيانا مع ايزيس) وبرسفوني Persephone . وفي اكسيرنخوس أيضا ذكر وجود معابد في أماكن غير ما ذكر لايزيس والاباطرة . وجدير بالذكر أنه أينما ظهر كهنة وكاهنات لهذه المعابد فجميعهم كانوا يحملون أسماء مصرية ...

واضاف قدوم الحكم الروماني ثالوث الكابيتول (جوبتر وجونو ومنيرفا) كما أضاف آلهة أخرى من ايطاليا للعناصر المصرية والهلينية الموجودة من قبل . ولكن أوضح مظاهر الرعاية الدينية في الولاية كانت الطقوس التي تقام لعبادة الامبراطور الروماني . فلم تكن قاصرة فقط على الأباطرة الموتى المبجلين كما كان الحال في روما . ولكن شملت أيضا الحاكم الحي على حسب عادة أهالي شرق البحر المتوسط التي كانت تنظر للحاكم باعتباره تجسيدا للاله . وأحيانا كانت الطقوس تشمل أيضا الأسرة الامبراطورية . وهكذا عندما زار جيرمانيكوس ابن أخي الامبراطور تيبيريوس Tiberius وابنه بالتبني مصر في عام ١٩ م أضفيت عليه تلقائيا صفات التقديس التي رفضها في مرسوم ذي صيغة سياسية .

« جرمانيكوس قيصر Germanicus Caesar بن (تيبيريوس) أوغسطس (Tiberius) Augustus وحفيد أوغسطس المبجل ، القنصل السابق يعلن : انني أرحب بالفرحة التي تبدونها دائما عند رؤيتي ولكني اجد ذلك مثيرا للاستياء وأستنكر كلية هتافاتكم التي تساوي بيني وبين الآلهة . فهذا يناسب فقط المنقذ والمعطي للجنس البشري كله وهو

(٣) P. Oxy. 1380 and Diodorus, Historical Library BK. I, Ch. 25.

ابى وايضا أمه جدتى ([illegible] Li ia) (فوضعى ليس جزءا) من الوهيتهما وان لم تطيعونى فسوف تجبروننى على عدم الظهور أمامكم الا نادرا ، (٤) ٠

وتحتوى وثيقة بردية رسمية يبلغ طولها أكثر من مترين على سجلات لمعبد جوبتر الكابيتولى Jupiter Capitolinus فى أرسينوى لمدة ستة أشهر فى عام ٢١٥ م ٠ فى هذا المعبد المخصص للاله الرومانى الرئيسى وحيث كان يقف تمثال الامبراطور الحاكم (كراكلا) ٠ كان يحتفل بالعطلات الرومانية وسلسلة كاملة من أعياد البيت الامبراطورى ، فضلا عن عبادة التمساح الوطنية وذلك باقامة مراسم على الطريقة المصرية الاغريقية المحلية ويكفى ذكر عدد قليل من الأمثلة العديدة للايضاح :

أول أمشير (٢٦ يناير) اجازة الاحتفال بالعيـــد العاشر لارتقاء سيدنا الامبراطور سيفروس أنطونينوس (كراكلا) : تكليل كل تماثيل الآلهة ودروعهم وتماثيل الرجال ٠

١٩ منه (١٣ فبراير) اجازة الاحتفال بارتقاء المبجل سيفروس والد سيدنا الامبراطور للعرش : تكليل كل ما فى المعبد (التماثيل الخ٠٠٠) ٠

١٨ برمهات (١٤ مارس) اجازة وألعاب للاحتفال باقامة تمثـال لسيدنا الامبراطور : تكليل كل ما فى المعبد كما سبق ٠

الخامس من برمودة (٣١ مارس) اجازة احتفالا بنصر وسلامة سيدنا الامبراطور سيفروس أنطونينوس : تكليل كل الدروع وتماثيل الآلهـة والرجال الموجودة بالمعبد ٠

التاسع منه (٤ ابريل) عيد ميلاد سيدنا الامبراطور سيفروس أنطونينوس : تكليل كل ما فى المعبد كما سبق (قائمة بتكاليف العطور) ٠

التاسع عشر منه (الرابع عشر من ابريل) اجازة الاحتفال بتنصيب سيدتنا جوليا دومنا Julia Domna بوصفها أم الجيوش التى لا تقهر : تكليل كل ما فى المعبد كما سبق ٠

السادس والعشرين منه (والموافق ٢١ أبريل) عيد ميلاد روما : تكليل كل ما فى المعبد كما سبق ٠

(التاريخ مفقود) العنــــاية باله أسـلافنا (التمساح) سوخوس

---

(٤) SB 3924 — Select papyri 211.

الاله العظيم : تكليل كل الدروع وتماثيل الآلهة والرجال الموجودة فى المعبد (٥) .

الاحتفالات الدينية فى الشهور الأخرى ، كما سجلت فى هذا البردى وغيره وافقت أيام ميلاد واعتلاء العرش لكل الأباطرة بدءا من أغسطس . وضمت أيضا أعياد ميلاد أشخاص مقدسين مثل أنطينوس حبيب هدريان (٣٠ نوفمبر) وماركيانا وماتيديا أخت وابنة تراجان (أغسطس و ٤ يوليو) وجيرمانيكوس قيصر (٢٤ مايو) وبالطبع يوليوس قيصر (١٢ يوليو) .

عندما تأتى الأنباء بارتقاء امبراطور جديد للعرش كان كل سكان الاقاليم يؤدون يمين الولاء للحاكم الجديد أثناء مراسم احتفال بهذه المناسبة. ثم يوضع تاريخ الارتقاء ضمن أعياد الامبراطورية ليتم الاحتفال به كل عام باقامة الطقوس المناسبة . وها هى القرارات التى أصدرها ولاة مصر فى مناسبتين من تلك المناسبات فى عامى ٥٤ و ١٩٣ م :

« الامبراطور (كلوديوس) المنتمى لاسلافه ذهب للالتحاق بهم كاله ظاهر . والامبراطور الذى توقعه العالم وتمناه تم تعيينه . (صاحب) العبقرية الفذة فى العالم ومصدر البركة للعالم نيرون قيصر تم تنصيبه . ولذا وجب علينا أن نرتدى الأكاليل ونضحى بالثيران تقربا لكل الآلهة (التاريخ) » .

مانتينيوس سابينوس Mantennius Sabinus الى حاكمى اقليم السبع نومات واقليم آرسينوى . بعد التحية : لقد أمرت بأن يلحق بهذه الوثيقة نسخة من المرسوم الذى أرسلته الى المدينة الأشهر الاسكندرية حتى تعلموا جميعا وتقيموا احتفالا لعدة أيام والى اللقاء (التاريخ) .

نسخة من المرسوم : « عليكم يا أهل الاسكندرية أن تحتفلوا بمناسبة الاعتلاء السعيد للعرش لسيدنا الامبراطور بوبليوس هلفيوس برتيناكس أوغسطس Publius Helvius Pertinax Augustus (وزوجته) فلافيا تيتيانا أوغسطا Flavia Titiana Augusta عليكم ايضا بتقديم قربان عام والصلاة جماعة داعين بدوام ملكه وكل أفراد أسرته ، وعليكم أن ترتدوا الأكاليل لمدة خمسة عشر يوما ابتداء من اليوم » (٦) .

---

(٥) BGU 362 = Select Papyri 404.

(٦) النص مأخوذة من : P.Oxy. 1021 and BGU 646 = Select Papyri 235-222.

وفي مقابل هذه الاحتفالات الرسمية كانت توجد الرعاية التقليدية للديانة الشعبية ، وتعود جذور هذه الرعاية الى حقائق الحياة اليومية المعاشة . وهناك سمة مميزة نظر اليها الأجانب باستمرار باستهزاء واحتقار وهي تقديس الحيوانات . فعندما كان اكتافيوس يقوم بالتعرف على مصر التى غزاها حديثا « رفض زيارة أبيس ، قائلا انه تعود على عبادة الآلهة وليس الماشية » - أما احتقار جوفينال فكان كما نتوقع أكثر عنفا . « من ذا الذى لا يعرف الوحوش التى تعبدها مصر المخبولة ؟ فقسم يبجل التمساح وآخر يقف فى خشوع أمام أبى منجل ملتهم الثعابين ... وهنا يبجلون القطط ، وهناك يبجلون الأسماك وهذه مدينة بأكملها تبجل الكلب » .
وحتى الكتاب الاغريق الذين التزموا بالعقلانية نادرا ما اعتبروا أن هذه العبادات كانت تنم فى أصلها عن الرغبة فى التقرب من المخلوقات الوحشية التى كانت ترمز اما لنعمة أو لتهديد للوجود الانسانى فى وادى النيل . وكان الاغريق والرومان الذين يأتون لرؤية الأهرام واللابيرنث يعدلون قليلا من برامجهم لكى يروا الكهنة يطعمون التمساح الذى كان يسكن البركة المقدسة الملحقة بمعبده فى أرسينوى ، وكانوا يرون فى ذلك جاذبية سياحية . أما بالنسبة لجماهير محافظة أرسينوى ، فالتمساح كان الههم الحارس سوبك Sobk (وهو اسم حرف فى اليونانية الى سوخوس Souchos) . فكل قرية فى المحافظة كان يمكنها أن تفعل ذلك فأقامت معبدا له ، وكان يستشار بوصفه الوحى المحلى (٧) .

ان عدم اندماج السكان المصريين مع من يعلوهم فى المكانة الاجتماعية انعكس انعكاسا صادقا على العمل فى المعابد . ففى مصر وجدت طبقة من الكهنة منذ فجر التاريخ كانت لهم حقوق مقصورة عليهم فقط . أما الاغريق فلم يفعلوا ذلك أبدا . فقد « كان منصب الكاهن فى مدنهم مفتوحا أمام كل رجل » كما كتب خطيب أثينا ايزوقراطيس Isocrates الى نيكوكليس Nikokles ملك قبرص . والحكومة الرومانية كالمعتاد لم تر سببا للتدخل فى هذه العادات الثقافية الخاصة ، بل على العكس فانها رحبت بها وغذتها باعتبارها مساعدة لسياستها الطبقية . وكما تقرر المادة ٨٦ من قواعد الخزانة الخاصة Privy purse ـ وهى القسم الادارى الذى جعله أوغسطس مشرفا على الشئون الدينية فى مصر : « يسمح للأفراد العلمانيين بالخدمة فى احتفالات المعابد الاغريقية » . وطبقا لذلك

(٧) الجمل مقتبسة من
Dio Cassius, Roman Hi tory, BK 51, Ch 16 and Juvenal, Satires 15 Verses 1-8.
وبالطبع التقرب للحيوانات المفترسة بالتقديس يشكل ظاهرة يمكن ملاحظتها بسهولة فى المجتمعات البدائية .

ففي مدن وعواصم المحافظات في مصر كانت معابد الآلهة الاغريقية ليس لها كهنوت ، وانما قائمون بالخدمة واداريون من العلمانيين الذين اختارهم مواطنو عاصمة المحافظة من بين طبقتهم لدورة سنوية ، وذلك للقيام بأعمال الصيانة والمتطلبات الدينية للمعابد . وأغلبية هؤلاء الموظفين يماثلون شمامسة ووكلاء الكنيسة اليوم . والشخص الذي كان يحمل اللقب الرفيع « الكاهن الرئيس » كان في الواقع أحد الموظفين الساميين في عاصمة المحافظة . وبعد سنة من خدمته كان يحتفظ مثل الآخرين – حاكم الجمنازيوم مثلا – بلقب الكاهن الرئيس بقية حياته . ومن الواضح أن المسألة كانت تتعلق بالمكانة الاجتماعية أكثر من النداء الديني .

وعلى النقيض من هذا فمعابد الآلهة المصرية سواء كانت باسمها المصري أو اكتسبت اسما اغريقيا – كانت تخدمها مؤسسة دينية تتكون من كهنوت وراثي يعاونه أعداد كبيرة من المساعدين مختلفي الدرجات . ان عدد الأعياد الدينية المصرية وتعددها جعل وجود مثل هذه المهنة ضرورة حيوية . وقد لاحظ هيرودوت أن « المصريين لا يحتفلون احتفالا واحدا في السنة ، كما يفعل الاغريق » ولكنهم كان يقيمون احتفالات متعددة » لنفس الاله . وفي التقويم الذي أمكن تجميعه ! من أوراق البردي المتعددة التي عثر عليها في قرية سكنوبايونيسوس Soknopaiou Nesos (جزيرة الاله التمساح) من اقليم أرسينوي كان كل عيد سواء عيد ميلاد الاله التمساح أو زفاف ايزيس أو الذكرى السنوية لتأسيس المعبد الخ ... يستدعي اقامة احتفال بشكل ما يستمر من سبعة أيام الى تسعة عشرة يوما وهو ما يجاوز في مجموعه أكثر من ١٥٠ يوما في السنة . ولم يكن باستطاعة أي مجتمع زراعي حتى لو كان مجتمع أدى فيضان النيل الى خصوبة أرضه أن يقضي وقتا طويلا من العام في عطلة من أجل الاحتفالات الدينية بعيدا عن الأعمال الزراعية الشاقة . ولذلك كان يشترك القرويون في بعض الطقوس ويقوم الكهنة بتأدية الباقي باسمهم (٨) .

ان تاريخ مصر في الألف سنة الأخيرة قبل الرومان تميز بتارجح السلطة بين الملوك والكهنة . ولكن بعد ضم مصر الى الامبراطورية الرومانية أقام أغسطس نظاما للسيطرة أدى بشكل واضح الى تقليل الثروة الضخمة في أيدي الكهنة وكبح جماح تاثيرهم السياسي الذي مارسوه أيام الحكم ضعيف للملوك البطالمة الأواخر . فتم بقسوة الحد من أعدادهم ومعابدهم وملكيتهم للأرضي ، وخضعت سجلاتهم الشخصية وحساباتهم المالية

---

(٨) الجمل مقتبسة من هيرودوت : Histories, BK 2, ch. 59.

لحاسبات منتظمة قام بها ممثلون عن الخزانة الخاصة Privy purse . كما حرموا مع التهديد بالعقاب الشديد من الاشتراك فى أى نشاط غير متصل بخدمتهم الدينية (هذا الشرط الأخير أثر فقط على كبار الكهنة فى عدد من المعابد أما الوظائف الأدنى فكان يشغلها أناس عاديون يخدمون فى المعابد لبعض الوقت) • وهكذا تم تبديد قدرة رجال الدين على اثارة السخط العام ضد الحكومة • ولم تكن موجات الغضب التى قامت من حين الى حين مهما كانت عنيفة (احداها فى الاسكندرية فى عام ١٥٣ م كلفت بالفعل حاكم الولاية حياته) أكثر من موجات غضب أو أحداث شغب محلية منعزلة محكوم عليها مسبقا بالفشل (الفصل العاشر) •

وأكد المرسوم الذى أصدره الحاكم جايوس تورانيوس Gaius Turranius فى العام الرابع ق٠م٠ تحجيم المؤسسة الكهنوتية : « اننى آمر (المعابد) بتسجيل كهنتهم بالوراثة وتلاميذهم وكل من ينتمى للمعابد وأولادهم • و (كما آمر) بتوضيح الوظائف التى يقومون بها • وحينئذ سأقوم بفحص قائمة العام الحالى السادس والعشرين (من حكم اوغسطس) قيصر • وسوف أعزل حالا أولئك الذين ليسوا من أصل كهنوتى (٩) •

وحتى أولئك الذين كانت وضعيتهم الكهنوتية مؤكدة لم يعودوا يعفون تلقائيا من الضرائب أو من أداء الخدمات العامة الاجبارية • وبدلا من ذلك كانت هذه الميزات تمنح فيما بعد لأعداد ونوعيات معينة من الكهنة • وبالطبع تغير العدد الكلى حسب تعداد السكان المحليين والأهمية الخاصة للمعبد • ففى قرية صغيرة فى محافظة أرسنوى قام على خدمة الاله التمساح طقم من ثلاثة كهنة فقط يصحبهم فى ذلك مساعد واحد ، بينما فى تبتينس كان اجمالى الكهنوت ثمانين وفى كرانيس مائة وأربعة •

كان رجال الدين المصريون مميزين من حيث الشكل عن باقى السكان فرؤوسهم حليقة (والعقوبة ألف دراخمة اذا تركوا شعورهم تنمو !) • ولم يكن مسموحا لهم بارتداء الملابس الصوفية فى أماكن عامة ، بل ملابسهم الكهنوتية الكتانية فقط • وكانوا وحدهم من بين السكان غير اليهود الذين يختتنون • وهذه وغيرها من القواعد كان يتم الاشراف عليها بعناية بمعرفة وكالات حكومية متعددة • واجراءات الحصول على تصريح بالختان نموذج جيد لذلك •

كانت الخطوة الأولى تقديم طلب مدعم بشهادة خطية مؤكدة بالقسم التالى الذى قدمه لحافظ محافظة The Nome Strategos فى عام

---

(٩) BGU, 1199.

١٨٧ م أربعة من كهنة « معبد [قرية] تبتينس الشهير المعفى من الضرائب » ٠ » بالاشارة الى الطلب الذى قدمه اليكم ماريمبسمس ابن مارسيسوخوس بن هاربوكراتيون ، كاهن المعبد المذكور ، والذى يطلب فيه ختان ابنه بانيسس Panesis المولود من ثنباكبكس Thenpakebkis بنت بانيسس ٠ وردا على استفساركم عما اذا كان من أصل كهنوتى وله الحق فى الختان ٠ فاننا نعلن مقسمين بقدر ماركوس أوريليوس كومودوس أنطونينوس أغسطس أن أصله كهنوتى والأدلة التى قدمت من أجله صحيحة ٠ وأنه لابد من أن يختن لأنه لا يمكنه القيام بمهامه المقدسة ان لم يتم ذلك ٠ وان اتضح غير ما قررناه فاننا مسئولون عن عواقب القسم الذى أقسمناه [توقيعات] ٠

نقطة خاصة وردت فى سؤال المحافظ كانت بهدف التأكد من أن الولد لم يكن متبنيا أو لقيطا ، حيث كانت المادة ٩٢ من قواعد الخزانة الخاصة تمنع هؤلاء من أن يصبحوا كهنة ٠ فاذا اقتنع المحافظ strategos بنسب الغلام ، كان يشهد بذلك لمعاون الحاكم ، كاهن مصر الأكبر ، الذى كان يقوم بعمل جلسة استماع للطلب ٠ ووفقا لملخص احدى هذه الجلسات فان الكاهن الأكبر :

« سأل قادة ومساعدى قادة البعثة ، كما سأل ناسخى (وحفظة) السجلات المقدسة عما اذا كان يوجد عيب فى جسد الغلام ، وبناء على قولهم بأن الغلام ليس به عيوب سمح ألبيوس Ulpius سيرينيانوس Serenianus الكاهن الأكبر المسئول عن ادارة المعبد للغلام بالختان بما يتفق مع التقاليد وذلك بتوقيعه على الخطاب الذى وصله من المحافظ ٠

ولكن فى حالة واحدة على الأقل ، نعرف أن غلاما بجسده ندبة سمح له بالختان مع آخر لا يوجد به عيوب وذلك فى آن واحد ٠ وفى حالة مرشح آخر غالبا كان به عيب تم صرف النظر عن جلسة الاستماع أمام الكاهن الأكبر ٠ وفى كلتا الحالتين تم التوصل بدون شك الى النتيجة المرجوة عن طريق اتصالات ذوى النفوذ السياسى أو المالى أو كليهما (١٠) ٠

وعندما تخلو احدى الوظائف فى المعبد لعدم وجود من يخلف صاحبها كانت الدولة تقوم ببيعها لمن يعرض ثمنا أعلى ٠ وأتوقع أن يصدم القارئ المعاصر عندما يقرأ عن ذلك ، وبالنسبة لعالم الكنائس فهذا يعتبر تدنيسا

(١٠) الوثائق هى P. Teb. 293 and BGU 347 = W. Chr. 75 and 76.
كما توجد مصادقة لأحد الرسميين سينى السمعة وذلك فى SB 16 and P. Teb. 314.

للمقدسات . ولكن الوقف في مصر القديمة وفي أجزاء كثيرة أخرى من منطقة شرق البحر المتوسط كان موقفا عمليا بصورة أساسية : فكانت وظيفة الكاهن بما فيها من امتيازات وحقوق شيئا ذا قيمة ، قابلة لا حويل الى نقود . وكانت هناك مزايدة سرية خاصة على الوظائف الاكثر ربحا . وكان من الشائع تبادل الاتهامات بين المزايدين .

خلدت المعابد في شكلها المادى أيضا التقاليد المعمارية اليونانية والمصرية . فالاغريق في المدن بنوا معابد لها روح التصميمات الموجودة في وطنهم الأم ، وعلى أكثر تقدير كان يمكنهم أن يقبلوا بعض التنوعات الفنية التى تفرضها مواد البناء المحلية وطرق البناء . أما في باقي الولاية – فيما عدا بعض المعابد الاغريقية التى ضمنها أبناء عواصم المحافظات شواهد على أصلهم الهليني الذى كانوا يفتخرون به – فقد ساد اسلوب العمارة المصرية في كل مكان ، من المعابد الصغيرة الحجم التى تتخذ شكل المنازل التى وجدت في كثير من القرى الى المباني الضخمة ذات الصروح الفخمة في المدخل ، والتى كانت تشبه بوابات الحصون . وكان الطريق المؤدى الى المدخل تحيطه تماثيل أبو الهول أو تماثيل حيوانات أخرى رابضة . وفي ادفو Edfu وهى أبوللينوبولس ماجنا القديمة Apollinopolis Magna يستطيع الزائر مشاهدة مثال عظيم لهذا النمط من الصروح ، وقد رسمت صور الأباطرة الرومان على حوائطه بالنحت البارز على غرار فراعنة مصر القدماء . وفي تبتينس احدى القرى المصرية الكبيرة ، لم يتبق شيء تقريبا من آثار المعبد . ولكن الطريق الضخم المحاط بتماثيل أبو الهول تم اكتشافه في حفائر أجريت هناك من خمسين عاما مضت . ويرقد حيوان العبادة في ساحة التمساح في محافظة أرسنوى وأنوبيس الكلب في كينوبولس Kynopolis (مدينة الكلب) وهكذا كان كل حيوان بالمدينة التى كانت المركز الرئيسى لعبادته .

ومن ناحية أخرى كان نهر النيل يعبد بوصفه الاله الاكثر أهمية في كل مكان من البلاد ، لأنه لولا مياهه لما كانت هناك حياة بمصر . ويمكن تتبع الأناشيد والصلوات التى كانت تؤدى للنيل عند فيضانه عبر آلاف السنين . اقدم نص مكتوب بالهيروغليفية ويرجع تاريخه الى عام ١٢٠٠ ق.م وبعد حوالى ألفى عام وجدنا نسختين بيزنطيتين احداهما مسيحية موجهة الى القديس سينوثيوس St. Senuthius وهناك أيضا نسخة سريانية في مخطوط يرجع تاريخه الى القرن الثانى عشر..

وفيما يلي نص يعود للعصر الرومانى :

من أجل الاحتفال الذى يشير الى ارتفاع النيل المقدس . والاحتفال

بطقوسه المقدسة · لقد جاء الماء ، تحية للجداول عند ارتفـاع فيضان ايزيس · أيها النيل ذو الفيضانات الكثيرة ، (يا صاحب) الاسم العظيم · تدفق علينا من مروى Meroë كريما معززا ، وانشر علينا طميك المخصب فى فيضاناتك الوفيرة فى موسمك كل عام · انظر كيف يبدو الفيضان ذهبيا لكل واحد ، والكورس يغنى احتفـالا بالتيار المتدفق · « ارتفع أيها النيل ، حتى الاحتفال ارتفع حتى ١٦ ذراعا [مستوى الفيضـان الأمثل] » (١١) ·

وكانت الالهة ايزيس ، الواهبة الأولى للحياة فى مجمع الآلهة المصرى ، مرتبطة بالنيل وبمياهه التى تمنح الحياة · ففى الموكب السعيد الذى كان يقام احتفالا بالفيضـان السنوى ، كان يحمل عاليـا من ميـاه النيل ملء كوب فى اناء ايزيس الذهبى · وكان يغنى فى مدحها ترنيمة بهـا أبيات مثل « بقوتك تمتلىء كل فروع النهر » ، أو مرة أخرى « يا من تأتى بالنيل ذى التيار الذهبى وتقودينه فى موسم (الفيضان) فوق أرض مصر ، لتدخلى البهجة على البشرية » · وكان ارتفاع منسوب النيل يحتفل به فى شمال وجنوب الوادى خلال معظم شهر بؤونة Payni· وكان اليوم الثانى عشر من ذلك الشهر (٦ يونيو بالتقويم القديم و ١٩ يونيو بالجديد) هو أكثر الأيام اجلالا · رسخ ذلك اليوم فى وعى الشعب لدرجة أنه لم يتغاض عنه فى تقويم الأعياد المسيحية (وأيضا فيما بعد العربية) · ان ارتفع « نهر مصر المخصب المبارك » عزى الى « قوة المسيح » · وجعل الملاك ميخائيل قديسا حاميا له · وما تزال الكنيسة القبطية تحتفل ببداية الفيضان السنوى يوم ١٩ يونيو ، يوم عيد القديس ميخائيل (١٢) ·

---

(١١) الأنشودة جزء من P. Lond. Lit. 239. مروى عاصمة النوبة تشير الى منابع النيل ، وكانت تقع على النيل شمال التقاء النيلين الأبيض والأزرق وقبل أن يصل النيل مصر بأكثر من الف كيلو مترا ·

(١٢) SEG VIII nos. 548, 549, and P. Oxy. 1830.

وقد سجل أحد زوار مصر فى نهاية القرن الثامن عشر « أن عيد ميخائيل رئيس الملائكة قد أدى الى انتشار احدى الخرافات ··· التى اعتقد فيها الناس بثقة سواء الأتراك أو الأقباط ، وهى ان الملاك فى ذلك اليوم يلقى فى النهر بقطرة (نقطة) من المياه تكون بمثابة الخميرة التى تؤدى الى ارتفاعه وبالتالى فيضانه فى القطر كله · ولهذا السبب ففى هذا اليوم من شهر يونيو اصبح يسمى يوم النقطة · واطلق عليه سكان مصر كلهم هذا الاسم · واذا خالف اى شخص هذا الرأى او عارضه كان يتهم بالجهل · مثلما كان الحال عند انكاره لمعجزات بئر التنبؤات فى El Garnaus ، فى مصر الوسطى ، التى طبقا لقولهم تبين فى الشهور الأولى من السنة ، بارتفاع معجز لمياه البئر تبين الى اى مدى سيصل ارتفاع النهر خلال هذا الموسم ·

J. Antes, Observations on the manners and Customs of the Egyptians, Dublin, 1891, pp. 78-9).

لم تكن كل عبادة تتطلب معابد وكهنة ، فكثير منها كان يؤدى فى عزلة وفى المنزل • والمشكاوات المقدسة فى المنازل والمحاريب فى الشوارع والحقول جعلت مصر فى العصر الرومانى تشبه فى هذا الجانب بعض الأقطار الكاثوليكية اليوم •

وسواء كانت العقيدة المصرية تقام فى داخل البيوت أم فى خارجها ، جماعة أو فرادى ، فانها كانت مشبعة بالعناصر السرية والسحرية لدرجة أن بقية العالم القديم نظر الى مصر باعتبارها الأصل فى التنجيم وأنها صاحبة المنهج لفهم أسراره • ومثال ذلك مجموعة الأسرار التى عزتها العصور الوسطى للاله تحوت وعرفتها باسم هرميتيكا Hermitica نسبة الى هرميس الأسم اليونانى للاله المصرى • وفى مصر الرومانية ، كان البحث عن تدخل القوى السحرية يتم بعدة طرق مختلفة منها الصلوات وصب اللعنات والتضرع الى مساعدة بس Bes • كان هذا الأخير يعد أقل الآلهة المصرية أهمية ، وكان على هيئة قزم ذى بطن كبيرة له شكل مثير للضحك وليس له معبد ولكن كان يعتقد أنه موجود فى كل مكان • ووضعت ثقة كبيرة أيضا فى قدرة التمائم على الحماية والانقاذ من الأعمال الشريرة وكذلك سوء الحظ • وقد وجد هذا مكتوبا على أوراق البردى وكان يربط بخيط أو يلف فى حجاب ليحمله الشخص ، وكانت تنقش على كل أنواع المواد بما فيها الأحجار الكريمة ونصف الكريمة • ان حقيقة وجود التمائم ذات الرموز والأشكال المصرية فى كل أجزاء حوض البحر المتوسط لهى دليل قاطع على شيوع الاعتقاد فى قوة الأرواح الشريرة التى اعتقدت بها مصر • وليس سرا أن استخدام التمائم واحدة من كثير من الممارسات الوثنية التى عاشت خلال العصر المسيحى • وهناك على وجه الخصوص مثال من القرن السادس ــ وطوله يمنع امكانية اقتباسه كله هنا • هذا المثال يدعو السيد « المسيح وأمه وكل القديسين » أن يحفظوا « من الروح الشريرة » جوانيا Joannia التى حملت بها أناستاسيا Anastasia « وأن يبعدوا عنها كل أنواع الحمى وكل نوع من القشعريرة والملاريا الثلاثية والرباعية وكل الشرور » (١٣) :

ان صيغ وتعليمات المحبة غالبا تكون موجهة ، كما فى كل ثقافة ظهرت فيها ، من ذكور الى اناث يرغبون فيهن ، وهناك وثائق بردية بعضها طويل جدا تحتوى على مصدر لا ينتهى من النصائح والوصفات • وهناك أيضا نصوص مفردة كتبت على أوراق البردى أو نقشت على مواد مختلفة

(١٣) P. Oxy. 1151.

ولاسيما اللوحات الرصاصية الرقيقة التى كانت تفضل لمثل هذه الأغراض • ووجدت احدى تمائم الحب ملفوفة حول خصلة من الشعر أمكن الحصول عليها بغير شك من رأس المحبوبة بطريقة أو بأخرى • وهناك ممارسة مألوفة بربط دمية صغيرة من الطين تمثل المحبوب ملفوفة فى ورقة من البردى مكتوب عليها تعويذة • وهناك ممارسة أخرى كانت مألوفة هى الأخرى بوضع التعويذة على مومياء أو فى مقبرة على أمل أن تجبر التعويذة روح الميت على تنفيذ أمر الساحر (١٤) •

وحتى بعد انتشار المسيحية بوقت طويل ، كانت توجد لفائف كاملة من أوراق البردى تزخر بكل أنواع التعليمات التى يمكن أن يؤديها الشخص بنفسه من أجل الحصول على نتائج سحرية • وفيما يلى مثالان مأخوذان من احدى هذه اللفائف البردية الموجودة بالمكتبة البريطانية :

« عند الأكل والشراب خذ القطع الأولى وضعها فى حلق صغير فى محراب بينما تقول « فلان الفلانى ، فلترسلوا لمساعدتى وتسرعوا فى تنفيذ تعليمات الاله • اسمى هو (اذكره) يا Iao ويا Sabaoth ويا Adonai ويا Zabarbathias فلتحبنى (اذكر الاسم) أنا (اذكر الاسم) حبا سماويا لا ينطفىء » • صياغة أخرى « يارب فلتقع (اذكر الاسم) فى حبى من أول نظرة ، ويارب لا تجعلها تقاوم أيها الاله العظيم الجبار » • وبعد ذلك عندما تراها تنفس بعمق ثلاث مرات فتعمدا النظر فى اتجاهها عندئذ سوف تبتسم لك • وهذه ستكون علامة أنها تحبك •

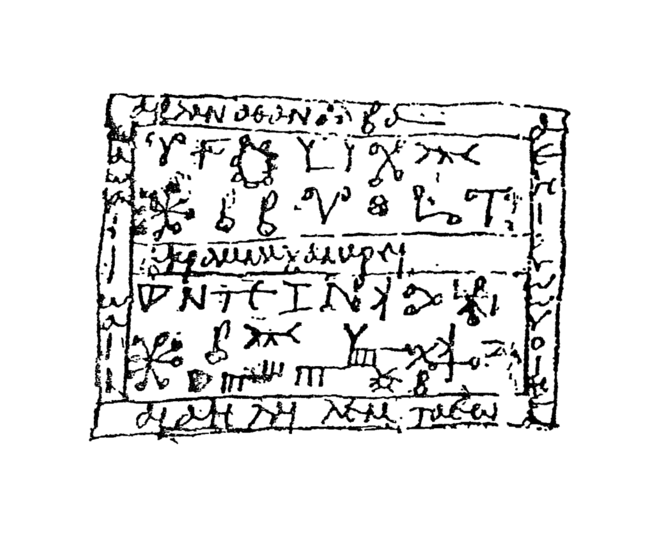
تعويذة لتقييد الأرواح الشريرة • الأعمال ضد كل الأعداء والملاعين واللصوص والمخاوف والكوابيس • خذ طبقا من الذهب أو الفضة وارسم عليه الشخصيات والكلمات [السحرية] • وبعد أن تجعله فعالا احمله وأنت صافى القلب • العلامة هى : والطلسم هو : —

---

(١٤) Journal of Egyptian Archaeology, 15 (1929) PL XXXI. 1.

وفى اللوحة المشار اليها نرى دمية من الطين مربوطة الى تعويذة بردية • هذه التعويذة كاستثناء تعبر عن رغبة رجل فى رجل آخر • أما البردية التى عثر عليها فى هوارة والتى نشرت فى Archiv Für Papyrusforschung, 5 (1913), 393.

فهى تعويذة سحرية لمضاجعة امرأة لامرأة أخرى • ومن الجدير بالملاحظة أن تعاويذ الحب استمرت اتجاها عاما وعالميا حتى الوقت الحاضر ، لدرجة أن كلمات الطقس السحرى نفسه أصبح أغلبها مقتبسا من الأدب الكلاسيكى والأنشودة الرعوية Idyll الثانية من قصائد الشاعر الصقلى ثيوكريتيوس تكشف أصلا تساليا •



وكما فعل معظم الناس فى العـــالم القديم فان سكان مصر كانوا يعتقدون بوجه عام وفى بعض الأحيان بوجه خاص بقدرة الآلهة على التنبؤ بالغيب • وكل اله نظرا لكونه خالدا ولا يخضع للزمن فان لديه القدرة اللامتناهية على ذلك • ومع ذلك صارت بعض الآلهة أكثر شعبية فى هذا المجال من آلهة أخرى : كانت هناك عدة أنماط من الوحى : «بين ظهرانيكم» ، قال ديو كريسستوم Dio Chrysostum مخاطبـا شعب الاسـكندرية مبكرا فى القرن الثانى ان «سرابيس يتمتع بعبادة خاصــة بينكم وهو يعرض قوته من خلال الوحى والأحلام كل يوم تقريبا » وهناك وحى آخر ، ذلك الخاص بزيوس — آمون فى واحة سيوة ، والذى اكتسب شهرته بعد أن توقف الاسكندر الأكبر عن مواصـلة انتصـــاره السـاحق على الامبراطورية الفارسية واندفاعه عبر صحراء مصر الغربية ليطلب من ذلك الوحى أن يكشف له المستقبل ، وباتت لهذا المعبد فى العصر الرومانى شهرة تطبق الآفاق فى العالم (١٦) •

فى الحقيقة ان النبوءات اكتسبت شعبية فى كل مكان خلال القرون الثلاثة الأولى • ان جذور هذا الاتجاه تكمن فى حقيقة أن الديانات الكبرى فى تلك الأيام مالت نحو الشـــكلية المتزايدة باستمرار ، والتى استمر الناس يجدون فيها العروض الفخيمة والتسلية ولكن مع التضاؤل المستمر للارتبـــاط الروحى • وعلى سبيل التعويض بحث الأغنيـــاء والفقراء على الســـواء ، الامبراطور القوى والفـــلاح البســيط ، باصـرار عن راحــة لأرواحهم بوسائل غير دينية • وكدليل على هذا الاتجاه نجد هبوطا مستمرا فى عدد الكهنة فى المعابد فى مصر • اذ أصبحت المهنة التى تعتمد على ما يقدمه العامة من قرابين أقل جاذبية بمرور الوقت • تحول الاهتمام من المسائل الروحية الخاصة بالمجتمع الى ما يخص الفرد • وهكذا نجد عشرات من خرائط البروج فى أوراق البردى • وقد تمتعت هذه البروج بشعبية متزايدة • ولكن حتى فيما يخص هذه كان الأمر يتطلب شخصا محترفا مدربا ليحل رموز التنجيم • ومن هنا جاءت الشعبية الكاسحة للوحى حيث كان يمكن للفرد العادى أن يتحدث مباشرة مع الآلهة التى يختارها • وأن يتعامل معها وجها لوجه • فنجد أما تكتب لابنها قائلة « هل تعتقد أننى أهملتك • اننى أستشير الوحى بخصوصك كل عشرة أيام بدون كلل » • والسؤال كان كما يبدو هل يظل الرجل بمصر أم يذهب الى روما لينجز أعمالا • ويستشير رجل ما الاله التمساح سائلا اياه « هل ساشفى من هذا المرض الذى أصبت به ؟ اكشف لى هذا الأمر » • وهناك استفسار آخر ••• « الى زيوس وهليوس وسيرابيس Zeus, Helios, Serapis العظيم والآلهة التى تشاركهم معبدهم • ويسال نيكى Nike هل الأفضل

(١٦) Dio, Oration 32, Sect. 12.

لى أن أشترى من تسارابيون Tasarapion العبد الذى نملكه واسمه سرابيــون ويعــرف ايضــا باســم جيــون Gaior ، أعطــونى [اجابة] » • والى نفس الآلهة « يسأل ميناندروس Men: ndros اذا ما كانت توافق على زواجى • أريد اجابة » • وكانت الأسئلة تصنف وتنظم بما يسمح بالتوفيق بين الأعداد المحتشدة • ومن بين ما عثر عليه فى اكسيرنخوس جزء من مجموعة أسئلة كل منها مصاغ فى عبارات عامة وله رقم • وكل ما يفعله الشخص لاستلهام الوحى هو أن يختار الرقم المناسب من القائمة : « ٧٢ ـ هل سأتسلم الموافقة ؟ ٧٣ ـ هل سأبقى حيث أنا ذاهب ؟ ٧٤ ـ هل سأباع ؟ ٧٥ ـ هل سيساعدنى صديقى ؟ ٧٦ ـ هل مأمون لى أن أتعاقد مع مجموعة أخرى ؟ ٧٧ ـ هل سأوفق مع طفلى ؟ ٧٨ ـ هل سأحصل على اجازة ؟ ٧٩ ـ هل سأتسلم النقود ؟ ٨٠ ـ هل الغائب مازال حيا ؟ ٨١ ـ هل سأستفيد من الأمر ؟ ٨٢ ـ هل ستصادر ممتلكاتى ؟ ٨٣ ـ هل سأجد طريقة للبيع ؟ ٨٤ ـ هل يمكننى التخلص مما يدور فى عقلى ؟ ٨٥ ـ هل سأكون ناجحا ؟ ٨٦ ـ هل سأصبح لاجئا ؟ ٨٧ ـ هل سأذهب فى سفارة ؟ ٨٨ ـ هل سأصبح عضوا فى المجلس ؟ ٨٩ ـ هل هروبى بلا فائدة ؟ ٩٠ ـ هل سيطلق زوجتى ؟ ٩١ ـ هل دس لى السم ؟ ٩٢ ـ هل سأنتقم لنفسى » (١٧) •

وقديما كان يعتقد أن الأحلام مثل التنبؤات ذات دلائل الإهية وتنبؤية من حيث الجوهر • وبالتالى فان الحاجة الى تفسير المحتوى اللفظى للأحلام أدى الى ازدهار وظيفة مفسرى الأحلام المسلحين بكثير من التفاصيل عن حيــاة الناس • كان هؤلاء يقومون بتفسير أحــلام الليل والنهار والرؤى والهلوسات والكوابيس • ولئن كان هناك نوع من الأحلام يستطيع فيه الفرد أن يتصل اتصالا مباشرا بالإله كما هو الحال فى حالة الوحى • اشترك سكان مصر مع غيرهم من الشعوب القديمة فى اسباغ القدرة على

---

(١٧) النصوص مأخوذة عن :
P. Mert. 81, BGU 229, and P. Oxy 1148, 1213 and 1477.
وفى هذه الأخيرة فان المسألة رقم ٨٦ تشــير الى الحل الأخير اليائس للناس الذين لا يستطيعون أن يسددوا ضرائبهم ومديونياتهم الأخرى مع الدولة (انظر الفصل الثامن) • ان اللجوء الى مراكز الوحى قد كيف نفسه بسرعة وسهولة مع انتشار المسيحية • ومن الوثائق البردية التى ترجع للقرن السادس الميلادى نذكر مثالين من أمثلة عديدة نراها :
P. Oxy. 925 and 1150 = Selec' Papyri 196 and 197.
أيها الاله العظيم القادر على كل شىء ـ القدوس ـ الحق ـ الكريم ـ الخالق ابو سيدنا ومنقذنا يسوع المسيح اكشف لى بالحق الذى ينبعث منك : ما اذا كانت تلك مشيئتك ان اذهب الى خيوت Chiout ؟ وهل ساجد معاونتك الكريمة ؟ ليكن ذلك ، آمين » •
ونرى إيضا :
« يا اله سيدنا القديس فيلوكسينوس Philoxenos هل تامرنا بان ننقل انوب Anoup الى مستشفاك ؟ ارنا قوتك ودع هذه الرسالة تاتى بنتيجة ناجحة » •

بعض الآلهة على العلاج ، هذه القدرة كانت تستحضر عندما يقضي المريض ليلة كاملة في محراب الاله يدعوه أن يعطيه الجواب بالشفاء من خلال الحلم : ان أهم مزارات آلهة الشفاء في بلاد الاغريق ، والتى كان يفد اليها المتضرعون حتى من البلاد الأجنبية ، كان محراب أسكليبيوس ، اله الطب ، فى ابيدوروس • وفي مصر فان الاغريق ومن انحدر من سلالتهم تقبلوا اله الشفاء الوطني ، ايمحتب Imhotep (الذي أغرقوا اسمه فصار اموذيس Imouthes) ، كنظير لالههم أسكليبيوس • ان معبده العظيم كان يقع على حافة الصحراء بالقرب من ممفيس ، وحكاية المعجزات التى قام بها هذا الاله محفوظة في احدي أوراق بردي اكسيرنخوس Oxy. P. (١٨) •

تطور آخر هام شهدته القرون الثلاثة الأولى للميلاد هو انتشار عقيدة التوحيد الجديدة • لقد تحدثنا عن المجتمعات اليهودية في مصر في الفصل الثاني • وهذه المجتمعات لعبت دورا هاما في حياة مصر التجارية ، خصوصيا في الاسكندرية • ولكن عقيدتهم القائمة على مبدأ التوحيد لم يمل نحوها ويتحول اليها سوى القليلين • ومن نفس موطنهم الأصلى يهودية Judaea ، ظهرت طائفة تدعو لدين جديد قدر له خلال عدة مئات من السنين أن يسيطر على كل الامبراطورية الرومانية ، بل وفيما بعد على كل العالم الغربي :

دخلت المسيحية مصر في زمن مبكر • وصلت أولا ليهود الاسكندرية ، الذى كان أقرب مجتمع الى مجتمع يهودية من حيث الموقع والاختلاط ؛ ولكن قبل مضي وقت طويل كانت تنتشر بين غير اليهود فى الداخل ؛ وهناك سهل استقبالها وجود عناصر مشابهة كثيرة فى الديانة المصرية ؛ ولعل أبرز هذه العناصر كان الايمان بالبعث الذى كان مضمون الاحتفال السنوى المملوء بالعاطفة عن ايزيس Isis التى تعيد تجميع أوصال أوزوريس الممزقة (ان الدورة السنوية عن الموت ومعجزة اعادة الحياة للنبات كانت تحولت الى اسطورة فى كثير من المجتمعات القديمة وكذلك البدائية) •

ان مرقص ، الذى جمع أبكر الأناجيل حوالى ٦٥ م ، هو المؤسس التقليدى لكنيسة الاسكندرية ، وكان الأول بين سلسلة طويلة من البطاركة ، كما يطلق على مطارنتها • وحوالى منتصف القرن الثالث كان يوجد على الأقل مطرانان فى عاصمتين من عواصم المحافظات : وبنهاية ذلك

---

(١٨) P. Oxy. 1381.

القرن كان فى أوكسيرنخوس كنيستان مسيحيتان ضمن قائمة أماكن العبادة الكثيرة بها • ان أقدم قطع البردى التى تحتوى آيات من الأناجيل والكتب المسيحية الأخرى التى عثر عليها فى مصر الوسطى والعليا تؤرخ من حوالى ١٠٠ ميلادية أو بعد ذلك بقليل • ان أبكر كتابة موجودة ذات طبيعة غير كنسية والتى يمكن أن نذكر أن لها طبيعة مسيحية غامضة خطاب (موجود حاليا فى مكتبة وودبروك كوليدج (Woodbroke College, Birmingham) ويرى العلماء أنها لابد كتبت فى الفترة المبكرة من القرن الثالث • ان الخطاب ذو أهمية خاصة لأنه يعكس بعض التعاليم الغنوصية التى كانت منتشرة جدا بين مسيحيى مصر الأوائل • ولعل أبرز هذه التعاليم هو اختصار الثالوث الى ثنائى بعد حذف الابن (بالرغم من وجود رأى يؤيده قليل من العلمـــاء بأن كلمة (الحقيقة) ما هى الا اشـــارة مجازية للمسيح (١٩) •

ولمدة مائة سنة أو أكثر نظر معظم الناس الخارجين ، ان كانوا قد اهتموا أصلا ، الى المسيحيين ليس باعتبارهم مختلفين عن اليهود ولكن باعتبـارهم جماعة منشقة عن أولئك اليهود غير المتوافقين فى الدين • وعندما كتب سويتونيوس بعد حوالى ١٠٠ عام من صلب المسيح ذكر أن الامبراطور كلوديوس قام فى عام ٤٩ ، « بطرد اليهود من روما لأنهم بناء على تحريض كريستوس Christos كانوا يسببون اضطرابات مستمرة »• ان هجاء الاسم له ايحاء خاص فكلمة خريستوس Chrestus هى كلمة اغريقية معناهـا ممسـوح بالزيت • ولم يفهم الرومان المتعلمون أمثال سويتونيوس Suetonius المغزى المسيحى للكلمـة ، بل اعتقدوا أنه يعنى أن هؤلاء اليهود كانوا يطيعون أوامر قائد يحمل الاسم الاغريقى الشائع خريستوس • وقد اعتقد معظم المعاصرين بناء على ما سمعوه أو رأوه أن الذى وحد المسيحيين الأوائل كان شكلا خاصـا من السحر • وتعطى النصوص السحرية الموجودة أمثلة موازية للطقوس والمفاهيم واللغة المسيحية ، بما فيها التمتمة غير المفهومة (٢٠) •

وفى المائتى عام التالية ، نظرا للتزايد السريع فى أعداد المسيحيين • قامت مجتمعات عديدة فى أجزاء كثيرة من العالم الرومانى بالقبض عليهم ككبش فداء يمكن توجيه اللوم له على كل أنواع الاضطرابات والحوادث المؤلمة • وحتى الاتهامات التى دفعت الحكام والأباطرة الى توزيع العقاب

---

(١٩) P. Harr. 107

هذه رؤية مسيحية ينفيها القرآن الكريم بصورة قاطعة •

(٢٠) M. Smith, Jesus the Magician, New York, 1978.

أما الاشارة لسويتونيوس فمستقاة من : Life of claudius, ch. 25.

كان لها جذور محلية ولم تكن من عمل الحكومة الرومانية • طوال هذا الوقت فاننا لا نسمع عن اضطهادات محلية للمسيحيين فى مصر وان وقعت فانها كانت نادرة • وهو أمر يوضح الموقف المتسامح للسكان فى مسائل الدين بوجه عام (٢١) •

وبالطبع لم تكن لتتوانى الحكومة فى مصر فى تنفيذ أوامر الاضطهاد اذا صدرت من الامبراطور • ومع ذلك فليس هناك دليل على وجود قانون امبراطورى أو مرسوم عام ضد المسيحية قبل عام ٢٤٩ م • ذلك بعد أن نظر العلم الحديث ببعض التشكك الى الروايات الموجودة فى آداب آباء الكنيسة بشأن الأخذ بالثأر والاستشهاد تحت حكم الأباطرة الأوائل • وعلى وجه الخصوص أباطرة الثلث الأول من القرن الثالث الذين كانوا متسامحين خيرين من الناحية الدينية • ولقد بدأت الميول المناهضة للمسيحية فى الظهور فى الحكومة الامبراطورية فى منتصف القرن الثالث • لم يثر ذلك العداء بسبب رفضها العنيف للاعتراف بألوهية الحكام ، بقدر ما كان ذلك بسبب انتشار عدم الولاء فى القوات المسلحة ، حيثما كان الضباط والجنود يعتنقون المسيحية • وفى الاضطهاد الذى صدر به الأمر الامبراطورى فى عام ٢٤٩ م ، والذى لا نعرف الكثير من الأعمال غيره خلال فترة الحكم القصيرة للامبراطور ديكيوس ، كان على كل شخص ذكرا كان أم أنثى صغيرا أو كبيرا ، أن يشارك فى عبادة وثنية فى حضور مندوبين عينوا خصيصا لذلك فى كل محلية لكى يشهدوا مدى الامتثال للأمر • وأولئك الذين رفضوا الاذعان عوقبوا باعتبارهم مسيحيين • أما أولئك الذين امتثلوا فقد منحوا شهادات عثر على عدة عشرات منها فى مصر — ومصر فقط — كلها مكتوبة على قصاصات صغيرة من البردى وقد نتساءل هل كان المقصود هو أن يحمل الفرد الشهادة معه أو أن يظهرها عند الطلب ؟ كانت الشهادات — مع بعض الاختلافات الطفيفة — وفقا للصيغة الآتية :

« الى المشرفين على أضاحى قرية ثيادلفيا Theadelphia من أوريلياس بللياس Aurelias Bellias بنت بيتريس Peteres وابنتها كابنيس Kapinis • لقد قدمنا الأضاحى للآلهة والآن ووفقا

---

(٢١) يذكر ترتوليان Tertullian عكس ذلك فى الفصل الأربعين من كتابه Apology الذى كتبه حوالى عام ٢٠٠ م حيث يقول « اذا وصل التيبر الى الأسوار ، واذا فشل النيل فى الوصول الى الحقول ، واذا لم ترتجف السماء لكى تسقط أمطارا ، وان اهتزت الأرض ، واذا حدثت مجاعة ، واذا حدث وباء ففى الحال ترتفع صرخة « القوا بالمسيحيين الى الأسود » ولكن فى ضوء بلاغة النص فان من عدم الحكمة الاصرار على أن ذكر التيبر أو النيل كان يشير الى أحداث بعينها » •

للامر سكبنا القربان وضحينا وذقنا أضاحي القرابين . أرجو منكم أن توقعوا لنا (على ذلك . [خط آخر] نحن أوريليوس سيرينوس Aurelius Serenus وأوريليوس هرماس Aurelius Hermas رأيناكما وأنتما تقدمان القربان (التاريخ ٢١ من يونيو عام ٢٥٠) (٢١) :

أدى اضطهاد ديكيوس الى سقوط قتلى كثيرين من بينهم اللاهوتى الشهير أوريجين Origen أحد أبناء الاسكندرية . وقد استمرت حملة الاضطهاد لمدة سنة أخرى حتى توفي ديكيوس في معركة ضد القوط الذين غزوا الإمبراطورية . وبعد عقد من الزمان ، استمر فيه الاضطهاد بشكل متقطع ، ألغى الاضطهاد رسميا بأمر من الامبراطور جالليينوس Gallienus الذي كان مشغولا بمنافسيه على العرش والبرابرة المتربصين على الحدود . وسمح لمصر بالعودة الى أديانها المتعددة وممارستها . وكان المسيحيون أحرارا في مواصلة خلافاتهم الداخلية حول العقيدة Dogma وكانت هذه الخلافات كثيرا ما تتحول من الهجوم اللفظى الى الهجوم الدموي (٢٣) :

ومن بين الموضوعات التى تعتبر أوراق البردى مصدرها الوحيد هي الطريقة التى كان يتم وفقا لها الإحتفال بالأعياد : وكما يجب أن نتوقع فهناك عادات مختلفة ودرجات مختلفة من المشاركة . ففى مناسبات الدولة كأعياد ميلاد الأباطرة وتواريخ ارتقائهم للعروش والاحتفالات بذكرى الانتصارات كانت أجهزة الحكومة ، كما رأينا سابقا في هذا الفصل تتولى أو تأمر باقامة احتفالات مناسبة في أنحاء الولاية . وفى المناسبات الأخرى فان طقوسا أكثر محلية كانت تتم باشراف الرسميين المحليين . وهناك بردية طويلة من عام ٢٣٢ م تسجل أنه فى عيد رأس السنة المصرية الجديدة [أول توت الموافق ٢٩ أغسطس] حضر المحافظ Strategos تتويج حاكم الجمنازيوم Gymnasiarch ثم قدم قربانا فى الجمنازيوم وقربانا آخر فى معبد الأباطرة قبل أن يغادر عاصمة المحافظة « الى بقية الاقليم حيث حضر المواكب والطقوس الدينية المألوفة » (٢٤) .

---

(٢٢) P. Mich. 158.

(٢٣) ان الاضطهاد والتعذيب بأمر من الامبراطور اختفى تماما من كل أرجاء الامبراطورية بعد قرار جالليينوس . وفى القرن الرابع حدث اضطهاد الكبير وتبعه بعد ذلك بسنوات قلائل « مرسوم التسامح » ٣١١ م وتلا ذلك قيام اعتناق الإمبراطور قسطنطين Constantine للمسيحية . ولقد اعتبر أوريجين « أكثر الشخصيات شهرة في تاريخ المسيحية المصرية « subtle exegete » عالم لاهوت جرىء وعميق ، ويعد من أعظم العلماء المسيحيين ... وكان أيضا أفلاطوني النزعة متأثرا بالغنوصية في مصر » ؛
H. I. Bell, Cults and Creeds in Graeco-Roman Egypt, p. 97.

(٢٤) P. Par. 69 = W. Chr. 41 ii.

وفي المدن اليونانية في مصر استمر الاغريق يمارسون العابهم الرياضية التقليدية ومسابقاتهم الأدبية والموسيقية ومهرجاناتهم المسرحية • والفرق الكبير في الممارسة بين هذه المسابقات ومسابقات العصور الكلاسيكية هو أن المشتركين خلال العصر الروماني سواء من العدائين أو الملاكمين أو المصارعين أو غيرهم لم يعودوا من الهواة بل من المحترفين الذين يسافرون من مكان الى آخر ويتنافسون عاما بعد عام • وكان أكثرهم نجاحا يكتسب شهرة عالمية وكميات كبيرة من الجوائز المالية فضلا عن عدة امتيازات مثل حقوق المواطنة الفخرية والإعفاء من الضرائب .

وقد قلد المدن اليونانيـة في مصر في احتفالاتهم كما في الأشياء الأخرى المتظاهرون بأنهم هلينيون من سكان عواصم المحافظات • وقـد سبقت الاشـارة الى أحد أبناء أوكسيرنخوس الذي كانت لديه الموهبة « لتطوير مسابقاتنا الشبابية بنفس الاسلوب الذي تم تطويرها به في أنطينوبولس » • ان قائمة تغطي السنوات من ٢٦١ – الى ٢٦٨ ميلادية تعطينا اسماء – لأناس كلهم باستثناء واحد أو اثنين اغريق أو اغريق رومان – أهل أكسيرنخوس الذين اشتركوا كشعراء أو عازفي بوق أو منادين في ألعاب أقيمت على غرار العاب تمت في نوقراطيس • اثنان من المنادين الفائزين كان عمرهما خمس عشرة سنة وست عشرة سنة على التوالى • وكان عمر أحد الشعراء خمس عشرة سنة وللأسف ليس لدينا أي نماذج من أعماله • والمثير أن الشاعر الفائز في نفس القائمة كان ابن ١٩ عاما وذكر أنه « يتعلم الحروف » • ويبدو الأمر كما لو كانت هذه المباريات تنظم لكي تظهر مواهب شباب عاصمة المحافظة أمام الحضور من الآباء الفخورين • وقد عثر أيضا في إكسيرنخوس على بعض التقارير عن النفقات التى انفقتها المدينة على احتفالات في بضع اجازات • ففي مهرجان (ربما) كان لديونيسيوس دفعت مكافآت لمناد ونافخ البوق وممثل هزلى (وهو رجل جيبب المصطلح المستخدم يغنى ويرقص وربما كان هو كاتب النص أيضا) وعدة أشخاص ذكرت أسماؤهم فقط ، ودفعت تكاليف أيضا لاراقة دم عجل قدم قربانا • وبالنسبة لمهرجان أقيم لسيرابيس دفعت مكافآت « لراقص مناسب » وزوج من الملاكمين وميلكين وممثل هزلى ، ومناد ، « ومصمم رقصات » ، وقارىء [لنصوص طقسية] وشـاعر غنائى ، وثمن لقيمات من أجل أنوبيس » • وهناك قوائم أخرى لحساب مدفـوعات – لعدد غير معروف من المشاركات – ٤٩٦ دراخمـة لممثل (توشيل صامت) و ٨٤٨ لرواية قصائد ملحمية ، ومبلغ بين المائة دراخمة والمائتين لراقص ومبلغ غير معروف لموسيقيين ، ٧٦ دراخمة للرجال الذين حملوا الصور المقدسة للاله « النيل » والآلهة الاخرى في الموكب • وثمانى

دراخمات لمناد وأربع دراخمات لنافخ بوق ، ومبالغ أخرى لأشخاص غير ذوى اهمية لدينا • خلد أبناء عواصم المحافظات تقليد هلينى آخر بعودتهم أحيانا الى مسرحهم ، حيث احتفظوا بالمسرحيات الاعريقية الكلاسيكية حية (يوريبديس بالنسبة للتراجيديا وميناندر بالنسبة للكوميديا) • ولكنهم استمتعوا أيضا باكتشاف صور معاصرة من التاليف ، ويبدو أن أحد الامثلة الباقيه من هذه النوعيه الاخيرة هو فصل منوعات موسيقية أو مسرحية هزلية (فودفيل) تستمر حوالى عشر دقائق • ولا يمكننا أن نحكم الى أى مدى كان الانتاج خصبا • ولكن لدينا جزءا من تقرير يسجل نفقات المسرح بستة آلاف دراخمة في شهرين • وهكذا كان المبلغ كافيا للاستعانة بكل نوعيات المواهب ، حتى فى ظروف التضخم المالى فى القرن الثالث (٢٥) • واختير نجوم الرياضيين أعضـــاء فى نقابة الرياضيين الفائزين والمتوجين المتنقلين برعاية هيراكليس Heracles ، وهى جماعة انتشرت فى أنحاء الأمبراطورية ومركزها الرئاسى والدينى كان فى روما • وأعظم الشعراء الموهوبين والممثلين والموسيقيين اختيروا أيضا لكى يكونوا أعضاء فى نقابة الفنانين المبدعين الفائزين المتوجين ، وكانوا يجيئون من جميع أنحاء العالم برعاية ديونيسوس • وسوف يكون لدينا فرصة التعرف على هؤلاء عن قرب فى الفصل السابع •

وفى المناسبات الأقل كان يتم حفل أكثر تواضعا يشمل موسيقى ورقصا بالاضافة الى ما يقيمه الأغنيـاء فى الحفلات الخاصة • وهذه يجب أن نضيفها الى الطقوس التى سبقت الاشارة اليها • وهنا أحد الأمثلة على ذلك :

« من أجاثوس Agathos الأوريلى Aurelii رئيس الجمنازيوم والرئيس المكلف والعراف هيرمانوبامون Hermanobammon وديديموس Didymos الكاهن الاكبر وكوربياس Korpias منظم Kosmetes أرسنوى الى يوريباس Euripas الأوريلى Aurellii الممثل وساراباس Sarapas راوية القصـائد الملحمية ، تحياتنا : احضروا حالا بطريقكم المعتـاد للمساهمة فى الاحتفـال بالاجازة • لكى تشاركونا فى مهرجان الاحتفال بذكرى الأسلاف فى يوم ميلاد كرونوس ، الاله الأعظم • وستبدأ الاحتفالات من الغد وسـوف تحصـلون على الأجر والهدايا (المعتادة) (التوقيعات) (٢٦) •

---

(٢٥) الوثائق المذكورة هى
P. Oxy 705 = W. Chr. 153, P. Oxy, 2338, SB 7336,
P. Oxy. 519 = W. Chr. 492 = Select Papyri 402, and P. Oxy. 413 and 2127.

(٢٦) P. Oxy. 1025 = W. Chr. 493 = Select papyri 359.

• أما لقب Aurelii فيرجع بتاريخه الى ما بعد ٢١٢ م • انظر قاموس

ومهما كانت الحفلات جذابة فانها ـ على الأقل من الناحية الفنية ـ كانت مكملة للطقوس الدينية الخاصة بالمناسبة ٠ وكانت العناصر المحلية فى هذه المناسبات تضم ترانيم المديح ومواكب التماثيل المقدسة والبخور والعطور الأخرى وكعك القرابين والعسل والخمر وغيرها من الأطعمة (التى كان يستولى عليها فيما بعد ـ فى مناسبتين من هذه المناسبات ، قدمت احداهما للمحافظ والثانية قدمت لنائب الحامية المحلية ويبدو منهما أن الحكومة كانت تمد رقابتها حتى الى هذه التفصيلات : ـ

« الأصناف المقدمة قربانا على شرف النيل الأقدس فى ٣٠ بؤونة (٢٤ يونيو) ١ عجل و ٢ جرة من الخمر الحلو و ١٦ فطيرة و ١٦ اكليلا و ١٦ من ثمار الصنوبر المخروطية و ١٦ كعكة و ١٦ من سعف النخيل الأخضر و ١٦ بوصة خضراء وزيت وعسل ولبن وكل أنواع التوابل ما عدا اللبان » ٠

« كالمعتاد قربان الشهر الحالى هاتور : ٤ طيور و ١ خنزير صغير وثمانى بيضات و ٨ من ثمار الصنوبر المخروطية و ٢ جرة من الخمر وكمية قليلة من كل من العسل واللبن وزيت الزيتون وزيت السمسم و ٨ أكاليل من الزهور » ٠

اذا كان كل صنف فى القائمة الأولى يحمله شخص مختلف ، فهذا يعنى أنه حتى القرية الصغيرة كانت تقوم بموكب يشترك فيه ما يزيد على مائة من المشاركين يشقون طريقهم عبر شوارع القرية مما يبعث السرور فى نفس العارضين والمشاهدين على حد سواء (٢٧) ٠

لا يوجد شىء لديه القدرة على جمع الحشود قديما وحديثا مثل الأعياد الدينية والفرق الموسيقية والمشاهد والعروض ٠ وحيث يحتشد الناس يؤدى التزاحم الى حالات من الدفع والجـــذب وهذه تؤدى أحيانا لوقوع حوادث ٠ كما نرى فى الحادثة التالية :

من هيراكس Hierax محافظ اكسيرنخوس الى المساعد كلوديوس سيرينوس Claudius Serenus ٠ مرفق نسخة من الطلب المقدم لى من ليونيداس المعروف أيضا بسيرينوس Serenus ٠ لكى تذهب مع

(٢٧) P. Oxy. 1211 = Select Papyri 403 (2nd cent.) and P. Oxy. 2797 (late 3rd cent.)

والمعروف أن الخنازير كانت فى فترة مبكرة محرمة فى الطقوس المصرية (انظر الفصل السادس) ٠

طبيب حكومي ليفحص الجثة موضوع الطلب ، ثم تصرحا بالدفن وترسلا تقريرا كما المشترك مكتوبا (التوقيع ، التاريخ ٦ نوفمبر ١٨٢ م) ٠

الى الحافظ هيراكس من ليونيداس المعروف أيضا باسم سيرنيوس ومسجل أمه توريس Tauris (٢٨) ٠ من [قرية] سينيبتا Senepta في وقت متأخر من أمس ، بينما كان هناك مهرجان في سينيبتا ، وراقصات الصنج يقدمن عرضهن عند بيت صهرى بلوتيون ، أراد عبده ابافروديتس Fpaphroditos وعمره حوالى ثمانية أعوام ، أن يميل برأسه من أعلى المنزل المذكور حتى يتستى له رؤية الراقصات ولكنه سقط قتيلا ٠ انني أقدم هذا الطلب راجيا بعد اذنكم أن ترسلوا واحدا من مساعديكم الى قرية سينيبتا ٠ حيث ان جثة أبافروديتس يجب أن توسد حالا وتدفن ٠ (نفس التاريخ التوقيع) (٢٩) ٠

لقد انتهت الاحتفالات الدينية ، والأفراح وكل الحوادث المؤلمة الخ ٠٠٠ كما انتهت الطقوس والعربدة وفوق هذا حصل الراقصون والموسيقيون على أجورهم وانصرفوا ٠ وعاد المشاهدون الى منازلهم وعادت الحياة الى طبيعتها وانصرف الناس الى أشغالهم ٠ هذه الأشغال في مصر بالنسبة لغالبية السكان كانت الزراعة وهذه هي موضوع الفصل التالي ٠

---

(٢٨) هذه الصيغة عادة ما تشير الى أبناء ولدوا لجنود لازالوا في الخدمة بالرغم من أنه لم يكن مسموحا بعقد زيجات قانونية ٠ فان الجنود بوجه عام قد أقاموا روابط زوجية وخلقوا أسرا ٠ ومما لا شك فيه أن اسم ليونيداس الاغريقي يشير الى جنسية الأم أما الاسم اللاتيني سيرينوس فقد جاءه من أبيه الجندي الروماني ٠

(٢٩) P. Oxy 475 = W. Chr. 434 = select Papyri 337.

ثمرة العام
أو
انتاج الغذاء

« هبة النهر » ـ هذه العبارة التي وصف بها هيرودوت في الفصل الخامس من الجزء الثاني من كتابه التربة الغرينية التي ترسبت بفعل فيضان النهر في منطقة الدلتا . ان هذه العبارة المختصرة تنطبق على الحياة بعينها في مصر قاطبة : فلولا مياه النيل واهبة الحياة لأضحى الركن الشمالي الشرقي من القارة الافريقية قفراً غير معمور .

ان أرض مصر ـ من ليبيا غربا الى البحر الأحمر شرقا ، ومن السودان (النوبة قديما) جنوبا الى البحر المتوسط شمالا ، هي امتداد صحراوي شاسع تتخلله الخضرة فقط في وادي نهر النيل وفي سلسلة من الواحات تقع غربه . هناك فقط ثلاث مناطق صالحة للزراعة ذات مساحات مختلفة . وادي النهر ويتراوح عرضه غالبا من عشرة الى عشرين كيلو مترا ، ثم منطقة الدلتا الخصيبة التي تكونت بفعل فروع النيل السبعة التي يصب النهر من خلالها في البحر المتوسط وهي تقريبا مثلث متساوي الأضلاع طول الضلع الواحد نحو مائتي كيلو متر تقريبا ، ويقع على بعد مائة كيلو متر جنوب غرب القاهرة منخفض طبيعي يصب فيه النهر بعضا من مياهه مكونا بحيرة في قاعه : تلك المنطقة

تعرف اليوم بـ (الفيوم) (وهى مشتقة من كلمة قبطية تعنى بحيرة) وكانت فى العصرين الهلينستى والرومانى تعرف بمحافظة أرسنوى : سطحها حوالى ١٦٠٠ متر مربع (٦٤٠ ميلا مربعا) تغذيها شبكة من قنوات الرى وتشمل زهاء عشرة فى المائة من مجموع الأرض المنزرعة • والبحيرة التى تغطى اليوم ٢٨٠ كيلو مترا مربعا ليست سوى نصف مساحتها القديمة فقد انخفض منسوب سطحها بنحو عشرة أمتار • ومع ذلك وبالرغم من الزيادة فى مساحة الأرض والتى كانت مغمورة بالماء فى السابق • فان سطح الأرض الزراعية أقل مما كان عليه فى العصور الرومانية • جاءت هذه الظاهرة نتيجة سلسلة من التفاعلات بدأت فى أواخر التاريخ القديم • ولكن المحنة الاقتصادية استفحلت بسبب المطالب المالية المتزايدة ، فادت الى اهمال على نطاق واسع للزراعة • وهذه أدت الى زيادة عبء الضرائب على السكان المتبقين • وعندئذ وجد هؤلاء أنفسهم فى موقف لا يحسدون عليه • فسرعان ما هجرت قرى بأكملها ، خصوصا تلك القريبة من حافة الصحراء • وكانت قوة العمل المطلوبة لتوفير مياه الرى لها عالية نسبيا نظرا لأن مجارى الماء ارتفعت فيها نسبة الطمى لعدم صيانتها • والأرض التى لا تصلها المياه كانت تترك بالتالى بغير زراعة • وما كان يهجره الانسان كانت الصحراء سرعان ما تستعيده وتغطيه رمالها العاصفة (١) •

وفى فصل الصيف كان نيل مصر يفيض على ضفتيه فيحيل الوادى كله الى بحيرة متسعة • وكانت علة هذه الظاهرة السنوية موضوع تامل طوال العصر القديم • ففى القرن الخامس ق•م سجل هيرودوت أن « لا أحد يستطيع التحدث عن مصادر النيل ، ذلك لأن أفريقيا التى يجرى فيها صحراء تخلو من السكان » • ومع ذلك قدم هيرودوت ثلاث نظريات سبق أن قدمت حتى عصره لتفسير ظاهرة الفيضان • وأضاف اليها نظرية أخرى من نسج خياله • رفض كافة النظريات الأخرى بما فيها النظرية الصحيحة التى استنتجها الفيلسوف أناجزاجوراس وجاء ذكرها

---

(١) ان الرمال التى تدفعها الرياح تستطيع بسرعة فائقة أن تطمس اعمال الانسان التى صورت بشكل محرك للعواطف فى :

G. Ga'on — Thompson and E. W. Gardner (The Desert Fayum, London, 1934, p. 141) :

« لقد وجدنا نظاما قديما الذى تملأ قنواته الرمال ، ••• يظهر بكامله على سطح الصحراء » لقد مضت ثلاثة أشهر ونصف لى حفر خمسة وعشرين كيلو مترا من القنوات • ويستمر كاتب التقرير « وبعد ثلاث سنوات ••• حانت لى فرصة للطيران فوق البقعة ••• لكنها كانت كلها صحراء جرداء لا يمكن رؤية أى شىء فيها سواء بالعين المجردة أو بالصورة » •

بخصوص هجر الفلاحين لأراضيهم انظر الفصلين الرابع والثامن •

فى قصاصة وصلتنا من مسرحية مفقودة ليوريبيديس · وبعد أربعة قرون نقرأ عند ديودورس الصقلى عدة تفسيرات بما فيها الصحيحة التى كانت ما تزال مرفوضـــة · ولاحظ بلينيوس الأكبر فى منتصف القرن الأول الميلادى بأن « النيل ينبع من مصادر لم تكتشف » ثم يستطرد لكى يعطى وصفا لمنابعه العليا أقرب الى الأسطورة منه الى الحقيقة (٢) ·

ولقد أكدت الكشوف الحديثة حقيقة ما كان يحدث وهو أن الجليد كان يذوب على جبال اثيوبيا فى كل ربيع دافعا بلايين الجالونات من الماء فى النهر ، عنـد منابعه وبعـد رحلة عبر صـدوع هضبة الحبشة وسهول السودان · يصل الى مصر فى أوائل شهر يونيو · ويتحكم السد العالى بأسوان اليوم فى هذا الفيض · ولكن فى العصور القديمة كان الفيضـان ينساب دون تحكم حتى يصل الى منطقة ممفيس ومحافظة ارسينوى بعد فترة مداها من أسبوعين الى أربعة تقريبا · كان الشهر الأول يشهد عملية تخلل المياه ببطء للمناطق المزروعة بسبب ما كان يطلق عليه المصريون القدماء تعبير شعرى (عرق أوزوريس) وهى عملية، ترشيح بطيئة يتم على اثرها ملء الشقوق والمستنقعات · وحوالى ٢٠ يوليو تقريبا يحدث تغير مثير يتم بظهور الشعرى اليمانية Sirius · وعندما يتحول الماء ـ المحمل فى هذه الحالة بالطمى والغرين الذى جرفه من أعالى النهر ـ من اللون المائل للأخضرار الى اللون البنى المائل للاحمرار ، فى نفس الوقت يبدأ منسوب

---

(٢) Herodotus, Histories, Bk2, Ch 34. النظريات مذكورة بالتفصيل فى الفصول ٢٠ ـ ٢٦ · اما الاشارات الأخرى فقد وردت :

Euripides Frag. 228 in A. Nauck's Collection of Fragments of lost tragidies (2d. 1889).

— Diodorus, Historical Library, Bk. I, ch. 38, and Pliny, Natural History, Bk. 5 sect. 51.

وقد كتب Antes فى عام ١٧٨٨ أثناء اقامة بلغت اثنتى عشرة سنة فى القاهرة وما جاورها فى :

J. Antes, Observations on the manners and customs of the Egyptians, Dublin, 1801, pp. 103-4.

معلنا فى زهو « ان سبب الفيضان السنوى للنهر لم يعد خرافة ، ونحن لم نعد بحاجة لتسلية أنفسنا بالعديد من خرافات القدماء المثيرة للسخرية · ان الأمطار العادية أو الاستوائية فى الحبشة حيث يأخذ هذا النهر ارتفاعه ··· كافية تماما لذلك » · وبعد ذلك بعشر سنوات فى لقاء فى المجمع العلمى بمصر الذى كان قد أنشاه نابليون حديثا قرأ سيمى Susy عضو قسم الاقتصاد السياسى مقالا عن الحاجة الى اكتشاف منابع النيل ·

النهر فى الارتفاع بسرعة حتى يفيض على الجـوانب ويغطى الوادى ٠ ويستمر فى الارتفاع ، ولكن ببطء أكثر حتى يغطى منطقة أكثر اتساعا لما يقرب من شهرين اضافيين ٠ ان شكل الوادى الناتج وهو يشبه البحيرة لا تقطعها سوى المدن والقرى المقامة على أراض أعلى ، جذب أعدادا كبيرة من الزوار ، بمن فيهم الأباطرة الرومان ٠ والجميع كانوا يحسون بانبهار امام هذا المنظر ٠ ولقد كتب سينيكا الفيلسوف والكاتب المسرحى فى القرن الأول والذى كان يملك ضيعات كبيرة المساحة فى مصر « ان مظهر الريف رائع الجمال ، عندما ينشر النيل مياهه فوق الحقول » ٠ وكان النيل أثناء الفيضان موضوعا عالجه الفن الرومانى فى كل من الرسم (كما نرى فى بومبى) وفى الفسيفساء وأشهرها أرضية الفسيفساء التى عثر عليهـا بالسترينـا Palestrina بالقرب من رومـا (اللوحـة رقم ٥) (٣) ٠

كان الفيضان يبدأ فى التراجع عند فيلة فى منتصف أغسطس وعند محافظة أرسنوى فى منتصف سبتمبر أى بعد فترة طولها من ١٠٠ الى ١٢٠ يوما من بدايته ٠ وكان النهر يعود الى داخل مجراه فى حوالى نهاية أكتوبر بعد أن يخلف وراءه على الحقول كميات كبيرة من الغرين وهو سماد طبيعى غنى بالأملاح المعدنية والمواد العضوية يعادل ـ حسب ما أظهرته الدراسات الحديثة ـ حوالى عشرين طنا من السماد للهكتار الواحد ٠ (وكفائدة اضافية للفلاح ، كان الفيضان يغرق أيضا أعدادا هائلة من الفيران) ٠ وخلال الشهور التالية يستمر النهر فى الانخفاض ببطء فى داخل مجراه حتى يصل الى أدنى نقطة مستوى له قبيل بداية فيضان العام التالى ٠ كانت هذه نظرة على جغرافية مياه النيل خلال عام ٠

فى عصور ما قبل التاريخ كان سكان مصر يدركون بالفعل أن حجم ما كانوا يحصلون عليه من محصول فى أى عام له علاقة مباشرة بارتفاع فيضان النيل ٠ كتب بلينيوس الكبير فى كتابه « التاريخ الطبيعى » أن الارتفاع المناسب هو ست عشرة ذراعا ٠ واذا قل الماء عن ذلك فلا يمكن له رى كافة الأماكن ، كما أن ارتفاعه الى أكثر من ذلك يؤخر انسحاب المياه فترة طويلة مما يعوق القاء البذور لاستمرار تشبع التربة بالماء ،

---

(٣) J. Antes, op. cit., p. 86, Seneca, Natural Questions, 4, 2.
والأخير ذكر فى نهاية القرن الثامن عشر « حينما يكون النيل فى أقصى ارتفاع له فان القرى التى كانت تحوطها غابات من النخيل وأشجار الفاكهة الأخرى كانت تبدو كجزر فى بحر لا نهاية له ٠ وكانت بعض الأماكن أعرض مما يستطيع البصر أن تصل اليه وهو منظر بهيج » ٠

بينما لا يسمح العكس بموسم للبذر حيث تكون التربة شديدة الجفاف . وتقدر مصر الحساب التالى : عند ارتفاع النهر الى ١٢ ذراعا تواجه البلاد مجاعة وعند ١٣ ذراعا يظل هناك خطر المجاعة ، وارتفاع النهر الى ١٤ ذراعا يجلب السعادة ، وبينما ارتفاعه الى ١٥ ذراعا معناه التحرر من القلق ، وعند ١٦ ذراعا تنحقق البهجة » . ويضيف بلينيوس الذى مات أثناء مراقبة ثورة بركان فيزوف فى عام ٧٩ ميلادية ، أن أقل ارتفاع للماء تم تسجيله حتى عصره هو خمس أذرع فى عام ٤٨ قبل الميلاد . بينما كان أعلاه ١٨ ذراعا وكان فى عام ٤٥ ميلادية . وقد نشرت حديثا بردية تقدم دليلا غير مباشر عن كارثة انخفاض فيضان عام ٩٩ ميلادية أدت الى حدوث مجاعة عامة مما حمل الامبراطور تراجان ـ اذا كان لنا أن نصدق أحد مادحيه بلينيوس الصغير ـ على أمره لبعض السفن المحملة بالقمح من مصر بأن تعود اليها ثانية بما عليها من شحنات ثمينة (٤) .

من الواضح أنه من المفيد أن نعرف مسبقا ما يجب علينا أن نتوقعه. ومن هنا كان اختراع مقياس النيل . ومقياس النيل فى شكله البدائى كان مجرد صخرة تقع فى مكان مناسب فى النيل ، أو عمود يضعه الانسان فى النهر ويحفر عليه عدد من الحزوز الأفقية المتدرجة لقراءة ارتفاع مناسيب المياه فى السنوات المتعاقبة . وفى العصور التاريخية أقاموا أبنية أشد طموحا وان كانت تقوم على نفس الفكرة . كانت عادة بئر كسيت جدرانها بالأحجار بعناية أو غرفة ينزل منها المرء الى النهر على عدد من درجات السلم . وكانت هناك حزوز أفقية على الجدار الداخلى تبين ارتفاع الماء مقدرا بالذراع وأجزائه (الذراع ٥٢٫٥ سنتيمترا) . ولم يزود نهر آخر فى العصور القديمة بمثل هذه الابتكارات التى بهرت الزوار القدامى كثيرا ، كما بهرت السائحين اليوم وبعض هذه المقاييس لا يزال قائما ويمكن زيارته . هناك مقاييس أقيمت من أجل الارشاد المحلى فى كثير من النقاط على طول النهر ، وأحيانا كانت تقترن بمعبد (النيل ـ كما رأينا فى الفصل الخامس ـ كان يعبد كاله) . وفى قرية اكوريس Akoris على بعد اربعين كيلو مترا الى الجنوب ، نستطيع حتى الآن قراءة سلسلة من النقوش تذكر أعلى ارتفاع للنيل سنويا لمدة اثنى عشر عاما أو نحو ذلك فى أواخر القرن الثالث . ولكن أكثر مقاييس النيل

---

(٤) Pliny, Natural History, BK 5, s. 58, Pliny the Younger, Panegyric, S. 31.

الفيضان المنخفض والمحاصيل الفقيرة كان يمكن أن يستدل عليها أيضا من نقص السكان الذى وصفناه فى الفصل الثامن .

أهمية ، المقياسان اللذان أقيما على جزيرة فيلة · لقد كان أول مقاييس الفيضان بعد دخوله أرض مصر · وبمجرد وصــول الفيضان هناك الى الذروة · ينقل أخبار أعلى ارتفاع لمياه النيل رسول خاص طول الطريق الى الاسكندرية حيث يقوم المكتب الحكومى بها بتقدير حجم المحصــول وتوقعات ايرادات الضرائب · وهناك بعض التسجيلات لمستوى المياه فى بعض السنوات نقشت على أحد مقاييس النيــل فى الفنتين ما يزال من الممكن قراءتها كالتالى : ــ

فى العام الخامس والعشرين للامبراطور أغسطس قيصر ، ٢٤ ذراعا ٤ يد و ١ اصبع [٥ ق·م]

فى العام ١٣ للامبراطور نيرون قيصر ، ٢٤ ذراعا و ٦ يد و ١ اصبع [٦٧ م]

العام العاشر للامبراطور دومتيان قيصر ، ٢٤ ذراعا و ٤ يد [٩١ م]

العام ١٤ للامبراطور تراجان قيصر ، ٢٤ ذراعا [١١١ م]

كتب هيرودوت يقول « ليس فى العالم قاطبة أناس يحصلون (٥) على محصول من التربة بعمل قليل جدا كهذا · انهم لا يتكبدون عناء شق الأرض الى خطوط بالمحراث أو عناء العزق أو القيام بما تقوم به الشعوب الأخرى من عمل لانتاج محصول ما · فالنهر يرتفع من تلقاء نفسه فيروى حقولهم ثم ينسحب بعد الرى · حينئذ يقوم كل منهم بزراعة حقله بأن يطلق فيه الخنازير التى يستخدمها لتضغط البذور الى أسفل (وما عليه بعد ذلك الا) أن ينتظر الحصاد » (٦) · نستطيع فهم أسباب الذهول الذى انتاب هيرودوت · فلكونه يونانيا فقد أتى من ناحية من العــالم اضطر فيه الناس لتحمل عناء الجرف والحفر اللانهائى والحذق فى ذلك بغية استخلاص محصول من تربة رقيقة صخرية · ولكن الزراعة المصرية لم تكن عملا يخلو من العناء كما تصور هيرودوت · فقد كان المزارعون المصريون يقومون بحرث الأرض ، كما كانوا ينتظمون فى عزق الأرض وزراعتها واضافة أسمدة أخرى اليها عند الحاجة لاسيما فى الرقع المزروعة بالخضروات وبساتين الزيتون ·

---

(٥) SB 8392 = IGRR I 1290.
أما مقياس النيل الثانى فى الفنتين فقد اكتشف حديثا راجع أيضا الفصل الخامس هامش رقم ١٢ ·

(٦) Histories, BK 2, ch. 14.

وكخطوة أولى كان يتعين توجيه مياه الفيضان الى الأماكن التى تشتد فيها الحاجة اليها أو الى الأماكن التى لا يمكن للمياه أن تصلها دون عون بشرى . ولتحقيق هذه الغاية وضع نظام للرى صمم لأول مرة فى عهد الفراعنة ، ثم اتسع تحت حكم البطالمة . كان هذا النظام أكثر اتساعا فى حوض محافظة أرسنوى المند . وخلال فترة الضعف ـ والتمزق المالى الذى اتسم بها حكم أواخر البطالمة ـ أصبح جزء كبير من هذا النظام فى حالة سيئة بسبب انعدام الصيانة الصحيحة . وقد صمم اكتافيوس على أن يجعل الاقليم الذى اكتسبه حديثا مصدرا للقمح يعتمد عليه للمساعدة فى اطعام مدينة روما . وعليه خصص جنوده وسخر مجموعات من العمال المحليين للعمل فى اعادة بناء السدود المنهدمة وتطهير القنوات المهملة بأسرع ما يمكن . وأصبحت الصيانة المنتظمة بعد ذلك أمرا مضمونا من خلال السخرة التى فرضت على الناس . ففى كل عام كان يطلب من كل راشد قادر يعمل بالأرض مع عبيده ان كان له عبيد أن يؤدوا حصة معينة من العمل بدون أجر فى السدود والقنوات . وكانت المدة العادية المحددة لذلك هى خمسة أيام كل عام بالاضافة الى أيام أخرى ان دعت الضرورة لذلك فى الحالات الاستثنائية . وفى مصر العليا وبعض الأنحاء الأخرى كانت مدة السخرة تقاس بمساحة الأرض وليس بزمن العمل .

كانت تفاصيل العمل وجزئياته تدخل فى دائرة اهتمام الحكومة المركزية بالاسكندرية التى كانت تحرص على أن تنقل تعليماتها من خلال سلسلة من الأوامر الى أصغر وحدة محلية . والخطاب الدورى التالى يصور ذلك الاهتمام ، وهو موجه الى المحافظين وجامعى ضرائب الحبوب فى المحافظات . أرسل هذا الخطاب من الاسكندرية بتاريخ أول ابريل عام ٢٧٨ ميلادية ، وهو الوقت الذى تكون فيه مياه النيل قرب أدنى منسوب لها خلال دورتها السنوية . ومما لا شك فيه كانت هناك مذكرة مماثلة يجرى اصدارها بشكل روتينى كل عام :

« حل موسم اصلاح السدود وتطهيرالقنوات ، وقد وجدت من الحكمة أن أذكركم من خلال هذا الخطاب بأنه يجب على جميع الفلاحين فى منطقتكم أن يبدأوا العمل بحماس كامل من أجل انجاز المهام الملقاة على عاتق كل منهم لفائدة الجمهور ككل ولفائدة كل فرد منهم على حدة . وانى واثق أن كلا منكم يدرك ما تسفر عنه هذه الأعمال من نفع : لذلك يجب عليكم ـ كما تنص اللوائح ـ مراعاة اختيار المراقبين المعتادين من بين الموظفين

السامين والمواطنين لكي يقودوا – دون حقد أو محاباة – بالزام كل واحد بانجاز ما يطلب منه من أعمال شخصيا ، حتى ترتفع السدود الى الحد المنصوص عليه طولا وعرضا وحتى يتم سد الشقوق من أجل ضمان قدرتها على الصمود أمام الفيضان القادم السعيد لأقدس نيل ٠

كما يجب تطهير القنوات حتى مستوى التطهير المعتاد كما يقال ، وذلك حتى يسهل عليها احتواء المياه المندفقة الواردة وتوجيهها لرى الحقول ، من أجل المصلحة العامة ٠ ولا يسمح مطلقا لأى شخص أن يدفع مالا عوضا عن العمل والمجهود البدنى ٠ فاذا تجاسر أى فرد محاولا شيئا من هذا النوع أو أهمل هذه الأوامر فسوف تتم محاكمته وتعريض كل من ممتلكاته وحياته للخطر بسبب ما يقوم به من تخريب الاجراءات التى تستهدف خلاص مصر كلها » ٠ ان العبارتين الأخيرتين تشيران الى مشكلة مزمنة عانى منها نظام السخرة : وهى المحاولات المختلفة للتستر والرشوة والمحاباة ٠ وفى قضية حدثت قبل ذلك بقرنين اتهم اثنان من موظفى القرية ملاحظا « يتقاضى ٤ دراخمات من كل واحد من تسعة وخمسين رجلا مقابل عدم عملهم فى السدود العمومية ... كما اتهم (أيضا) بحماية تسعة آخرين بنفس الكيفية » (٧) ٠

كان العمل فى الواقع يستمر على مدار العام حسب الحاجة ٠ ولكن رغم كل الاستعدادات التى أشار اليها الخطاب السابق فان الاحتياجات الكبيرة لهذا العمل كانت تأتى خلال أشهر الفيضان – حيث كانت هناك ضرورة مطلقة لتوجيه المياه الثمينة الى حيث تدعو الحاجة اليها ٠ وعادة كان الرجال يعينون للعمل داخل أو بالقرب من زمام قراهم ٠ ومع ذلك نعرف على الأقل ثلاث حالات لعمال قاموا بما كلفوا به من عمل خلال خمسة الأيام (السخرة) على مسافة عشرين كيلو مترا تقريبا بعيدا (عن قراهم) ٠ وهناك ١٨١ رجلا من تبتيونس Tebtynis أرسلوا الى قرية تبعد مسافة اثنى عشر كيلو مترا فى أوائل شهر فبراير – وهو

---

(٧) P. Oxy. 1409 (= Select Papyri 278) and 3264.

هناك ذكر لغش وتلاعب فى تحديد العمل باحد السدود وذلك فى الوثيقة التى ذكرت بهذا الخصوص فى الفصل الثامن ٠ وقد قيل أن نابليون أثناء وجوده فى مصر وجه عنايته الفائقة لصيانة أعمال الرى قائلا « لا يوجد بلد للحكومة فيه مثل هذا النفوذ على الرخاء العام ، فالحكومة لا سيطرة لها على المطر أو الجليد الذى يسقط فى Beauce أو Brie ٠ ولكن فى مصر فان الحكومة ذات تأثير مباشر فى توجيه الفيضان ٠ وهذا هو الاختلاف فى ادارة مصر بين البطالة ومصر التى أصابها التدهور تحت حكم الرومان ، وأخيرا دمرت تحت حكم الأتراك » ٠ (مقتبسة من :

— F. Charles-Roux, Bonaparte, Governor of Egypt, London, 1937, pp. 113-4.

وقت يكون فيه النهر قد انحسر داخل مجراه منذ فترة طويلة ومستمرا فى الانخفاض ـ ولابد أن هذا (التكليف) كان استجابة لموقف طارىء لحدوث كسر هائل بسد رئيسى تطلب عددا كبيرا من الأيدى العاملة (٨) .

كان العامل بعد انهاء الفترة المقررة عليه يتسلم ابراء ذمة كتب بطريقة سيئة على قصاصة برديه أو على قطعة من شقف الفخار . وتقدم هنا واحدا من بين أكثر من أربعمائة مثل باق :

« فى السنة الثالثة عشرة للامبراطور تيبيريوس كلوديوس قيصر أوغسطس جيرمانيكوس [عام ٥٢ م] عمل بسينامونيس Psenamounis ابن هرباجاثوس Harpagathos فى قناة بورسيرى Porsieré الملاحية فترة خمسة الأيام المقررة فى انجاز العمل المكلف به عن السنة المذكورة بالنيابة عن [قرية] سوكنوبايو نيسوس Soknopaiou Nesos أنا كوراكس Korax قمت بالتوقيع على هذا . ووقعت أنا سوخاس Souchas الكاتب الملكى (للمحافظة) على هذا أيضا » (٩) .

كان على نظام الرى أن يحل مشكلة واجهته فى كثير من الأماكن . فالماء لا يجرى الى أعلى ، حتى عندما ينساب بحرية داخل الجداول ، وكذلك فى أثناء الأشهر التى يكون فيها منسوب الماء منخفضا . ومن ثم يتعين رفعه الى الأرض الأكثر ارتفاعا بوسائل صناعية ، منها طنبور أرشميدس الذى يطلق عليه بالاغريقية Kochlias . ويؤكد ديودورس استخدامه فى الدلتا . كما يحدثنا أسترابو عن ١٥٠ أسيرا كانوا يزودون بالماء معسكر فرقة رومانية قرب منف وذلك باستخدام الطنابير والسواقى . أما أغلب الفلاحين ، والذين كانت امكاناتهم دون شراء وتشغيل الطنابير نظرا لارتفاع ثمنها ، فكانوا يستخدمون آلة واحدة أو آلتين أكثر بساطة . ولا تزال هذه الآلات التى نشطت فى العصور الأولى السحيقة سمة مميزة لمنظر الريف المصرى (اللوحتان ٦ ، ٧) . احداهما كان يطلق عليها Kelon الذراع المتأرجحة فى مصر تحت حكم الرومان وتعرف اليوم بالشادوف . وهو عبارة عن عمود خشبى مثبت على محور يعمل كالأرجوحة بأحد طرفيه دلو ينغمس فى الماء ويقابله فى الطرف الآخر ثقل يعمل على تسهيل رفع الدلو عند امتلائه . وهناك آلة أخرى تعرف اليوم بالساقية

---

(٨) التكليفات باعمال بعيدة توجد فى P. Fay. 79
SB 5 124, p. Mich 381, P. Grenf. II 53 d

(٩) SB. 9567. هذه الايصالات غالبا كانت معدة بكثرة مع ترك مساحة خالية لتسجيل اسم صاحب الايصال ، أما فى القرن الثانى فان هذه الايصالات أيضا كانت تحدد الشهور والأيام التى تم فيها العمل .

والميخانى Mechane (واحيانا يطلق عليها ببساطة العجلة Trochos)
وهى أساسا عبارة عن ترس مثبت عند فوهة البئر يتعامد عليه ترس
افقى متصل بعود خشب ربط اليه ثور أو حيوان آخر من حيوانات الحمل .
يدور الحيوان فيدير الترس الأفقى وهـذا يدير الترس الرأسى المثبت
عند فوهة البئر فتدور معه سـلسلة لا متناهية من الدلاء تمتلىء عندما
تنغمس فى الماء الى أسفل ثم تنسكب محتوياتها عندما تصبح فى وضع
مقلوب بوصولها أعلى قوس فى الدائرة (١٠) .

ومع هذا فان جهود الانسان ومهارته لم تستطع أن تنتج محصولا
معتادا فى عام ينخفض فيه ماء النيل عن الحد الأدنى المطلوب . وهناك
مجموعتان من الوثائق من عهد هادريان (١١٧ ــ ١٣٨ م) توضحان
التقلبات التى كانت تحدث بسبب الاعتماد الكلى على الفيضان . لدينا
عدد من الطلبات قدمت للامبراطور بعد عدة أشهر من اعتلائه العرش بهدف
خفض الضرائب ، حيث ان هادريان قيصر كان قد أصدر مرسوما يقضى
بدفع ضريبة على الأراضى الملكية والعامة وضيعات الامبراطور بقدر متناسب
مع انتاجها الفعلى وليس بحسب اللائحة القديمة . والطلب التالى واحد من
أفضل ما حفظ من هذه الطلبات :

« الى أبولونيوس ، محافظ القرى السبع بمحافظة أبوللينوبولس ،
من بافيس Paphis بن عونيس Hones واخوته ، من قرية تيرثيس
Terythis . قرب القرية المذكورة مسجل باسم أبينا هونيس أراض
ملكيـة كالآتى : ٣½ أرورة بضريبة ٣¼ أردب (للآرورة) و ١½ أرورة
أخرى و ٦ ٣/٤ أرورة بضريبة ٢ أردب و ١/٦٤ أرورة بضريبة ٥½ أردب ،
وأرورة واحدة بضريبة ٤ ٢/٣ أردب ، والجملة ٦ ٤٧/٦٤ أرورة . (الآن حيث
ان هذه الأرورات لا تنتج ما يكفى لمثل هذه الضريبة العالية . فاننى أنوء
بحمل الايجار ، وطبقا لأوامر سيد العالم العظيم قيصر هدريان ، فاننى
أرغب فى العمل فى الأرض فى المستقبل بضريبة ١/٢٤ ١ أردب من القمح لكل
أرورة على أن أعفى من دفع ضريبة الأرض التى لا يغمرها (الفيضان)

---

(١٠) Diodorus, Historical Library, Bk. I, ch. 34. Strabo, Geography, BK 17, Ch 1, Sect 30.

وفى احدى البرديات التى نشرت حديثا :

Scritti ... Montevecchi, Bologna, 1981, p. 318.

نرى كاتب المظلمة يشكو الى رئيس البوليس فى قريته أن احد جيرانه قد كسر القاعدة
التى تحمل دعامة رافعة كانت لابنه المتوفى حديثا . » وعدا يجعل جلب المياه لكرمه اصعب
باستعمال الدلو امرا مستحيلا ... ولذلك فان الكرمة قد جفت ونبعا لذلك عانت من
تلفيات ليست بالقليلة » .

وأن أدفع النصف للأرض التى تروى بالرفع كالعادة ، حتى أستطيع أن أشارك فى عمل الخير وداعا ـ (التاريخ ٨ ديسمبر ١١٧ م) » ٠

قرب نهـاية حكم هادريان وجد من الضرورى مرة أخرى أن يقدم لمزارعى مصر شكلا من أشكال التخفيض الضريبى ٠ ففى ٣٠ مايو عام ١٣٦ م أصدر مرسوما ـ حفظته قصاصتان من البردى فى القاهرة وقصاصة ثالثة فى أسلو ـ يشير فيه الى « عدم كفاية ونقصان » فيضان النيل فى عامين متتاليين وعليه يمنح الحق فى تأجيل سداد الضرائب لمدة تتراوح بين سنتين وخمس سنوات (١١) ٠

السنة الزراعية :

يجدر بنا الآن قبل أن نبحث فى المحاصـيل الرئيسية فى مصر الرومانية وطرق انتاجها ، أن نبدأ بعرض التقويم الزراعى الذى يبدأ من أول شهر توت [٢٩ أغسطس] مخالفا بذلك التقويم المدنى الرومانى ٠ وفيما يلى جدول زمنى بالأنشطة الكبرى فى سنة زراعية عادية حسب توقيت حدوثها بالقرب من ممفيس ومحافظة أرسنوى ، مع ملاحظة أن كل نشاط يكون قد حدث فى اقليم طيبة فى موعد أبكر باسبوعين الى أربعة أسابيع :

يونيو [بؤونة] Payni بداية ارتفاع النيل ٠ انتهاء حصـاد محاصيل الغلال ، واستمرار الدرس ٠

يوليو [أبيب] Epiph : ارتفـاع النيـل بسرعة ، ودخوله مرحلة الفيضان ٠ ، واستمرار الدرس ٠

اغسطس [مسرى] Mesore اقتراب النيل من الفيضان الكامل ٠ والبدء فى جمع الكروم ٠

سبتمبر [توت] Thoth بلوغ فيضـان النيل الذروة وبدء انخفاضه ٠ الانتهاء من جنى الكروم ٠ جنى البلح ٠

اكتوبر [بابة] Phaophi : انتهاء فيضان النيل ٠ البدء فى زراعة محاصيل الغلال ٠ جمع الزيتون ٠ بلوغ حصاد البلح الذروة ٠

نوفمبر [هاتور] Hathyr : استمرار زراعة الغلال وبدء الزراعة ٠ جنى الزيتون وبعض التمر ٠

---

(١١) الوثيقة موجودة بالكامل فى . p. Brem 36 وهناك ترجمة لمرسوم ١٣٦ نجدها فى L. R II, pp. 396-7.

ديسمبر [كيهك] Choiak : استمرار الزراعة ، جنى الزيتون ٠

يناير [طوبة] Tybi : انتهـاء حصـاد الزيتون ٠ بدء الموسم الزراعى الجديد للكروم والزيتون ٠

فبراير [امشير] Mechir : بدء الاستعدادات لحصاد القمح ٠

مارس [برمهات] Phamenoth : استمرار هذه الاستعدادات ٠

أبريل [برمودة] Pharmouthi : بدء حصاد القمح ٠

مايو [بشنس] Pachon استمرار الحصاد ، وبدء الدراس ٠

محاصيل الغلال :

كان القمح والشعير المحصـولين الرئيسيين ، فالأول ينتهى الى صناعة الخبز والثانى يستخدم أساسا فى صناعة الجعة ٠ [عملية التجهيز والصناعة كانت قد اكتشفت منذ آلاف السنين قبل ذلك] نوع ثالث من الغلال يعرف باليونانية Olyra ٠ وكان يعتبر ناتجا أردأ ولذلك كان يزرع بكميات أقل كما كان يعطى أحيانا حتى كغذاء للحيوانات ٠

كان الفلاح حينئذ ـ كما هو الآن ـ رجلا يقوم بكل عمل وقادرا على أن يمد يده لأى من الأعباء الكثيرة التى يتطلبها الموسم أو الموقف ٠ كان العمل الزراعى قبل الثورة الصـناعية يعتمد على جهـد المزارعين وحيواناتهم المستأنسة للاشتغال فى الأرض بمساعدة بعض العدد والآلات البسيطة ٠ بعض الأنشطة الزراعية القليلة كانت تحتاج بالتأكيد درجة من التخصص أو الخبرة ٠ فعندما نقرأ على سـبيل المثال عن أشـخاص استؤجروا لتقليم الكروم ، يمكننـا أن نفترض أنهم لم يكونوا مجـرد مزارعين عاديين ، بل رجالا ذوى مهارة خاصة فى ذلك العمل ٠ ولكن لابد أنهم كانوا يقومون أيضا بأعمال أخرى فى المواسم الباقية من السنة فى سبيل كسب العيش ٠ وفى الحقيقة فان الأشخاص الوحيدين فى الميدان الزراعى الذين كانوا متفرغين تقريبا أو كلية لوظيفة واحدة على مدار العام هم مديرو الضياع ومراقبو العمل فيها وبعض الذين يتعلق عملهم بالحيوانات المستأنسة ـ كرعاة الأغنام ـ ورعاة البقر وسياس دواب الحمل ٠ ومع ذلك فحتى هؤلاء قاموا بمهام أخرى عندما دعت الضرورة الى ذلك ٠

لم تلعب قوة عمل العبيد دورا هاما فى الزراعة تقريبا ـ كما ذكرنا فى الفصل الرابع ـ فقد كانت أغلب الأراضى بكافة أنواعها ـ سواء كانت ملكية أو عامة (أى ملك الدولة) أو خاصـة تخص ضيعة امبراطورية أو معبدا ـ تجرى زراعتها بموجب عقود ايجار وايجار من الباطن بمعرفة

مستأجرين أفرادا كانوا أو مجموعات · وكانت الضيعات الكبيرة يجرى تشغيلها جزئيا بموجب مثل هذه العقود او جزئيا باستئجار عمال بالأجر بعضهم يعمل بصفة دائمة ، أما الباقون فكان يتم استخدامهم لسد حاجات موسمية · وكان هناك بين صغار المزارعين الذين حظوا بحيازة بعض الأرض من قاموا بتشغيل أملاكهم كمشروعات عائلية ، بينما فضل الآخرون تأجير حقولهم الى مستأجرين ، أو اذا كان لأحد — كما يحدث أحيانا — قطع متناثرة متباعدة من الأرض فحينئذ قد يقوم بنفسه بزراعة الأراضي الأقرب الى بيته ويؤجر تلك الأكثر بعدا · وان معظم الايجارات الباقية تنص على دفع ايجار ثابت عينا أو نقدا أو بكلتا الطريقتين ·

وكما هو معتاد فى الوثائق القانونية فقد اتبعت عقود ايجار الأراضى أشكالا موحدة واستخدمت صيغا بعينها تعد جوهرية لضمان فاعليتها وامكانية تنفيذها · وكانت المتغيرات فى العقود — بالطبع بخلاف الأسماء والأوقات والأماكن — تشمل مدة العقد والتفاصيل والشروط والالتزامات الخاصة بالطرفين · وكانت خطوات ابرام العقد تبدأ بعرض مكتوب أو شفوى موجه الى المالك او من يمثله · وكان العقد فى أبسط صوره يتكون من هذا العرض المكتوب يؤشر عليه الموجه اليه العرض · ومع ذلك فان الشيء الأكثر شيوعا هو ابرام عقد الايجار كأداة منفصلة · كانت هذه « المعاملات » تتم عادة قبيل موسم الزراعة أو فى أوائله ، واذا استمر سريان العقد أكثر من سنة واحدة فانه يتضمن عادة شرط دورة أو تعاقب المحاصيل : —

« الى هيرون Heron بن سرابيون Sarapion ، القاصر الوصى عليه اسخيريون Ischyrion بن هيروديس Herodes وفى حضور والدة القاصر هيرويس Herois ، من أفروديسيوس Aphrodisios ابن اكوسيلاوس Akousilaos ، من المتروبولس (أرسنوى) · أرغب فى استئجار الكرمة التى يمتلكها هيرون قرب قرية ايوهيميريا — ١١ أرورة او اكثر حسبما تكون — لمدة عامين ابتداء من العام الحالى الثالث والعشرين من حكم سيدنا أنطونينوس قيصر ، بايجار سنوى اجمالى لكل الأرورات ٤٠ اردبا من القمح(*) (تضم التقاوى) بمكيال المعبد ، بدون خصم أو مخاطر [للمؤجر] · سوف أقوم بالأعمال السنوية — عمل السدود والرى

(*) مكيال للمحاصيل الجافة = ٢ ، ٧ر٠ Kotÿx Choenix = حوالى ١½ بنت (البنت Pint الواحد ٥٦٨ر لترا) ·

المناسبة ، دون أن أتسبب في أى ضرر • وسأقوم في السنة الأولى ببذر الأرض بما اختاره من محاصيل فيما عدا الشوك ، وفي السنة الثانية [سأزرع] نصفها بالقمح والنصف الثاني بغلة تريح الأرض • والضرائب السنوية للنقل سأقوم بدفعها ، أنا أفرودسيوس ، أما كل الضرائب الأخرى فيدفعها هيرون • سأقوم بدفع الايجار السنوى في شهر بؤونة [قمحا] ، جديدا نظيفا نقيا خاليا من الشعير في قرية ثيادلفيا Theadelphia وأتعهد طبقا لشروط [هذا العقد] وبعد حصاد المحاصيل المزروعة أن أعيد الأرورات خالية من البوص أو الحشائش أو أى نوع من أنواع النفاية ، اذا ما وافقت على منح العقد • أفروديسيوس ، حوالى أربعين عاما له ندبة في منتصف جبهته • [تاريخ ٩ نوفمبر ١٥٩ م] (١٢) •

ان ذكر البذور في الوثيقة التالية يذكرنا بمشكلة مزمنة تواجه مستأجرى الأرض من المزارعين – هذه المشكلة هي الحاجة المتكررة لاقتراض بذور للزراعة أو اقتراض المال اللازم لشراء البذور • كان متوسط الفائدة المتداولة واحدا في المائة شهريا بالنسبة للمال وخمسين في المائة سنويا من الكمية في حالة القرض العينى • كان الاتفاق يتم أحيانا مع المؤجر كجزء من العقد ، وأحيانا أخرى كان الاقتراض يتم من طرف ثالث • وكان مستأجرو أرض الدولة لديهم ميزة واحدة في هذا الخصوص : اذ كان يمكنهم الحصول على الكمية المطلوبة من البذور من صومعة الغلال الخاصة بالدولة بقرض معفى من الفوائد • ولكنهم بالمقابل كانوا يدفعون للحكومة جزءا من المحصول أكبر بكثير مما كان يدفعه مزارعو الأراضى الخاصة للملاك • ورغم أن اقتراض البذور من مخزون الحكومة يبدو عملية بسيطة الا أنه في الحقيقة كان عملية تتم بحذر شديد على أمل أو على الأقل لعدم تشجيع الغش • فنجد حتى قرضا صغيرا جدا

---

(١٢) P. Ahm. 91. يظهر التركيز على منع زراعة الزعفران Safflower: في عدد لا بأس به من عقود الايجار ، ويكون هذا المنع دون تبرير وان كان الواضح ان السبب كان واضحا بصورة قاطعة لطرفي العقد • وهكذا فان علينا أن نبحث عن السبب الذى دعا الى هذا الاستثناء • الأمر محير خاصة ونحن نعرف أن الزعفران كان يزرع ويقدر من أجل زيته (الفصل السادس) • وقد وضعت هذه المشكلة أمام عالم النبات ارثر • و • جلاستون من جامعة ييل Arthur W. Glaston فطرح التصور الآتى : ان الأقرب للعقل انه ربما كان يفرز من جذوره وأوراقه المتساقطة مركبات كيمائية تمنع النباتات الأخرى من النمو • مثل هذه المركبات والتى تعرف باسم المواد الـ allelopathic غالبا ما تستخدمها النباتات الأخرى في عملية الحرب الكيماوية ضد جيرانها من أجل البقاء • واذا كان على ان أضع تصورا فسيكون هذا الاقتراح ، ولكنى في الحقيقة لست متأكدا من ذلك » •

لا يزيد عن أردب وربع من البدور يتطلب توثيقا طويلا وتفصيليا كما يظهر مما يلي :

« اسكليبيوس ، محافظ محافظة اوكسيرنخوس ، الى هيراكليس Herakles المعروف أيضا هيراكليديس Herakleides موظف صومعة الغلال في مركزى بيكركى Pakerke في الجزء الشرقي ، تحياتي . اوزن ، بأمرى أنا وهيراكس Hierax الكاتب الملكي للمحافظه ، من أفضل عينة من الانتاج خلال العام السابق الثالث عشر ، كبذور العام الجارى ١٤ من حكم سيدنا هدريان قيصر ، كقرض بذور لأبولونيوس Apollonios ابن هليودورس Heliodoros (أمه Thais بنت خيرمون Chairemon) من مدينة أوكسيرنخوس . عمره حوالى ٧٨ (سنة) وله ندبة على حاجبه الأيمن ــ وسوف تتحقق من شخصيته على مسئوليتك الخاصة ــ الذى طلبه لـ ١¼ أرورة من الأرض التى سوف يزرعها (تحديد الموقع بتفصيل دقيق) قرب قرية أوفيس Ophis ، أعنى أردبا وربع أردب من القمح ، نظيفا ، غير فاسد خاليا من التراب وخاليا من الشعير ، مغربلا وتم كيله بالمكيال العام والطريقة المعروفة للكيل . دون خصم أى شيء مقابل دين أو أى سبب آخر ، وهذه البذور سوف يزرعها في الأرض ، تحت الملاحظة المعتادة ، ومن المحصول الجديد سوف يدفع قدرا مساويا مع ضرائب الدولة على الأرض . وسوف تأخذ منه الايصال المناسب من نسختين ، وسوف ترسل لى نسخة منها (التاريخ ١٤ نوفمبر ١٢٩ م) (١٣) .

وبالرغم من الحصر والمراجعات الدقيقة اختفت كميات من القمح المملوك للدولة . وهناك بردية في ميتشجان لم تنشر بعد تحوى خطابا أرسله حاكم مصر في القرن الثالث الى محافظى أرسنوى وهبتانوميا Heptanomia يوبخهما فيه على تساهلهما مع موظفى صومعة الغلال المهملين . ويأمرهما بالتأكد من أن « أولئك الذين لهم الحق فقط هم الذين يتسلمون البذور لبذرها » .

وكان المفتشون المشار اليهم في خطاب المحافظ يعينون كخدمة تامة بلا أجر وكانت هذه الخدمة دورية على الموسرين (الفصل الثامن) ، للتأكد ليس فقط من أن كل البذور قد بذرت دون تبديد ، بل أيضا التأكد من تمام البذر في الموسم المناسب . وقد كتبت مجموعة من هؤلاء المفتشين التقرير التالى في ١١ سبتمبر سنة ١١٧ م ــ في ذلك الوقت من العام عندما تبدأ الأرض في منطقتهم تظهر بعد انحسار الفيضان :

---

(١٣) P Oxy 1024.

« الى أبوللونيوس Apollonios ، محافظ القرى السبع فى محافظة ابولينوبولس Aplino polis · من بخيرس Pcheris ابن بيوريس Pouoris وارسونوفيس Orsenouphis بن بيتمينيس Peteminis مراقبى الفيضان فى قرية نابو Naboö نقسم بعظمة الامبراطور قيصر تراجانوس هدريانوس أبتيموس أوغسطس جيرمانكوس داكيوس بارثيكوس أننا سوف نجعل الأراضى المسجلة أدناه تحرث لكى تكون مستعدة للبذر خلال ثلاثة أيام ، أو نكون مستعدين لتحمل تبعات قسمنا ·

(أسماء ٩ قرويين (واحد منهم فقط اغريقى) مع تسجيل مساحة كل منهم وهى تتراوح بين أرورة واحدة وست أرورات · تاريخ · توقيعات· بخريس كتب أيضا لأرسونوفيس الأمى) (١٤) ·

لابد أن الأشهر التى تلى عملية البذر كانت تتطلب انتباه الفلاح للزراعة والمهام التى تتعلق بها · فبعض العقود كانت تحدد العمليات بتفصيل دقيق كما شاهدنا من قبل · وتحتوى عقود أخرى ، كما فى النموذج التالى على معلومات مفصلة حول استخدام الآلات التى ذكرت ضمن الممتلكات :

« أوريليوس ديونيسوثيون Aurelius Dionysotheon الذى لقب أيضا ، بالجمنازيارخ السابق ورجل مجلس مدينة أوكسيرنخوس ، أجر لأوريليوس هريوتيس Haryotes بن فنـاس Phnas وتانيخوتيس Tanechotis من كفر مونيموس Monimcs ، لأربع سنوات من العام الحالى الثالث من أملاكه قرب سكو Sko ومونيموس الـ ١٢ أرورة التى سبقت زراعتها بمعرفة نفس المؤجر ، والتى تضم ساقية بكل تجهيزاتها من الخشب والحديد ، وفى كل عام سـوف يبذر ما شـاء له من الحبوب وحشائش يختارها فيما عدا ورد النيل والكسبرة ، مقابل ايجار سنوى ١٤٥ أردبا من القمح وعشر أرادب من بذور الخضروات ، بالاضافة الى ٣٠٠ دراخمة ايجار الماكينة (الساقية) · ولرى الأرض فان المستأجر سوف يستخدم الساقية المذكورة ، مستخدما حيواناته ورجاله وكل شيء آخر مطلوب ، اصلاحات الساقية وأجرة النجارين والحراس سوف يدفعها المستأجر ، خالية من المخاطر (للمؤجر) · واذا حدث فى السنوات التالية على هذه السنة ـ ان أصبح أى جزء (من الأرض) غير منتج ، فان تعديلا (للايجار) سوف يتم (لصالح) المستأجر · وضرائب الأرض سوف

P. Alex. Giss. 25 (١٤)

يدفعها مالك الأرض ، الذى سيكون أيضا مالكا لكل المحاصيل حتى يتسلم الكميات التى تخصه فى كل عام·وطول مدة الايجارة فان المستأجر سوف يدفع الكميات السنوية فى شهر بؤونة ، من المحاصيل الموجودة فى جرن كفر مونيموس ، غير فاسدة ، خالية من الطين ، مغربلة ، كما كيلت فى الشونة العامة ، القمح بالمكيال الرسمى للمالك وبذور الخضروات بالمكيال المستخدم فى معصرة الزيت الخاصة بالمالك · وعند انتهاء المدة سوف يعيد الماكينة فى حالة جيدة ، وليست مستهلكة ، أو عليه أن يدفع قيمة اى شىء لم يعده · حق التنفيذ القانونى يسرى عليه وعلى كل أملاكه · وهذا الايجار سارى المفعول (التاريخ) ٢٢٣) (١٥) ·

وعندما حان وقت الايجار ، كان للمستأجر بالضرورة أن يتسلم ايصالا مكتوبا · وفيما يلى مثال نمطى لذلك (عثر على عشرات منه) :

« أنا ديميتريا المعروفة أيضا باسم تاسيوس Taseus ابنة أبولونيديس Apolonides ، وكذلك ابنى أريوس Areios بن نيارخوس Nearchus المعروف باسم منخيس Menches ممثلا قانونيا عنى ، الى الفلاح المستأجر أنوبيون Anoubion بن سيرابيون Serapion · تحياتى · لقد تسلمت منك من حصاد السنة الماضية التاسعة لعهد سيدنا هادريان قيصر كل ايجار الأرورات الخاصة بى والتى قمت بزراعتها · وليس لى أن أطالبك بأى شىء كان ، أما الضرائب فأقوم أنا المالك بدفعها · (التاريخ ١٠ سبتمبر ١٢٥ م) · أنا أريوس بن نيارخوس المسجل ممثلا قانونيا عن والدتى وكتبت هذا نيابة عنها نظرا لأنها لا تعلم كيف تفعل ذلك»(١٦)·

ان العقد الذى اقتبسناه قبل هذا الايصال مباشرة يشير الى حاجة الفلاح لاستئجار خفراء·فقد كان من اللازم طوال موسمى الزراعة والحصاد حماية المحاصيل والمعدات ليس فقط من احتمال السرقة بل أيضا من احتمال اتلاف المزروعات الذى تقوم به الماشية الموجودة فى المراعى القريبة ، والحيوانات ــ اذا سمح لها ــ أن تغير على حقل قمح فتنشر الخراب حيثما وطئت ارجلها وحيثما أكلت · ونسمع شكاوى ضد الرعاة المستهترين الذين أطلقوا قطعانهم عمدا فى الحقول المزروعة التى

---

(١٥) P. Oxy, He!s. 41. ان الشرط الخاص بالأجزاء غير المنتجة لا يطبق على السنة الجارية لأن عقد الايجار بدأ والنيل كان قد ارتفع وفاض بالفعل فى الأرض محل الموضوع

(١٦) P. Amh. 104 = Sel. Papyri 73.

يمتلكها الآخرون · وفيما يلي مثال على التلف الذى حدث فى قلب موسم الحصـاد :

« الى جايوس Gaius يوليوس Julius فولوس Pholos ، رئيس البوليس ، من بطلميوس Ptolemaios بن ديديموس Didymos موثق بقرية يوهيميريا بقسم ثيمستيس Themistes · فى أول الشهر الجارى بؤونة فى السـنة الثالثة من حـكم جايوس قيصر أوغسطس جيرمانيكوس (الموافق ٢٦ مايو عام ٣٩ م) حدث أن الدعاة دارس Dares بن بطلميوس وكذلك سيراس Seras بن بايس Paës وأورسيوس Orseus (الملقب فيلكيس Phelkis (الحثالة) بن هيراكليوس ـ اقتحموا الأرض التى تخصنى بالقرب من القرية فى الجانب الغربى وأطلقوا فيها أغنامهم التى أخذت ترعى الشعير (القائم فى الأرض) والحزم (المربوطة) بما مقداره ١٢ أردبا من الشعير · وعليه التمس منكم اصدار تعليماتكم لاستدعاء المتهمين ليمثلوا امامكم حتى ينالوا العقاب المناسب » وداعا » (١٧) ـ·

ان أكثر المرات التى تردد فيها الحديث عن اتلاف الزراعات سواء كانت عرضية أو عمدية ـ كانت بلاشك فى السنوات والأماكن التى يندر فيها وجود العلف فى المراعى · وكان على المزارعين أن يلجأوا لاستخدام خفراء درك (أى متحركين) أو ثابتين · ولابد كان لمثل هذه الاجراءات بعض الفائدة الا أنها قلما كانت توفر الأمن الكامل · وظل هجوم الماشية (على حقول الغير) ظاهرة متوطنة فى الريف المصرى · ولم تكن الجهود المتكررة التى بذلتها السلطات لقمع هذا التعدى ذات أثر دائم · ونحو نهاية القرن الثالث أصدر حاكم مصر مرسوما ذهب فيه الى حد التهديد بأن الراعى الذى يطلق حيواناته بين المحاصيل ··· سوف تصادر حيواناته وسوف يتعرض هو شخصيا « لعقاب صارم » (١٨) · ولكن من المشكوك فيه أن هذا المرسوم نجح فى ردع عمليات السلب أكثر مما نجحت فيه الانذارات المبكرة · وتجمع الوثائق على استمرار الهجوم كما كان قبلا ·

تمر الشهور ، وقد تم بذر المحاصيل وتمت العنـــاية بها وحمايتها واقتربت السنة الزراعية من نهايتها · وهنا يأتى أكثر الأوقات ازدحاما وهو وقت حصاد الحبوب · فاذا كان هذا العام عاما متوسطا فما هو العائد المنتظر الذى يتوقعه الفلاح لقاء كده ؟ بكل أسف لا يقدم لنا البردى معلومات مؤكدة · لقد كانت مصر فى نظر اليـونان والرومان مكانا ذا الناحية أسطورية تقريبا · وقد سبق أن رأينا كيف تحدث هيرودوت عن خصوبتها

---

(١٧) P. Ryl. 147.
هناك مثال آخر موجود فى نفس الفصل والاثنان من الأرشيف المذكور ·

(١٨) P. Oxy. 2704.

والحرث والعزق وتطهير القنوات وبذر البذور وازالة الأعشاب الضارة وكل شيء مطلوب غير ذلك ــ وذلك على نفقتي الخاصـــة وفي الأوقات بانبيار . وكانت مدينة روما تعتمد عليها باعتبارها مصدر امدادها بثلث احتياجاتها السنوية من الحبوب . ولكن لاشيء يذكر لنا في كلمات محددة ما هو عائد الأرورة الواحدة من البذر الى الحصاد ، وعلينا أن نستنطق الأدلة غير المباشرة ونستخلص منها ما نستطيع من معلومات . اننا نعلم أن معدل العائد من الزراعة في ايطاليا وصقلية وصل الى خمسة أو ستة أضعاف ما وضع في الأرض من بذور ، وأن أكثر المناطق خصوبة هناك يرتفع انتاجها الى عشرة حتى خمس عشرة ضعفا . وحيث ان انتاجية الأرض المصرية أثارت ذهول الرومان ، فان هذا يحملنا على افتراض أن انتاج مصر الزراعي فاق انتاجية ايطاليا وصقلية وهناك معلومتان أخريان تردان لنا من مناطق أخرى ، احداهما تسجل ما يبدو أنه انتاج شعير قدره خمسة عشر ضعفا لمدة خمسة أعوام في مارمريكا Marmarica ، وهي شريط ساحلي على البحر المتوسط يقع على بعد مئات الكيلومترات غرب دلتا النيل . والمعلومة الأخرى ترد من مركز استطلاع عسكري يرجع تاريخه الى القرن السادس فيما يعرف اليوم باسم النقب في اسرائيل ، وتبين هذه المعلومة أن الحقول المروية في تلك المنطقة الصحراوية أنتجت سبعة أضعاف من القمح وثمانية أضعاف أو أكثر من الشعير . وعلينا هنا أيضا أن نتوقع تجاوز خصوبة وادي النيل الأسطورية لهذه العائدات . وأخيرا يوجد من مصر نفسها نوعان من المعلومات المتعلقة بالموضوع . **أولا** : ضرائب بمقدار ٨ : ١٤ أردبا لكل أرورة (الفصل الثامن) ومن الواضح أنها تعني أن الغلال المنتجة كانت بالضرورة أكثر من ذلك . **ثانيا** : الوثائق التي سبق اقتباسها في هذا الفصل تكشف عادة أن أردبا واحدا فقط كان كافيا لبذر أرورة كاملة من الأرض . وأن الايجار المعتاد كان يتراوح ما بين ٦ : ٩ أرادب لكل أرورة (وهناك حالة واحدة على الأقل سجل دفع ايجار يعادل ١٦ ضعفا) . واذا كان الايجار ــ كما توحي به اتفاقات المزارعة القائمة ــ في حدود ثلث الى ثلثي المحصول المتوقع ، فان عقود الايجار المذكورة أعلاه تشير الى معدل انتاج يتراوح بين تسعة وسبعة وعشرين ضعفا بالنسبة للبذور المزروعة . يتفق هذا المعدل مع البيانات الخاصة التي وردت من خارج مصر ، كما تتفق مع الاختلاف المعقول في

خصـــوبة الأرض التى تقع على الحـــدود عن تلك التى تقع فى قلب الوادى (١٩)

كانت هناك حاجـة الى كثير من الأيدى العاملـة الأخرى من أجـل الحصاد وبعضها كما رأينا ، لحراسة المحاصيل والحزم المحصودة ضد السرقة والتلف الذى تسببه الحيوانات • أما باقى الأيدى العاملة فكانت تقوم بالحصاد الفعلى وكان يتم الاستعانة بعمال باليومية من أى مكان يتوافرون فيه ، وبعضهم جاء من مناطق بعيدة ولذلك كان ضروريا منحهم علاوة تصل الى نصف الأجر المعتاد بسبب رحلتهم الطويلة من والى مكان العمل (٢٠) •

كانت الحزم تجمع وتربط ثم تحمل على الحمير أو الجمال الى جرن القرية (كان للضيعات الكبيرة أجران خاصـه) • ويذكر أحد التقارير الباقية رجلا وضع قائمة بنفقاته فى تلك المرحلة من العمل خلال أربعة أيام من شهر بشنس (مايو) • فقد استأجر أناسا لحزم النباتات ودفع لكل منهم أجرا يوميا قدره ثلاث دراخمات ونصف ، وفى هذا الموسم حيث تشتد الحاجة للأيدى العاملة كان يمكن لنعامل أن يحصل على أجر صانع ماهر • وكان يدفع قطعتين من الدراخمات عن كل حمار يستأجره ليوم واحد • أما سائقو الحمير ـ وهو عمل كان يمكن أن يؤديه أى شخص تقريبا حتى الصبية ـ فكانوا يتقاضون أقل من ذلك بمقدار أوبول واحد• وكان كل حمار ينقل ثمانى حزم مربوطة معا ويقطع ثمانى الى تسع رحلات يوميا بين الحقل والجرن ، وبالطبع اختلف هذا الرقم بالنسبة لفلاحين آخرين حسب طول الرحلة •

اننا لا نعلم كيف نظمت حركة المرور الكثيفة فى منطقة الجرن • وان كنا نتصور أن من يأتى أولا كان ينجز عمله أولا • وعلى أيـة حال

---

(١٩) Italy and Sicily : G. Rickman, The Corn Supply of Ancient Rome, pp. 103-4., Marmarica : P. Vat. 11 recto ; Negev. p. Ness. 82:
وقام جولســـون منذ ما يقرب من خمســين عاما بتقدير كمية المحصـــول فى كتابه
A. C. Johnson, Roman Egypt. p. 59.
على النحو التالى : ٤٪ : ١٠ أضعاف للقمح ومن سبعة الى اثنى عشر ضعفا للشعير وقد استمرت هذه المعلومات مستعملة حتى وقت قريب مثلا :
D. Bonneaw, Pabl. de la Sorbonne ; Série Etudes', 14, (1979, 65).
ولكن المعلومات المذكورة فى هذه الفقرة تشير الى أن هذه الأرقام فى حاجة الى مراجعة
D. Forabaschi, Scrritti ... Montevecchi, Bologna, 1981, pp. 155-61.
فهى تشير الى محصول تضاعف عشر مرات كالعاده ، كما نسبت المحاصيل الاعلى التى اختيرت الى أنواع مختلفة من الزراعات المركزة • وكمثال محصولان فى السنة • أما دفع ايجار مضاعف ست عشرة مرة فنجده فى P. Teb. 375.

(٢٠) P. Oxy 1049.

فعند هذه النقطة كان المزارع يفقد تحكمه الكامل فى محصوله • فكان القمح الذى تنتجه أراضى الخواص يصبح من الناحية القانونية ملكا للمالك الى أن يدفع المستاجر ما عليه من ايجار • وهنا يبرز اهتمام الدولة الزائد بجمع ا جزء من المحصول الذى من المفروض أن يصلها كضرائب • وكانت القرى مطالبة بتعيين خفراء لحراسة القمح الموجود بالجرن ضد السرقة • وتعيين مفتشين كذلك لفحص القمح مخافة الغش والعيوب الأخرى • وكان على رجال المنطقة أن يتناوبوا القيام بهذه الخدمات دون أجر (الفصل الثامن) • وفى احدى البرديات ، على سبيل المثال ، نقرأ عن قرويين كلفوا بالواجبات التالية : « حراسة الجرن ، حراسة المحصول ، التأكد من أن الحبوب التى كيلت كضرائب نظيفة وغير مغشوشة ، ومساعدة جامعى القمح فى حراسة الصوامع العمومية • وحفظها مختومة » (٢١) •

ان آخر هذه الواجبات المذكورة تنبهنا الى أن مسئوليات الفلاح ازاء المحصول لاتنتهى عند الجرن ولكن كان على الفلاحين أيضا تسليم بعض القمح الى الصومعة المحلية التى أعدت لاستقبال الكميات التى يجرى توريدها للدولة كضرائب ، وكذلك لتخزين القمح مقابل رسوم لمن يرغب• بعض المؤجرين كانوا يشترطون ــ كما رأينا ــ استلام الايجار الخاص بهم فى الجرن ونقله من هناك • آخرون ــ وربما كانوا الأغلبية ــ كانوا يستخدمون الصومعة المحلية (فى تخزين محاصيلهم) • وقد تضمنت عقود ايجار الأراضى شرطا عاما يتطلب من المؤجر دفع تكاليف نقل حصته من المحصول بينما يدفع المستاجر تكاليف نقل الكمية المستحقة للضرائب• كان التوريد للصومعة يحرر عنه ايصال مكتوب عثر على مئات منه على شقف الفخار (الأوستراكا) وأوراق البردى • وفيما يلى ايصال مبسط الصياغة يعود لعام ١٨٠ م :

« تم كيل قمح فى الصومعة العامة من محصول السنة الماضية التاسعة لعهد سيدينا أوريليوس أنطونينوس وكومودوس القيصرين ، عن طريق جامعى القمح لصالح سرابيون Sarapion بن خارسيوس Charisios من منطقة ابيسموس Episemos أربعة أرادب قمحا • (خط آخر) أنا • ديوجينيس Diogenes ، جامع الغلال ، قد وقعت (شاهدا)أربعة أرادب من القمح » (٢٢) •

وحتى ايداع القمح المطلوب منه للضرائب فى داخل الشونة العمومية كان لا يخلى طرف الفلاح اخلاء تاما فى هذا الشأن ، بل ان عليه فيما بعد

---

(٢١) P. Ryl 90.

(٢٢) P. Oxy 518.

أن يساعده فى نقل ذلك القمح من الشونة الى ميناء نهرى قريب حتى ينقل على القوارب فى النهر الى الاسكندرية (وفيما بعد يعاد نقله الى روما) . وسوف نلقى فيما بعد ، نظرة أكثر قربا على المرحلة الخاصة بتحصيل الضرائب فى الفصل الثامن .

وأخيرا ماذا عن القش الذى تخلف بعد عملية التذرية ؟ على كان يترك فى الجرن حتى تطيح به الرياح ؟ نادرا . ففى الاقتصاد الزراعى ليس هناك عنصر حيوى يهدر . وفى مصر الرومانية كان القش يحزم منفصلا وينقل لاستخدامه كوقود ـ على سبيل المثال لتسخين الماء فى الحمامات العامة ومعسكرات الجيش .

المحاصيل النقدية :

كانت محاصيل الحبوب تمثل القاعدة العريضة للزراعة المصرية ، الا أنها لم تكن المحاصيل الوحيدة التى أنتجها الفلاحون المصريون . وفى الحقيقة كانت الزراعة فى مصر الرومانية كثيرة التنوع .

خصصت أراض كثيرة كبيرة وصغيرة لزراعة الكروم . ومثلهم كمثل الاغريق والرومان كان المصريون فى أساطيرهم وأعيادهم يحتفلون بالكرمة وثمارها باعتبارها هدية اله ، وفى حالتهم كان هذا الاله هو أوزوريس . عرفت مصر الكروم منذ عصور ما قبل التاريخ ، واستمر انتاجه هناك حتى أوقف طبقا للفكر الاسلامى بعد الفتح العربى . وفى الفترة الرومانية نجد ذكرا لأكثر من اثنى عشر نوعا ، بما فيها بعض التى أقلمت بعد استيرادها من مناطق مختلفة من العالم الاغريقى (خيوس وكيليكيا الخ . . .) .

وخلافا لحقول الحبوب المفتوحة ، كانت حدائق الكروم غالبا محاطة بأسوار لحمايتها من الحيوانات والآدميين المغيرين . وأحيانا ، أيضا كانت حدائق الكروم تضم أشجار النخيل التى كانت أشجار الكروم تجد فى ظلها وقاية من حرارة الشمس المصرية المباشرة . وتتوالى مواسم زراعة الكروم بشكل مريح مع موسم محاصيل الحبوب ، ففى يناير وفبراير بعد موسم بذر الحبوب يأتى وقت تقليم الكروم القائم وحرث الأرض للزراعة الجديدة وترقب براعم جديدة . وبنفس النظام يأتى وقت قطف الكروم فى شهرى أغسطس وسبتمبر بعد اكتمال حصاد الحبوب . وكان العنب الناضج يجمع فى سلال وينقل الى أحواض خشبية أو حجرية حيث يداس بالأقدام البشرية ـ مع عزف على الناس فى بعض الأحيان لاضفاء البهجة على ذلك العمل الرتيب . وكانت العجينة الناتجة عن هذه العملية يستكمل عصرها فى معصرة والسائل الناتج كان يحفظ فى أوعية من

الفخار معالجة ضد الرشح • (لاشك أن الممارسة القديمة الخاصة بجعل الأوعية الفخارية ذات المسام لاينفذ منها سائل بتبطين جدرانها الداخلية بالقار عن أصل الخمر الراتنجي المعروف اليوم بكثرة في اليونان) • يلي ذلك التعريض للشمس سواء فورا أو بعد بضعة شهور في الأواني • ان الحرارة وما ينتج عنها من تبخر يجعل الخمر أكثر كثافة و — على الأقل بالنسبة للذوق المحلى — حلاوة • بعد ذلك تتم تصفيتها واعادة تعبئتها في أوعية جديدة ، حيث تكون الآن جاهزة للاستهلاك • أما الخمر التي لم تكن للاستهلاك الفوري فكانت تخزن بعيدا في أوعية يكتب عليها سنة الانتـاج •

يتضمن العرض التالي المؤرخ في ٢١ ديسمبر عام ٢٦٠ م وصفـا تفصيليا لعمليات استغلال أحد حقول الكروم تقدم به ثلاثـة رجال الى أريليوس سيرنس **Aurelius Serenus** المعروف أيضـا باسم سرابيون وهو من الملاك البارزين في أوكسيرنخوس :

« نتعهد نحن بمحض ارادتنا وبموجب عقد لمدة سنة واحدة أخرى تبدأ من أول هاتور من السنة الجارية السادسة ، أن نقوم بكافة عمليات العناية بالكروم في بستانكم وزراعة البوص الملاصق الخاص بك بالقرب من قرية تانيس Tanais بأي مساحة كانت — نحن أوريليوس كتيستور Aurelius Ktistor وابنه نقوم بالنصف ، وأنا بيلويوس Peloios أقوم بالنصف الآخر • والعمليات المذكورة هي : داخل البستان — قلـع نباتات البوص وجمعها وازالتها والقاؤها خارج الجـدران الطينية ونشر أكبر عدد ضروري من الكروم وذلك بالترقيد ، والعزق والحفر حول أعواد الكروم ، على أن يكون توريد الأوتاد مسئوليتك أنت المالك ، بينما نقوم نحن بأعمال العناية • والعمليات الباقية التي تعقب ما سبق ذكره سنتم انجازها نحن ، وهي على وجه التحديد : الزراعة ، ونزع البراعم الزائدة والعمل على زيـادة النمو والتخفيف والربط (الى الأوتـاد) ، وبالنسبة لزراعة البوص عمل أخدودين بكل حوض ثم ريه وازالة الحشائش بصفة مستمرة ، كما نتعهد بأن نعمـل جنبا الى جنب معكم في بستان الكروم وزراعة البوص واستخدام الحمير لاحضار التراب وأن نتأكد من ان التراب وضع في الأماكن المطلوبة • وسنقوم بفحص الجـرار التي ستستخدم (لتعبئة) الخمر للتأكد من سلامتها ، وبعد ملئها بالخمر سنقوم بتخزينها في المكان المشمس ، وتزييتها ونحركها ونصفي الخمر في جرار جيدة ، ونحرسها طوال فترة تخزينها في المكان المشمس • ونطلب أجرا عن كل هذه العمليات سالفة الذكر أربعة آلاف وخمسمائة دراخمة من الفضة ، وعشرة أرادب من القمح وأربع جرار من الخمر في برميل خشبي ، على

ان نتسلم هذا الأجر على دفعات مع تقدم العمل • وتتعهد باستئجار لمدة عام واحد انتاج نخيل البلح وكافة ثمار أشجار الفاكهة الموجودة في بستان الكروم القديم ، وندفع بعيدا عن الاتفاق الأول مقابل ذلك ايجارا قدره واحد ونصف اردب من البلح الطازج ، وواحد ونصف أردب من البلح المضغوط ، وواحد ونصف أردب من ثمار الدوم ، وواحد ونصف أردب من الزيتون الأسود (٢٣) وخمسمائة من أجود أنواع الخوخ ، وخمسة عشر من النارنج ، وأربعمائة من التين الصيفي (المقطوف) قبل الفيضان ، وخمسمائة من التين الشتوى (٢٤) ، وأربعة من الشمام الأبيض الكبير • وعلاوة على ذلك سنقوم ضمن الأجور سالفة الذكر بحرث بستان الفاكهة الملاصق جنوب بستان الكروم ، كما سنقوم بالرى والتنقية وكافة المهام الموسمية الأخرى ، على أن تقوم أنت المالك بشد الأوتاد وبسط الأرض (يلي ذلك الوعد المألوف بالعمل على الوجه الصحيح واعادة الأرض في نهاية مدة العقد في حالة جيدة وخالية من أى نبات غير مرغوب فيه (التاريخ) » (٢٥) •

كان الزيتون أيضا محصولا كبيرا ، وكان ينمو في مصر منذ أزمنة سحيقة • وكان يتم التقليم والزراعة في وقت واحد مع تلك العمليات في بساتين الكروم ، وكان حصاد المحصول يقع في الفترة التي تبدأ من أواخر أكتوبر الى نهاية يناير — كما في مناطق البحر المتوسط الأخرى — بعد قطف الكروم وقبل أن يشغل الفلاح نفسه بحصاد القمح • ونقرأ في بردية من عام ١٧٧ م عن بستان يضم ستا وثلاثين شجرة زيتون في مساحة أرورتين • وهذه الكثافة تعني أن الهكتار الواحد يضم حوالى مائة شجرة ، وهذا لا يختلف كثيرا عن كثافة الأشجار في بعض مناطق اليونان اليوم • وكما هو الحال في بساتين الكروم فان كثيرا من بساتين الزيتون

---

(٢٣) ذكر بلنى في كتابة التاريخ الطبيعي
Pliny, Natural History, Bk 15. sect. 16.
ان أفضل وقت لجمع (الزيتون) من حيث الكمية والنكهة هو الوقت الذى يبدأ فيه الزيتون التحول للون الأسود » •

(٢٤) Pliny, op. cit., Bk 13. sect. 56 and BK. 15, Sect. 68-71.
يتحدث بلنى عن « المميزات الرائعة للتين المصرى » والذى طبقا — لما أقره هو — كان حلوا جدا ، بلا بذور ، خصب ومثمر • أما « وصف الأنواع المبكرة والمتأخرة فقد كتب « أخرة ينضج قبل الشتاء » علاوة على ذلك فهناك انواع أخرى تكون مبكرة ومتأخرة معا فتنتج محصولين ابيض وأسود ينضج مع حصاد الحبوب ومع جنى الكروم » •

(٢٥) P. Oxy. 1631 = select Papy. 18.
هي وثيقة مشابهة تماما (لكن مع اختصار كبير للتفاصيل) وترجع لعام ٢٥٢ م • اما بردية P. Berl. Leihg. 23. فتؤكد ان كرمة عنب حديثة زرعت ثلاث مرات في موسم نموها الأول •

ينتشر بها نخيل البلح ، وتحيطها أسوار للحماية ضد اغارات الحيوانات من المراعى القريبة • وهناك شكوى من عام ٢٤ م قدمت للبوليس تحكى عن بستان يبدو أنه كان بدون أسوار ، تعرض لاغارة قطيع أدى الى تدمير مائتى نبات صغير بقضم براعمها (٢٦) •

رأينا فى انتاج الحبوب والكروم ، أن المزارع الفرد استطاع بنفسه بالاضافة الى مساعدة مستأجر حسب الحاجة القيام بأعمال الحصاد وتداعياتها • ولكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة للزيتون • فبينما تستهلك كميات صغيرة منه طازجة أو مملحة • فان أغلب المحصول كان يخصص لانتاج زيت الزيتون • وتطلب هذا وجود معصرة زيتون وهى بناء أشبه بالمصنع تكاليف اقامته تفوق امكانات المزارع العادى • ولذلك كان زارع الزيتون عليه أن ينقل محصوله الى القائم على المعصرة فاما أن يبيع له المحصول مباشرة واما أن يدفع له (نقدا أو عينا) قيمة ما سيؤديه من خدمة •

كانت هناك نباتات زيتية أخرى تنمو بوفرة كالخروع والكتان (من أجل زيت بذرة الكتان) والعصفر والسمسم • وكانت الحاجة أكبر الى الزيوت فى العصور القديمة ، حيث كانت تلبى ثلاث حاجات كبرى فى الحياة اليومية • فأجود الأصناف ـ لاسيما من زيت الزيتون ـ كانت تستخدم فى تدليك الجسم بعد التمارين البدنية والاستحمام فضلا عن الأغراض الطبية • وكانت الأنواع المتوسطة تستهلك كغذاء كزيت الطعام (الزبد القديم) بينما كانت أقل درجات الزيوت تخصص كوقود لاضاءة فتائل المصابيح •

ينمو نخيل البلح فى كل مكان فى مصر منذ أزمان سحيقة وحتى الآن • ونموه يتم اما تلقائيا فى الرمال المنعزلة أو كما لاحظنا حالا فى بساتين الكروم والزيتون • وكان السعف يستخدم ومازال فى صناعة المكانس وتضفير السلال • أما الثمار فكانت تؤكل طازجة أو مجففة • والبلح ينضج بين شهرى سبتمبر وديسمبر الا أن الحصاد كان يبلغ ذروته فى شهر أكتوبر عندما ينتهى جنى الكروم ويبدأ الزيتون فى النضج • ومن بين الأنواع المتعددة يبدو أن ما عرف بالبلح السورى كان له تقدير خاص •

ومن بين الفواكه الأخرى التى عرفتها مصر كان النارنج والخوخ والكمثرى هى الأهم ، وأحيانا نصادف التفاح والخروب واللوز والرمان

---

(٢٦) BGU 241 & P. Ryl. 138.

وفى الأخيرة راجع الهامش رقم ١٧ •

أما الخضروات الرئيسيــة فهى الفول والثوم والعــدس والبــازلاء والحمص • وهذه المنتجات البقولية ادحلت بعض التنوع على النظام الغدائى المعتمد أساسا على الحبوب وان لم تساعد فى اثرائه نظرا لأنها هى الأخرى تتكون أساسا من المواد الكربوهيدراتية •

كان يتعين أيضا تغذية الحيوانات المستأنسة • وكان علفها يتكون بصورة رئيسية من الحشائش بالاضافة الى بعض البوص • وكانت هذه تنمو فى مراع دائمة أو فى الحقول فى السنوات التى تركت فيها بدون زراعة حبوب لاراحتها • لقد كانت الحشائش متوفرة عادة كعلف أخضر على مدار السنة ، ولكن كانت هناك كمية تقطع وتجفف وتخــزن كتبن يستخدم عند الحاجة • وكان الحمص الجبلى والشعير يخلط أحيانا معه كمساعد فى الغذاء •

واخيرا ، كان هناك عدة محصولات هامة هدفها الأصلى لم يكن الغذاء• فالصــوف ـ الذى يجز من الغنم ـ سوف نناقشــه عندما نتحدث عن الحيوانات المستأنسة • أما الكتان فقد كانت له فائدتان : فكانت بذوره تنتج زيت بذرة الكتان • ومن ألياف سيقانه صنع الكتان • وقد أنتجت مصر أيضا كمية صغيرة من القطن ، الذى أطلق عليه (كما يطلق الألمان عليه اليوم) « شجرة الصوف » (راجع الفصل الثالث) وكانت مصر أيضا مشهورة كمكان لصناعة نوع من النسيج شديد الرقة عرف باسم بيزوس Byssos • وقد اختلف العلماء حول المادة الخام التى صنع منها هل هى قطن أم كتان اعدا اعدادا خاصا •

والبردى كان محصولا نقديا ذا أهمية قصوى وهو نبات مائى ينمو على الخصوص فى مستنقعات نهايات فروع النيل وفى دلتاه • وحوالى عام ٣٠٠٠ ق • م أو قبل ذلك اكتشف المصريون كيف يصنعون ورق الكتابة بضغط شرائح متجاورة ومتعارضة أخذت من لب هذا النبات • وكل ما نستطيع قوله ان هذا النبات كان ينمو على مستوى اقتصادى فى مصر فقط • وان الورق كان يصدر من الاسكندرية الى بقية أنحاء عالم البحر المتوسط حتى أوائل العصــور الوســطى عندما نقل العرب عن الصينيين طريقة صناعة الورق من الأسمال البالية •

وفى مصر نفسها كان ورق البردى يستخدم فى أغراض شتى أخرى أيضا • فكانت سيقانه تربط معا بحبال لتأخذ شكل قوارب متينة وان كانت خفيفة تتحرك فى المستنقعات مثل الزوارق مسطحة القاع اليوم . وهذه كان يستخدمها الملوك ورجال البلاط فى الرياضة كما استخدمها صيــادو الأسماك والطيور لكسب قوتهــم (وان طفــو قوارب البــردى

وصلاحيتها للخدمة اتضحت بصورة واضحة حديثا عندما قام ثور هيردال ببناء مركب كبيرة من البردى ابحر بها فى المحيط الأطلنطى) (٢٧)٠وكان التاج اريشى الجميل للنبات يصنع منه أكاليل لتجميل تماثيل الآلهة والملوك ٠ أما الساق عندما تكون صغيرة ولينة فكانت تؤكل : اما بالمضغ نيئة من أجل عصارتها ثم يتم دفع البقايا خارج الفم أو بسلقها أو شويها٠ وكانت جذور البردى الخشبية تستخدم كحطب وكذلك في صناعة الاثاث والأدوات ٠ وكانت قشرة الالياف التى تزال أثناء عملية صناعة الورق تتحول الى سلسلة من المنتجات : كالسلال والحصر والوسائد والأغطية والأشرعة والحبال والفتائل وحتى الأردية والصنادل (لاسيما تلك النماذج الجميلة التى وجدت فى المقابر المصرية) ٠

يبدو أن نبات البردى كان يمكن حصاده طوال العام ٠ وهناك وثيقة تخول حق القطف فى الفترة من يناير الى أغسطس ، وأخرى من محافظة أرسنوى تسجل دفع مبلغ غير محدد فى ٩ نوفمبر ١٧٤ م مقابل ٣٠٠٠٠ ساق من البردى ٠ ويبين لنا عقد من عصر اغسطس مستأجرى مزرعة بردى فى الدلتا يحصدونها يوميا لمدة ستة شهور من أواخر يونيو الى أواخر نوفمبر ٠ وهذا العقد يعطينا بصيصا من الضوء عن عدد النباتات التى كان يمكن الحصول عليها من مزرعة واحدة ـ وهو عدد يدهش الخيال عندما نتأمل كيف كانت مصر فى القديم تمد عالم البحر المتوسط كله بورق الكتابة ٠ لقد اقترض مستأجرو المزرعة مائتى دراخمة وهو مبلغ تصل فائدته العادية فى الشهر الى دراخمتين ٠ وبدلا من هذه الفائدة اتفق الطرفان على أن يبيع المدينون لدائنهم وبسعر أقل من سعر السوق جزءا من حصادهم اليومى يصل الى اجمالى ٢٠ الف حمل و ٣٦٠٠ حمل من سيقان البردى (٢٨) ٠

وفى عام ٥ ق٠م استئجرت مزرعة أخرى للبردى فى منطقة الدلتا لمدة عامين ٠ وهنا يبدو أن قمة شهور الحصاد كانت تقع بين شهرى مارس ونهاية أغسطس ، وعلى أية حال كان الايجار المدفوع عن تلك الفترة يزيد عن ضعف الايجار الذى كان يدفع عن ستة الشهور الأخرى ٠ ووافق المستأجرون على عدة شروط كان أولها عدم دفع أى زيادة للأيدى العاملة المستأجرة عن الأجور السائدة فى المنطقة ٠ وهذا يوحى بوجود تنظيم

(٢٧) T. Heyerdall, The Ra Ra Expeditions, New York, 1971.

(٢٨) P. Med. 6. P. Teb. 308, and BGU 1180.

يشبه اتحاد المنتجين بين ملاك المزارع للمحافظة على أرباحهم المرتفعة وذلك لتجنب التنافس على الأيدى العاملة المتاحة (٢٩) ٠

الحيوانات المستأنسة :

كانت تتم تربية بعض الحيوانات من أجل توفير القوة المحركة اللازمة للعمليات الزراعية ، وحيوانات أخرى كان يتم تربيتها كمصادر للطعام ، وهكذا يضاف قليل من بروتين اللحم والدهن الى الأساس غير المتنوع للنظام الغذائى المعتمد على الكربوهيدرات ٠ وكانت بعض الحيوانات تخدم الغرضين معا ٠ وكل الحيوانات ساهمت من خلال روثها بكميات من السماد العضوى ذى القيمة المكملة لغرين النيل ٠

كان حيوان النقل الرئيسى فى مصر القديمة هو الحمار ، يليه الجمل من ناحية الشيوع ٠ فكل الأشـــياء التى احتاجتها أو أنتجتها الأرض ـ كمعدات الزراعة وأحمال السماد البلدى وأجولة البذور والمحاصيل ، وجرار الخمر والزيت ـ كان يجرى نقلها على ظهور هذه الدواب ، فضلا عن البشر لاسيما فى ذهابهم الى مواقع أعمالهم وعودتهم منها ٠

ويوجد من قرون حكم الرومان نحو ستين وثيقة خاصة ببيع الحمير ونحو نصف هذا العدد عن الجمال ٠ من هذه الوثائق نعلم أنه فى القرن الثانى (المادة المتاحة عنه هى الأكبر عددا) كان الحمار يكلف فى أى مكان من ٥٠ الى ٣٥٠ دراخمة حسب عمره وجنسه وحالته العامة ٠ أما تكلفة الجمل فكانت من ٢٠٠ الى ما يزيد على ٨٠٠ دراخمة ٠ وكان أقـل هذه الأسعار يمثل أجل عامل ما بين شهرين الى أربعة شـهور أو ثمن ستة أو سبعة أرادب من القمح وهو ما يكفى لتغذية أسرة مكونة من أربعة أفراد لمدة شهرين ٠ ومع ذلك ، فانه نظرا لأن الحيوانات لم يكن عنها غنى عن الناحية العملية حتى بالنسبة للمزارع الصغير ، فحتى فقراء الفلاحين كان عليهم أن يدخروا ويقتصدوا لكى يتملكوا حيوانا واحدا أو حيوانين على الأقل ٠ وكان الفلاح المعدم الذى لم يكن قادرا على اقتناء احد هذه الحيوانات عليه أن يستأجر حيوانات نقل حسب الحاجة من أحد أصحاب الاصطبلات التجـارية أو أن يدخل فى اتفـاق مع مجموعة خاصـة غير صاحب الأرض التى يعمل فيها بالايجار ٠

---

(٢٩) هناك تحليل تفصيلى لعقد ايجار يرجع الى العام الخامس ق٠م
BGU, 1121 = Select Papyri, 41.

ويوجد فى

N. Lewis, Papyrus in Classical Antiquity," Oxford, 1974, pp. 109-18.

وكان الاستخدام الرئيسى بل وربما الوحيد للخيول فى فرق الخيالة · والعدد القليل الذى كان فى ملك الخواص كان ترفا استمتع به الأثرياء فى الرياضة ·

استخدمت دواب الحمل أحيانا كحيوانات للجر فيما عدا الأحمال الثقيلة التى كان يجرى جرها بواسطة الثيران · وكان ثور واحد أو ثوران مشدودان معا يجران المحراث أو يديران الساقية أو يجران مواد البناء ·

يشمل القطيع الكبير ، بالاضافة الى الثيران ، الماشية الأخرى كالبقر والعجول · وكانت العجول تستخدم أيضا كحيوانات للجر ، كما كانت الحاجة اليها فى التلقيح ضرورية · وكانت الأبقار والعجول والعجول الصغيرة تقدم كأضحيات فى المناسبات الكبرى (أما الطقوس الأقل أهمية فكان يقدم فيها حيوانات أصغر) وكانت أجزاء صغيرة من الحيوان تخصص للحرق تقربا للآلهة بينما يتم الاحتفاظ بالباقى للاستهلاك الآدمى بعد اتمام الطقوس · وكان لبن الأبقار يستخدم فى الغالب طازجا حيث اعتبر أقل قيمة من لبن الأغنام والماعز فى صناعة الجبن ــ وكان هذا تحيزا من جانب الاغريق ــ كما نقرأ عند أرسطو · ولكن الرومان كان يرون أن لبن الأبقار هو الأفضل من حيث قيمته الغذائية (٣٠) ·

شملت الحيوانات الأصغر الأغنام والماعز والخنازير · وبصورة رئيسية كانت الخنازير تطأ البذور لدفعها داخل التربة كما كانت تستخدم فى استخراج الحبوب من أعواد الغلال أثناء الحصاد فى الجرن · وكان لحم الخنزير فى الديانة المصرية ، كما هو الحال عند اليهود غير صالح للاستخدام الآدمى ، وحتى أواخر القرن الثالث الميلادى كان محظورا استخدامها كذبائح فى الطقوس المصرية · ولكن كان لحم الخنزير غذاء مفضلا عند الاغريق والرومان ، الى الحد الذى جعل كراكلا ــ عند طرده للمصريين غير المقيمين من الاسكندرية فى عام ٢١٥ م ــ يضم تجار الخنازير الى المجموعات التى أعفيت من أمر الطرد (الفصل العاشر) · وبالوقت ، كما يجب أن نتوقع ، فان تأثير وجود الرومان جعل تحريم أكل لحم الخنزير أقل فاعلية بالنسبة للأهالى الوطنيين · وكما هو الحال مع الأبقار، فليس لدينا أية بيانات عن أعداد الخنازير التى كان يجرى تربيتها أو عن أهميتها النسبية بالنسبة لامدادات الغذاء · الا أننا ندرك أن اللحم كان يشكل فى القرنين الثالث والرابع جزءا هاما فى النظام الغذائى ولاسيما فى الجيش ·

---

(٣٠) Aristotle, History of Animals 522, C. 26. Varro, on Agriculture, BK. 2. ch. 11.

اما بالنسبة للاغنام والماعز فلدينا بعض الأرقام المدونة بسجلات المزارع وتقارير الملاك التي كانت تطلب سنويا لأغراض ضريبية • ويكفى ذكر بعض الامثلة القليلة لتعطى الانطباع العام عن ذلك • ففى العام الثامن ق٠م أقر رجل أنه يمتلك ٥٦٦ من الأغنام و٢٥ من الماعز تنقسم الى خمسة قطعان ، لكل منها راعيها الخاص • وفى عام ١١٨ م كان أحد الافراد يمتلك ٥٥٩ من الغنم و٢٠٩ حوالى (غنم صغيرة) وعشر عنزات وكبشا واحدا • انقسمت هذه الى عدة قطعان مع عزل الذكور تحت رعاية راع خاص بها • وسرابيون الغنى الذى تعرفنا عليه فيما قبل (الفصل الرابع) امتلك أكثر من ألف من الغنم والماعز • وفى احدى القرى بلغ اجمالى تعداد الحيوانات ٤٢٤١ من الغنم و٣٣٦ من الماعز وفى أخرى ٨٢٩ من الغنم و٢٨ من الماعز (٣١) •

وتذكر الوثائق عدة سلالات من الأغنام هى : المصرية ، والعربية والحبشية واليوبية (Euboean) والمليسية Milesian والسخاوية Xoitic • وكان هناك نوع خاص يعرف باسم « ذوى الأغطية الجلدية » • وهذه لم تكن سلالة مميزة ولكنها مجموعة منتخبة تحفظ ملفوفة بجلود الحيوانات أثناء نمو صوفها • وتعود هذه الطريقة الى أصل أسيوى (من آسيا الصغرى) ثم انتشرت فى اليونان وايطاليا وكذلك فى مصر ، وكان من المعتقد أنها تجعل الصوف أكثر رقة ونعومة • وكان الغنم فى مصر يكتسى بالصوف مرتين فى العام ولذلك كان صوفه يجز فى يناير أو فبراير ثم فى سبتمبر • ويبدو أن الحاجة الى صوف الصيف كانت أشد وان كنا لا نعرف هل كان السبب فى ذلك يعود الى أن جودته كانت أعلى أم لأن كميته كانت أقل أو ببساطة لأن الحصول عليه كان امتيازا يمكن من العمل المبكر استعدادا للشتاء المقبل • لقد سبق لنا ذكر أفضلية أنواع الجبن المصنوع من لبن الضأن والماعز • ونحن نقرأ فى العديد من البرديات عن وجود أنواع (كبيرة من الجبن) وهى تشير الى وجود (جبن صغير) • كما نقرأ فيها عن أنواع جافة من الجبن وهذا يشير الى احتمال وجود أنواع رطبة منه ، الا أن معظم الاشارات تشير فقط الى الجبن دون تحديد صفاته •

كانت الحيوانات الصغيرة فى المزارع تؤدى خدمة أخيرة حتى بعد موتها : فبعد ذبحها كانت جلودها تدبغ وتستخدم فى كثير من الأغراض • ومن أكثر هذه الاستخدامات شيوعا حياكة قطعتين أو أكثر من الجلد معا

---

(٣١) P. London. 1171 p. Stras b. 24. p. Oxy. 807. and P. Hamb. 34.

لصناعة اوعية لحمل السوائل · وكانوا يفضلون جلود الماعز لهذا الغرض· ولكنهم استخدموا جلود الغنم والخنازير أيضا ·

ويبدو أنه كانت هناك وفرة فى الطيور · فنرى ذكرا للدواجن والأوز والحمام ولكن مع قليل من التفاصيل · وكما نرى فى الرسوم الجدارية فى المقابر المصريه كان الأوز طعاما مفضلا خلال العصر الفرعونى · وظلت ممارسة تسمينها مستمرة طوال العصور القديمة · ويتكرر ظهور رعاة الأوز فى البرديات التى تعود للعصر الرومانى ، وهناك من عاصمين لمحافظتين على الاقل منطقه عرفت بحى رعاة الأوز · أما الدجاج والديوك فيمكننا القول انها كانت ، كما هى اليوم ، منتشرة فى كل مكان ، وبالنسبة للحمام كانت مصر فى الأزمنة القديمة تشتهر بغزارة انتاجها منه · ولقد عثر بين الحين والحين على بقايا أبراج للحمام أثناء عمليات الحفر · وقد ورد ذكر أبراج الحمام فى عدد من الوثائق التى ترجع للفترة ما بين القرنين الأول والثالث · وكانت بعض هذه الأبراج تعمل كمشروعات تجارية هائلة، بينما كان البعض الآخر أبنية صغيرة داخل أو أعلى منازل الأهالى · وقد مثلت بقايا الحمام سمادا ذا قيمة خاصة يعتقد أنها مفيدة بشكل خاص فى زراعات الكروم · وفى الواقع تنص بعض عقود ايجار الكروم على أن يكون السماد المستخدم هو (رسمال) (*) الحمام بالتحديد ·

كانت الزراعة هى النشاط الاقتصادى الرئيسى والسائد فى مصر وقد اشتغل بها السواد الأعظم من السكان ، الا أنه كان هناك كثير من المهام الأخرى التى يجب أن تؤدى · هذه هى موضوع الفصل التالى ·

(*) الاسم الذى ينتشر بين الشعبيين فى مصر تعبيرا عن فضلات الحمام واعتقد انها تضم كلمتين ([illegible] مال) وربما كانت الكلمتان تشيران الى القيمة الاقتصادية لهذه الفضلات ·

التجارة والمهن
أو
انتاج البضائع والخدمات

نستعرض فى هذا الفصل تلك المهن المتخصصة ذات الأهمية البالغة فى الحياة اليومية فى مصر الرومانية ·

ان انتاج المواد الغذائية كما رأينا فى الفصل السابق كان يحتاج الى عدد قليل من المتخصصين · ومع ذلك فحتى المجتمع الزراعى البدائى تتطور احتياجاته بسرعة للخدمات المكملة · وفى عصور ما قبل التاريخ بالنسبة لكثير ان لم يكن لمعظم الثقافات ، كان صانعو الفخار وصانعو السلال ـ أى صناع أوانى التخزين والحمل ـ هم أول العمال المتخصصين الذين يفرضون وجودهم · وفيما بعد أصبحت خطوة سريعة وسهلة نسبيا الانتقال من نسج السلال الى نسج الملابس وأنواع أخرى من الأغطية ·

ولقد رأينا فى الفصل السابق أن مصر كانت مشهورة بصناعتين من صناعاتها وهما : الكتان وورق البردى · وفى القرن الثالث ونتيجة للطلب الخارجى وسعت مصر انتاجها من الزجاج وأصبحت ـ بجانب سوريا ـ مصدرا كبيرا لتلك السلعة · لدينا بعض التفاصيل القليلة عن الصناع الذين أنتجوا الزجاج وورق

البردى ، لأن هاتين الصناعتين تركزتا فى منطقة الدلتا ، حيث وجدت آثار قليلة نسبيا بسبب الرطوبة • ومن ناحية أخرى فان صناعة النسيج موثقة توثيقا جيدا ، لأنه بالرغم من نمو أعداد من المصانع الكبيرة فانها بقيت صناعة منزلية ، تمارس فى كافة أنحاء البلاد • وقد عثر على آلاف البرديات بين أطلال المدن والقرى فى الصعيد تحمل معلومات عن جوانب كثيرة من صناعة النسيج • وكان رأس النساجين صناع الملابس الكتانية الفاخرة الذين كانوا يتوارثون الصناعة ويتعاونون فى تلقين أولاد بعضهم البعض أسرارها • الصبية كانوا غالبا يبدءون ما بين العاشرة والثالثة عشرة من العمر • وكانت فترة تعليم الصبية تستغرق عادة من عام واحد الى ثلاثة أعوام ، ولكنها يمكن أن تمتد عاما أو عامين آخرين • والعقد التالى ، الذى يؤرخ من أواخر القرن الثانى ، هو نموذج لعشرين عقدا أو نحو ذلك وصلت الينا :

« بلاتونيس Platonis المعروفة أيضا باوفيليا Ophelia ابنة هوريون من أوكسيرنخوس ، مع أخيها أفلاطون Platon وكيلها القانونى، ولوكيوس Lucius وتسايس Tisais بن ازيون Ision ، نساج من أفروديسيون Aphrodiscion فى الواحة الصغرى ، يقرون متضامنين بأن بلاتونيس المعروفة باوفيليا قد دفعت بخادمتها ثيرموثيون Thermouthion ، القاصر ، الى لوكيوس لمدة أربع سنوات من بداية الشهر القادم (طوبة) من العام الجارى لكى تتعلم حرفة النسيج بالشروط التالية : انها سوف تطعم وتكسو البنت ، وستأتى بها الى المعلم كل يوم من شروق الشمس لغروبها لكى تنجز كل الأوامر التى تعطى لها بمعرفته متصلة بالمهنة المذكورة • والأجر فى السنة الأولى ثمانى دراخمات شهريا ، وفى السنة الثانية اثنتا عشرة دراخمة شهريا ،وفى السنة الثالثة ست عشرة دراخمة شهريا ، وفى السنة الرابعة عشرون دراخمة فى الشهر • وتحصل البنت على أجازة سنوية ثمانية عشر يوما ، الضرائب المفروضة على الحرف والتدريب سوف يدفعها المعلم ، ولوكيوس ••• » •

ان بقية البردية والنص مفقودان ، ولكننا نعلم من عقود أخرى مماثلة أن الشروط تفرض على المعلم أن يقوم بعمل جاد فى تدريب الصبى المتدرب ، حتى يجعله يعرفها « كما يعرف الحرفة هو نفسه » ويتبع ذلك ورود مادة تذكر الجزاءات فى حالة الاخلال من احد الطرفين بشروط العقد (١) •

---

(١) فى معظم مثل هذه العقود فان السنة الأولى من فترة التدريب كانت بدون أجر • وفى العقد المذكور عنا من P. Oxy. 1647. ، فان الأجر فى السنة الأخيرة من فترة التدريب كان تقريبا يخص عاملا غير ماهر (انظر الملحق) •

والبرديات الموجودة تسجل تدريب صبية عند بناء وصـانع نحاس وصانع حصير وصانع مسامير وزامر وعامل قص صوف الغنم وعامل غزل الصوف . وبالاضافة لهذه الحالات الواقعية فان أى مهنة أو حرفة كان يتم تعلمها عن طريق معلم للمتدربين .

ومن بين عشرات العبيد عند أسرة رومانيـــة ثرية جدا مقيمة فى الاسكندرية كان هناك ستة تدربوا على كتابة الاختزال ، واثنان على النسخ أو السكرتارية ، وكاتب خطابات وطباخ وحلاق وعامل اصلاح . ولدينا بالفعل عقد لتدريب عبد على مهنة كاتب اختزال .

« بانيخوتيس Panechotes المعروف أيضا بباناريس Panares المشرف السابق على النظام فى أوكسيرنخوس قدمه صـديقه جيمللوس Gemellus الى أبوللونيوس ، كاتب الاختزال ، تحياتى . اننى دفعت بعبدى شيرامون عندك لكى يتعلم العلامات التى يعلمها ابنك ديونيسيوس Dionysios لفترة عامين ولا تحســب من ضمنها الاجـــازات ، ابتـداء من الشهر الحالى برمهات من العام الثامن عشر لحكم سيدنا أنطونينوس قيصر . برسوم متفق عليها بيننا ١٢٠ دراخمة . وصلك منها مقدما أربعون دراخمة . وسوف تأخذ الأربعين دراخمة الثانية عندما يتعلم الولد كل المقاطع وسوف تتلقى الأربعين دراخمة الباقية عند نهاية المدة عندما يكتب ويقرأ بدون أخطاء وأن يقرأ النثر من كل نـوع . واذا أتم تعليمـه قبل نهاية الفترة المحدودة فســوف لا أنتظر لانتهـاء المدة ، ولن يكون من حقى أخذ الولد خلال المدة . واذا لم يتعلم فسوف يبقى معك الأيام والشهور التى يحتاجها تعليمه . (التاريخ ١ مارس ١٥٥ ميلادية) (٢) .

والصــــناع الذين غالبـــا يظهرون فى أوراق برديات فى العصر الرومانى هم : البناءون وقاطعو الأحجار وصانعو الطوب الأحمر وبناءو الطـوب والنجارون وعمال الفخار وعمـــال المعادن والخمازون والجزارون والحلاقون وصانعو الأحذية والصباغون والقائمون على رتق الملابس وعمال تطريز الملابس بعد النسيج ، ثم يأتى بعد ذلك التجار وأصحاب المخازن الذين كان معظمهم يتعامل فى منتج واحد أحدهم يبيع الزيت والآخر يبيع الخضروات والثالث يبيع الصوف ورابع يبيع الفاكهة وهكذا وهنا وهناك تجد « سوق كل شىء » أو Pantopoleion كما يطلق عليه اليوم فى بلاد اليونان . وهو ما يطلق عليه فى الولايات المتحدة وكندا المتجر العام . ان قائمة البضائع التى تباع فى مثل هذه السوق فى حدود يوم واحد نجدها

---

(٢) P. OXY. 724 = W. Chr: 140 = Select papyri 15.

تشتمل على سمك مدخن (وهو أكثر الأصناف شهرة) وحبال ومخدات ونشا وحديد مشغول وأرجل مقاعد وصبغة الأرجوان وسلال السمك وفتيل الاضـــاءة (٣) ٠

كانت هذه هى المهن والحرف التى خدمت الاحتياجات الأكثر أهمية فى الحياة اليومية ٠ ومسك الختام هناك الحانوتى والقائم على التحنيط وحفار القبر ٠

دعنا ننظر من قريب الى حرف البناء ٠ فبناء عادى ، كما رأينا فى الفصلين الثالث والرابع ، يقام من الطوب اللبن ، حيث كان فرن حرق الطوب الأحمر يستخدم لأغراض خاصة مثل عمل بطانة غير مسامية ، والمبانى العامة الضخمة مثل المعابد والمسارح ، كانت تبنى من الأحجار أو عادة كانت واجهتها من الأحجار ٠ لقد كان انتاج كل من هذه المواد وظيفة خاصة ، كما كان الحال فى استخدام كل منها فى البناء ٠

وكلمة صانع الطوب اللبن تأخذ معناها الحرفى فى اليونانية من كلمة تعطى وصفا مناسبا للعملية الأساسية فى صناعة اللبن ـ الذى يجفف فى الشمس ـ وهى عملية الخلط الجيد للطمى مع مادة تساعد على التماسك باستخدام الفأس أو آلة مشابهة ٠ والحصول على خلطة جيدة كانت أهم خطوة فى صناعة اللبن وتتطلب مهارة ناتجة عن خبرة ٠ وبعد ذلك لا توجد مشكلة كبيرة فى صب وتعبئة المخلوط فى قوالب ٠ وفى مثال نقرأ أنه فى المنطقة المحصورة بين القرية والطريق المؤدى الى المدينة كان يوجد ساحة لعمل الطوب اللبن تمتد على مساحة تزيد عن أرورتين وربع ، أى أكثر من ستة آلاف متر مربع ٠ أما تكلفة الطوب ونقله وتحميله فكانت تحسب كوحدات كل وحدة منها عشرة آلاف ٠ وهناك تقرير لأحد البنائين يذكر تسليم وتحميل ٢٢٠٠٠ طوبة فى يوم عمل عادى ولكنه مع الأسف لم يذكر عدد العمال الذين قاموا بالتحميل والتنزيل (٤) ٠

كان النيل مصدر الطمى اللازم لعمل الطوب فى كل مكان ، ولكن الأحجار كان من الضرورى احضارها من المحاجر ٠ وهذه كانت غالبا فى

(٣) من عام ١٤٣ م P. Oxy. 520,
(٤) P. Hamb 12 and P. Teb. 402.

مصر الوسطى ومصر العليا ، وفى الصحراء الواقعة بين النيل والبحر الأحمر ، حيث وهبت الطبيعة تلك الفيافى التى تبدو مهجورة ثروات بسخاء ابتداء من المعادن والأحجار الكريمة ونصف الكريمة الى احتياطى هائل من الحجر الرملى والبازلت والجرانيت بالوانه (الأحمر والرمادى والأسود) والصخر البورفيرى ، وهذا الأخير بعد قرون من الاستغلال المعتدل فى أواخر العصور القديمة تبوأ مكانة سامية • وكان مفضلا فى عمل الأعمدة والتماثيل والعناصر الزخرفية الأخرى • وفى مصر أيضا كان هناك نسبيا قليل من المرمر ، وهذا القليل ذو نوعية أدنى من ذلك الذى وجده الاغريق واستخدموه فى عالم بحر ايجة • ولكن سكان الحضر الاغريق ومقلديهم من مواطنى عواصم المحافظات لم يقفوا عاجزين أمام نقص الرخام المحلى ، فكانوا يستوردون الرخام عندما يريدون خاصة اذا كان الغرض من استخدامه شيئا يذكرهم بوطنهم الأم • وبالنسبة للأغراض العادية ، مثل رصف شوارعهم كان أهل الاسكندرية سعداء بالحصول على الأحجار الضخمة من محجر آكوريس Akoris جنوبى أكسيرنخوس • أما احتياطى كل المعادن فكان ملك الدولة •

ان قطع الأحجار والبحث عن المعادن الثمينة كان عملا غير محبب • ففى الصحراء كانت شمس النهار الحارقة يتبعها أحيانا ــ خاصة فى الشتاء ــ برد قارس فى الليل ، وعلاوة على ذلك كانت معظم المحاجر والمناجم تقع فى أماكن منعزلة شديدة البعد عن « العمران » • وكان الحصول على قوة الانسان للعمل تحت هذه الظروف يتم باحدى طريقتين : اما أن تؤجر الحكومة العمل لمقاول يأتى بالعمال باعطائهم أجورا مجزية ، أو باستخدام المسجونين • وكانت تعفى الخاصة عند الادانة من العمل فى المناجم والمحاجر ، أما هذا العقاب القاسى الشديد فكان يطبق فقط على المجرمين من الطبقات الدنيا والعبيد ومن بينهم أسرى الثورات اليهودية وفيما بعد المسيحيون • وكان كل محجر أو منجم تحرسه حامية من الجنود كانت فى العادة تحت امرة ضابط من مرتبة قائد مئة Centurion • •

« سباتيانوس Subatianus آكويلا Aquila (حاكم مصر) الى ثيون Theon ، محافظ أرسنوى ، تحياتى • ان نيجر عبد بابيريوس Papirius قد ادين وحكم عليه بالعمل فى تحجير الألباستر لمدة خمس سنوات بمعرفة صاحب العظمة كلوديوس جوليانوس Claudius Julianus والآن وحيث انه استكمل تنفيذ الحكم » (وبناء عليه) أحرره • وداعا (تأشيرة على الايصال تاريخ ٢٧ ديسمبر ٢٠٩ م) (٥) •

---

(٥) SB 4639.

وتقدم لنا البقايا المعمارية والوثائق المكتوبة ـ غالبا على الأوستراكا ـ والتى عثر عليها فى العديد من المناطق الصحراوية • تقدم لنا ومضات حية عن ظروف حياة الجنود المعسكرين هناك والمدنيين الذين ذهبوا الى هناك لاشغالهم وفى خطاب مملوء بالشوق يتطلع جندى للحصـــول على أجازة قبل أن يقيم ثمانية عشر شهرا اضافيا فى العزلة والخمول • وكم كانت ثمينة تلك الرقعة التى تحمل الكلمات الآتية :

« عندك عشرة أيام أجازة ، أموناس Ammonas ولديك يومان اضافيان للعودة » (٦) •

ولكن اهتمامنا في هذا الفصل ليس موجها للعمل بالمحاجر مثـل اهتمامنا بانتاج المحاجر • كان الصخر بعد تقطيعه فى المحجر ينقل عبر الصحراء الى شاطىء النيل حيث يحمل على مراكب بنيت أو أعدت خصيصا لحمل الأحجار • وبعد أن تحمل عبر النهر شمالا أو جنوبا حسب الحاجة ، تنقل من أقرب ميناء نهرى الى موقع العمل بالطريق البرى • أما المسلات والأحجار الضخمة ـ فلحسن الحظ لم تكن انتاجا يوميا للمحاجر ـ فكانت تسبب مشاكل خاصة عند نقلها • وكما كتب بلنى عن مسلة طولها ثمانون ذراعا (٤٢ مترا) قائلا « لقد كانت مهمة نقلها واقامتها أكثر صعوبة من مهمة قطعها فى المحجر » (٧) •

أما التفاصيل عن المهنيين الذين عملوا فى الأحجار وعن الأغراض التى استخدمت فيها فهى متوفرة فى كثير من الوثائق بما فيهـا بعض حسابات اصلاحات المعابد وهى شيقة خاصة بسبب تفاصيلها الكثيرة ، ونورد هنا نموذجا صغيرا يكفى لأغراض الايضاح :

« للبناء لتجهيز وتركيب الأحجار فى الركن فوق الأساسات

٦ دراخمات

لقاطع الأحجار لقطع ١٠٠ قطعة من الأحجار لأركان أعمدة المدخل

١٠ دراخمة و ٣ أوبول

اجرة خمسة حمير لاحضار الجير من ميناء بوزيريس الى المدينة

٠٠٠ دراخمـة

تكاليف الحصى بما فيها النقل من الميناء الى الفرن

٠٠٠ دراخمـة

---

(٦) P. Mich 203 and O. Flor. 1.

(٧) Pliny, Natural History, Bk 36, Sect. 67.

لعامل الفرن للتجهيز واشعال النار (وفيما بعد) ازالة بقايا الجصر والحصى من الفرن ·
٦ دراخمة

لحمل الحصى المشتعل من الفرن الى موقع العمل

··· دراخمة

أجرة شحن للقارب الذى سيحضر الرمل للخلط مع الجير

٢ دراخمة

لاحضار الرمل من الميناء الى موقع العمل

٢ دراخمة

لعمال الجص (عامل المحارة) الذين يقومون بتغطية الحوائط بالمونة (بالمحارة) ١٦ دراخمة

تكلفة كتل الخشب المشترى من الحكومة لعمل أبواب معبد ايزيس
٥٠ دراخمة

تكلفة الغراء للنجار اللازم لباب المدخل ٣٪ مينا (الوزن)
¼ أوبول و ١٩ دراخمة (٨) -

كان الخشب دائما نادرا فى مصر ، وتلك الحقيقة يظهر أثرها فى التكلفة العالية للخشب فى البيان السابق · صحيح أن الأنواع المحلية من الأشجار مثل السنط وشجر الجميز والطرفاء استخدمت فى بناء القوارب ، كما كانت متوافرة لعمل الأبواب والنوافذ مثل ما كان يحدث أيضا بالنسبة لأخشاب أشجار الفاكهة الميتة · وحتى أخشاب النخيل استخدمت فى عمل سقوف خفيفة الوزن بعد شقها لأفلاق · ولكن ألواح الخشب الثقيل كانت تستورد من الخارج · وقد جرت محاولة فى أوائل عهد البطالمة لأقلمة أشجار التنوب فى مصر ولكن من الواضح أنها لم تنجح فى خلق مصدر محلى لذلك الخشب · كتل الخشب من التنوب والصنوبر مثل التى استخدمت فى اعادة بناء جمنازيوم أنطينوبوليس فى عام ٢٦٣ م ، وكانت بلا شك مستوردة من سوريا وآسيا الصغرى (٩) ·

نلتفت الآن الى أساليب ومستخدمى حرف النقل · كانت الجمال والحمير هى وسائل النقل البرية المعتادة · وكان من يقومون على قيادتها ينتمون الى حرفة وان لم تكن تحتاج الى مهارة عالية ، الا أنها كانت أساسية

---

(٨) P. Oxy. 2272.

(٩) P Köln 53.

بالنسبة للاقتصاد • وكان متعهد النقل النموذجى هو صاحب الحيوان أو سلسلة من الحيوانات يقودها بنفسه • ولكن كثيرين كانوا مجرد مستخدمين عند أصحاب اصطبلات كبيرة • ولشهور قليلة كانت خدماتهم محجوزة لنقل المحصول من الحقول الى أجران الدراس ، ثم الى الوسيات والصوامع وأخيرا من الصوامع الى الموانى النهرية لتحميلها على القوارب • وفيما بقى من العام كانت الحيوانات متوافرة للتأجير الخاص • وكانت العربات ذات العجلات توفر للأحمال النقيلة جدا التى يصعب نقلها على ظهور الحيوانات•

أقيمت فى نقاط عديدة نقاط تحصيل رسوم على كل حركة المرور البرية فى كل اتجاه • وكانت هذه الرسوم تدفع نظير ايصالات تكتب على شقف الفخار أو ورق البردى • ونعرف منها أكثر من ثلاثمائة ايصال صادر عن ما يزيد عن عشر محطات مختلفة • الأمثلة الآتية حررت فى قرى أرسينوى حيث كانت القوافل تعبر الصحراء الى ممفيس •

دفع فى بيت ضرائب مرور سوكنوبايو نيسوس Soknopaiou Nesos ١٪ (ضريبة مرور) وال ١/٢٪ (ضريبة بضائع) : سرابيون يصدر على جمل واحد ٦ أرادب من بذور الخضروات • دفع ٥ دراخمات وعلى جمل وحمارين ١٢ أردبا من القمح • دفع ٣ دراخمات (التاريخ ٢٦ نوفمبر ١٦٢ م) •

دفع فى بيت ضريبة مرور فيلادلفيا ، ضريبة عبور الصحراء : ديوجينيس مصدرا بلحا طازجا ، حمولة حمار واحد • وقمحا حمولة حمار واحد » • (التاريخ ، ١٦ سبتمبر ١٧٣ م) (١٠) •

كانت بعض الطرق الصحراوية شرايين مرور رئيسية وخاصة تلك المؤدية من كوبتس (قفط) فى مصر العليا الى ميوس هرموس Mysos Hormos (ميناء الفأر) والى برينيكى (المسماة باسم احدى ملكات البطالمة) ، وهما ميناءان على البحر الأحمر كانت تسير من خلالهما التجارة مع الهند والجزيرة العربية وشرق أفريقيا • وعبر هذه الطرق ، التى كان طول أولها حوالى ١٥٠ كيلو مترا وطول الثانى أكثر من ضعف ذلك ، أقيمت مراكز مزودة بالماء واستراحات للقوافل على مسافات مناسبة ، ومن حسن الحظ ، أن الصحراء بها مصادر جيدة للمياه ليست بعيدة عن سطح الأرض • ان افتتاح احدى هذه الطرق مسجل فى نقش من عام ١١٧ م :

---

(١٠) P. Ryl. 197 a and P. Grenf. II 50 c. = select Papyri 383 and 382.

« الامبراطور القيصر تراجانوس هادريانوس أوغسطس (يتلو ذلك ذكر سلسلة ألقابه الأخرى) افتتح طريق هادريان الجديد من برنيكى الى أنطنيوبولس عبر منطقة آمنة ومستوية مزودة بمراكز مياه وفيرة وأماكن للراحة ونقاط حراسة على طول الطريق » (١١) ٠

وبلا شك فان الضرائب التى كانت تجمع أو على الأقل جزءا منها خصصت لصيانة هذه الخدمات وخاصة قوات بوليس الصحراء التى كانت تحمى المسافرين والقوافل ضد عصابات السرقة ٠ وهذه بعض الرسوم التى كان يطبقها بيت مرور كوبتس فى عام ٩٠ ميلادية :

لربان سفينة فى البحر الأحمر	٨ دراخمات
لحارس	١٠ دراخمات
لبحار	٥ دراخمات
لصنايعى	٨ دراخمات
للمومسات	١٠٨ دراخمات
لامرأة بحار	٢٠ دراخمة
لتصريح لجمل	١ أوبول
لختم تصريح	٢ أوبول
لحمار	٢ أوبول
لعربة مغطاة	٤ دراخمات
لجنازة ذهاب واياب	دراخمة واحدة و ٤ أوبول (١٢)

وكانت رسوم مشابهة للمرور والرسوم تحصل على البضائع المنقولة بالمركب وكان يتم هذا فى نقاط أقيمت على طول النهر ٠ وكان جامعو ضرائب المرور ومحصلو الجمرك لهم الحق فى البحث عن السلع المهربة ٠ وهذه الميزة كان من الممكن اساءة استغلالها خاصة فى الأماكن البعيدة ٠ وقد وصلت هذه المشكلة الى علم أحد حكام مصر الذى ضاع اسمه فأصدر المرسوم التالى :

---

(١١) OGIS 701 = IGRR 1 1142 Pliny, Natural History, Bk 6. sect. 102-3.

وقد أحصى بلنى ثمانى محطات على طريق قفط ـ برينيكى ولكن ربما كان هناك أكثر من ذلك ٠

(١٢) OGIS 674 = IGRR I 1183. والنص الكامل مترجم فى L-R II, pp. 147-8.

ان أجرة مرور الجمل الذى يحمل حمولة أكبر (انظر الفصل الثامن) تبلغ نصف تلك التى تفرض على الحمار ويمكن تفسير ذلك بحقيقة لا شك فيها وهى أن الجمل يستهلك مياها أقل على طول الطريق ٠

« لقد ابلغت بأن الملتزمين قد استخدموا طرقا خبيثة ضد المسافرين خلال البلاد . وبالاضافة الى هذا يطلبون رسوما ليست مقررة ويتعمدون تأخير الأشخاص الذين يكونون فى عجلة من أمرهم حتى يضطرهم لدفع ما يطلبون من أجل رحيل أسرع ، وعلى هذا فاننى آمرهم بالامتناع عن هذا الطمع .... (بقية البردية ضائعة) وعن التفتيش على البضائع لديا القصاصة التالية :

« اذا طلب محصل الجمارك أن يفرغ القارب فعلى التاجر أن يفرغ (الحمولة) ، واذا وجد أى شىء آخر غير الذى أعلن عنه فسيكون عرضة للمصادرة ، ولكن اذا لم يجد شيئا فان محصل الجمارك سيعيد للتاجر تكاليف التفريغ ... ويأخذ (التاجر) شهادة مكتوبة من الملتزمين حتى لا يزعجه أحد مرة أخرى ... (البقية مفقودة) .

أما التالى فلم يوجد فى مصر ولكنه طبق فى أنحاء الامبراطورية :

« للملتزم الحق فى البحث ، والمواد غير المعلن عنها ستصادر . أما الشخص ذو الأصل الرومانى فلا يجب تفتيشه » (١٣) .

كان النقل البرى فى الغالب مرحلة تتم قبل أو بعد الشحن البحرى . أما تجارة مصر عبر الماء فقد استخدمت النقل النهرى والنقل عبر البحار . ولكن نظرا لأن الشحن على صفحة مياه البحرين المتوسط والأحمر لم تشغل الا جزءا ضئيلا فقط من حياة الناس فاننا سنركز على النقل الذى أثر عليهم بدرجة كبيرة الا وهو النقل النهرى .

ان الحركة الضخمة لنقل القمح الى الاسكندرية (ومنها يرسل معظمه الى روما) والمؤن والوقود لتزويد جيش الاحتلال فاقت كل ما عداها . وكان هناك أسطول من الصنادل تملكه الدولة يعمل بطاقم مؤجر أو سعين يكون نواة أسطول القمح فى النيل . ولكن أغلب الحمولة كانت تنقل على قوارب يملكها الخواص ، كان المحافظون يطلبونها عندما تحتاجها الحكومة .

كان النقل النهرى نظرا لطبيعته أكثر تعقيدا من النقل البرى ، فهو لا يقتصر على سفينة البضائع الواحدة التى تحمل أثقالا حملتها عشرات بل مئات من الحمير والجمال كما كان يتطلب بحارة مدربين على المهارات

---

(١٣) P. Princ. 20 = SB 8072, P. Oxy. 36 = W. Chr. 273 and Ps. Quintilian, Declamations 359.

المطلوبة . وبعد ذلك أيضا ، كانت هناك سلسلة من المرافىء وتسهيلات اخرى تجهز لاحتياجات الملاحة النهرية .

وكانت القوارب فى النيل تتراوح فى الحجم من قوارب يسيرها رجل واحد مصنوعة من حزم من سيقان البردى المربوطة معا (انظر الفصل السابق) ، الى مراكب طول الواحدة منها عشرون مترا وعرضها ثلاثة أمتار ، وحمولتها ١٨ ألف أردب أى ما يقرب من ٥٠٠ طن . وأكبرها كانت له أيضا شراع مربعة ليساعد فى سيرها أعلى النهر ، بالاضافة لمجاديف تستخدم لدفع السفينة ضد التيار وللاسراع بالرحلة فى حالة الابحار شمالا مع التيار . وطبقا لأحد المصادر ، ففى الصيف عندما تهب الرياح التجارية من الشمال يستطيع قارب بضائع بكل حمولته أن يقطع ٤٠ كيلو مترا فى اليوم مبحرا جنوبا عكس التيار . وأساسا فان تجهيزات هذه السفن يتناسب ، وان كان بدرجة أقل ، مع تجهيزات السفن الأكبر ، التى تسير فى البحار فى ذلك الوقت . وفى عقد موقع فى عام ٢١٢ م يعطى المالك عقد ايجار طويل عن :

« القارب من الطراز الاغريقى الذى يمتلكه ، ذو حمولة أربعمائة أردب تحت العجز والزيادة ، وهو مفروش تماما بالحصير ، ومكتمل بأشرعة من الكتان وحبال وأوعية وسلاسل وبكر ومجدافين اثنين للقيادة وذراع دفة وأربعة مجاديف وخمس مدار (جمع مدراة) لدفع المركب ذات أطراف حديدية وسلم خشبى للكابينة وكتلة للرسو ورافعة وصلبين حديديين لهما سلاسل حديدية وصلب ذو ذراع واحدة ، وحبال من الألياف وحبل لقطر المركب وحبال لرسو المركب وثلاث زلاقات للتحميل ومقياس وميزان وقماش شراع وقارب صغير ذو مجدافين وقاع مستدير ، مع كل الأدوات المعتادة وشوكة حديدية » (١٤) .

ومن الواضح أن امتلاك قارب لنقل البضائع ، حتى ولو كان صغيرا نسبيا ، كان يتكلف رأسمال أكبر بكثير مما يحتاجه تملك حمار أو جمل . ولهذا السبب فان الربابنة الذين يملكون السفن التى يعملون عليها كانوا قليلين بالمقارنة . ولذلك فان القارب كان يملكه رجل غنى عادة من عاصمة المحافظة (اغريقى أو رومانى) يشتريه كاستثمار . ومن ثم كان عليه أن يعين ربانا يقود المركب ، ويبحث عن بضائع لنقلها ويعين الطاقم الذى

---

(١٤) P. Lond. 1164 h = select Papyri 381. Pliny, Natural History, BK 6, sect. 102.

ـ اربعون كيلو مترا فى اليوم :

وبخصوص التفاصيل الفنية راجع :

L. Casson, ships and seamanship in the ancient world, Princeton, 1971, esp p. 164.

يحتاجه . وفى المثال التالى المؤرخ من عام ٢٢١ ميلادية نجد قاربا يمتلكه ويقوم على تشغيله اثنان من سكان أوكسيرنخوس :

« قارب خفيف الوزن يسير ذاتيا ، طوله ١٥ ذراعا ، مجهز تماما وله طاقم (بحارة) يكفى لرحلة أعلى النهر الى تيبنوتس Tebennouthis والعودة مرة أخرى من تبنوتس الى أوكسيرنخوس ، ثمن الرحلة ذهابا وايابا خمسمائة دراخمة من الفضة ، واناء (Metretai) من الخمر وعشرة صناديق (؟) من لحم العجول وعشرة أوان من زيت الزينون وثلاثة اوان من زيت الفجل . ويقر أصحاب القارب أنهم استلموا مائة دراخمة (كعربون) ، وسيتسلمون الباقى عند تنزيل الحمولة فى أوكسيرنخوس عند العودة من تيبنوتيس ، والملاك عليهم تجهيز القارب للتحميل فى الثانى من الشهر القادم بابة ... ويبحرون بكل حذر ، فلا يبحرون فى الليل أو فى العواصف ويرسون كل يوم فى أكثر الأماكن أمنا ... وسيقوم الملاك بتوصيل البضاعة كاملة ، كلها ، خالية من أى أضرار يمكن أن تتعرض لها بسبب الابحار ، والملاك المذكورون سينتظرون المستأجر فى تيبنوتيس حتى العاشر من الشهر المذكور بابة ، وبعده سيبحرون كما هو موضح فى السابق . وهذا التعاقد صالح (تاريخ متفق عليه بين الطرفين) وسيدفع للملاك أجر أربعة مسافرين (توقيع) . .

هناك ذكر لعدد قليل من الجسور فى مصر على الرغم من أن الرومان قد بنوا بعض الجسور أو على الأقل أعادوا بناءها ولو على الأقل لتسهيل حركة قواتهم . ولكن نقل الناس والبضائع فى النيل والقنوات الملاحية الكبيرة ـ فضلا عن أرض الوادى أثناء الفيضان ، كانت تتم أساسا عبر المعديات . وليس لدينا أية تفاصيل عن المراكب التى استخدمت لهذا الغرض وان كان المؤكد أنها كانت صغيرة نسبيا ومسطحة ويبدو أنها كانت على العموم تدار بمعرفة ملاكها الذين كانوا يدفعون رسوما للحصول على تصاريح بالعمل أو كان يدفعون ضريبة على الدخل .

وفى مهن كثيرة كان العمال ينظمون فى جمعيات تشبه « النقابات » . وتخبرنا الوثائق عن وجود نقابات لسائقى الحمير ، والقماشين والصباغين والنساجين وعمال الفخار وصناع الزجاج ، ونقاشى الكتابة الهيروغليفية وقادة المراكب النيلية والبحارة وصناع الأحذية وتجار الملح وآخرين لم تسجل مهنهم فى الأجزاء الباقية من البرديات . أما نقابات صناع الخبز ولحامى البرونز وتجار البيرة وتجار الزيت وآخرين كثيرين ذكرتهم وثائق

---

(١٥) The Papyrus, P. Lond. inv. 616 + 245, نشرت فى Zeilschrift Für Papyrologie und Epigraphik 20 (1987), 162-5.

القرن الرابع وما تلاه ، صحيح أن بعض هذه النقابات كانت بلا شك حديثة النشأة (فى ظل السياسة الاقتصادية الاجتماعية للسيطرة الرومانية) الا أن الصحيح أيضا أن الباقى كان موجودا منذ فترة أبكر ٠ ولدينا حوالى ست برديات تؤرخ من القرن الأول من الحكم الرومانى تلقى ضوءا على الوظائف الداخلية لهذه التنظيمات ٠ وكانت توجد مجموعة مكتوبة من القواعد مشابهة فى مجملها لتلك الخاصة بالجمعيات المهنية وجمعيات الدفن المنتشرة فى جميع أنحاء الامبراطورية الرومانية ٠ وقد حددت هذه القواعد قائمة الواجبات وحددت أيام المناسبات ومقدار الجزاءات التى تفرض على أنواع مختلفة من المخالفات بما فيها عدم الانتظام فى حضور الاجتماعات المقررة ٠ والبعض الآخر خصص للاهتمامات الاقتصادية للأعضاء ، مع وضع قائمة بأسعار بيع منتجاتهم أو تقديم خدماتهم ٠ وكانت هناك أيضا نصوص للاجراءات التى يجب اتباعها فى حالة تعديل القواعد ، لمساعدة الأعضاء وقت الحاجة ، والطقوس الجبرية التى يجب أن تراعى عند موت أحد الأعضاء ٠ وفى بعض النقابات ان لم يكن فى الكل ، كان على العضو الذى يحتفل بمناسبة مثل زواجه أو ميلاد طفل له ان يقدم مساهمة مناسبة منه لخزينة الجمعية (١٦) ٠

ومع هذا ، وعلى عكس نقابات العصور الوسطى التى تجمع اعضاؤها معا لحماية مصالحهم المشتركة ، فان النقابات فى مصر الرومانية قد أنشئت لخدمة الادارة فى الاقليم عند تعاملها مع الناس الذين يعملون فى مختلف المهن والوظائف ٠ فمثلا عندما تريد الحكومة أن تضع نظاما لملابس أو أغطية الجنود فانها تحتاج فقط للاتصال بسكرتارية نقابة النساجين فى المنطقة المعنية بدلا من الاتصال بعشرات النساجين كل على حدة ٠ وبالمثل فان وجود النقابات (الجمعية) جعل من السهل على ادارة الاقليم أن تجعل المجموعة كلها مكلفة بتنفيذ الأمر ومسئولة عن أى تقصير (١٧) ٠

هناك مهنتان أخريان : المرضعات والعاهرات ٠ وقد ذكرت الأخيرة بالفعل مرتين ، احداهما فى خطاب خاص والأخرى فى تعريفة فقط (سبق ذكرها فى نفس الفصل) ٠ المرة الأخرى سوف يأتى ذكرها فى الفقرة التالية ، وهناك اشارات أخرى فى الفصل الثامن ٠ عندما اكتشف النص الذى يضم التعريفة فى عام ١٨٩٤ م قفز المعلقون الأوائل الى الإستنتاج بأن الضريبة المفروضة على العاهرات كانت دليلا على وجود جهد ضريبى للتخلص من « أقدم مهنة فى التاريخ » ولكن بعد التمحيص فطن

---

(١٦) انظر خصوصا P. Mich. 243-5.

(١٧) هناك مثال واضح نجده فى الفصل الثامن ٠

العلماء الى أن سياسة فرص الضرائب الرومانية لم تكن على أساس أخلاقى، ولكن ببساطة « ماذا كان يمكن أن تجيبه هذه السياسة » وفى ضوء ذلك فان الرسوم العالية جدا التى تحصـل من العاهرات المارات من بوابة كوبتس كانت فيما يبدو رد فعل للعائد المرتفع المتوقع لوجودهن فى منطقة يعيش فيها الرجال المارون ورجال الأمن المعسكرون فرادى فى الصحراء ظمأى لصحبة أنثى ٠

ولكن رغم أن العائد قد يكون مغريا ٠ فيبدو أن المرأة كانت فى العادة لا تدخل الى حياة الدعارة الا اذا دفعت اليها تحت وطأة الحاجة ٠ وتعطينا حادثة تعود للقرن الرابع صورة بهذا الخصوص وهى بالتأكيد مثال لما كان يحدث فى القرون السابقة أيضا ٠ كان هناك اسكندرى يدعى Diodemos يحاكم لقتله عاهرة معروفة ، سبقت له معاشرتها ٠ وقبل النطق بالحكم استمعت المحكمة الى التماس عن الأضرار أو طلب للمعونة ٠

« ام العاهرة التى تدعى ثيودورا ، وهى سيدة فقيرة ، التمست أن يجبر ديوديموس على امدادها بمعاش ، كتعويض صغير لها فى حياتها ٠ وقالت « لهذا أعطيت ابنتى لقواد ، من أجل أن أجد سبيلا للرزق ٠ والآن حرمت من مصدر مساعدتى بموت ابنتى ، فاننى ألتمس تبعا لذلك تقديم بعض المساعدة لى لاعانتى ، لأننى امرأة فقيرة » (١٨) ٠

المهنة النسائية الأخرى كانت مهنة المرضعة ٠ ومع تفشى الوفيات بين الأطفال لم يكن هناك نقص أبدا فى نساء لديهن لبن غير مستخدم والى هذه المرأة ٠ كان يتم احضار وليد سيدة رومانية أو سكندرية من علية القوم تحاشت الارضاع باعتباره خطرا على جمالها أو ارتباطاتهـا الاجتماعية ٠ وقد يكون الرضيع طفلا ماتت أمه أو جف لبنها ٠ ولكن فى أكثر الأمثلة الموثقة كان الرضيع لقيطا يرغب منقذه فى تربيته لكى يكون عبدا له ٠ وسواء كانت المرضعة نفسها عبدة أو حرة فذلك موضوع ليست له أهمية ٠ كانت اللياقة هى الاعتبار الأساسى ونتيجة لذلك نلقى ليس فقط (كما لابد نتوقع) اماء يرضعن أطفالا أحرارا ولكن أيضا سيدات أحرارا يرضعن أطفالا وعبيدا ٠ اختلف طول المدة التى كانت تؤجر فيها الحاضنة ، من ستة شهور الى ثلاث سنوات ، ولكن الفترة المتوسطة والأكثر شيوعا كانت عامين (وهى فترة طويلة بمقياسنا وان كانت ما تزال شائعة فى أجزاء كثيرة من العالم الثالث) ٠

---

(١٨) BGU, 1024, vii.

وعقود هذه الخدمة تتبع نموذجا ثابتا ، مع اختلافات فردية قليلة نسبيا • ان المرضعة تأخذ الرضيع الى مكان اقامتها ، مع وعد باطعامه وكسوته وامداده بكل شيء ضرورى للحضـانة الصحيحة • فاذا مات الرضيع خلال الفترة المحددة ، فهى مرغمة أن تأخذ طفلا آخر لكى ترضعه ، بدون أجر اضـافى •

وأحيانا يوجد تحديد بأنه خلال مدة العقد « لكى لا يفسد لبنها » فان الحاضنة لا يجب أن يكون لها علاقة جنسية مع أى رجل ولا أن تصبح حاملا ولا أن ترضع طفلا آخر • وكان أجرها ـ وهو أجر عامل غير ماهر ـ يدفع عادة جزء منه نقدا (بعضه يدفع مقدما) والباقى على أقساط شهرية من النقود وزيت الزيتون (والأخير بلا شك كان لكى يحمى جلد الطفل من الحكة والطفح الجلدى) •

وفى الاقتصاد ، بأنشطته المختلفة ، كانت مبالغ صغيرة من المال هى التى يتم تداولها نقدا يدا بيد (وهو تعبير نمطى يظهر كثيرا فى العقود والصفقات) • أما المبالغ الكبيرة فكان يتم تداولها من خلال البنوك • وهذه البنوك كانت كثيرة ومنتشرة ، وتركزت غالبا فى مدن المحافظات والمدن اليونانية كما هو متوقع ، ولكنها وجدت أيضا فى القرى كثيفة السكان • كانت الوظيفة الأولى للبنوك « العمومية » هى ايداع وتحويل ايرادات الضرائب ، بينما من الناحية العملية كانت كل الأعمال الخاصة وحتى بعض الأعمال العامة تتم من خلال بنوك ملكيتها خاصة • وعلى الرغم من أن الأعمال المصرفية لم تتطور لتصل الى درجة النظم الحديثة كما افترض أحيانا ، فانها كانت تتضمن بالاضافة للعمليات البسيطة من ايداع وسحب ، خدمات أخرى مثل الدفع لطرف ثالث وتحويلات لرؤوس أموال ، أحيانا ذات أحجام ضخمة ، الى بنوك أخرى وحسابات أخرى بناء على أمر كتابى بسيط • واذا كانت البنوك التى تعرف باسم بنوك الاستيدال وبنوك الاستئجار وبنوك التسجيل متخصصة فى الأنشـطة التى تدل عليهـا أسماؤها ، فانها لم تكن تفعل ذلك بهدف استبعاد الأشكال الأخرى من المعاملات • وهكذا يمكن لرجل أجر أرضا لمدة خمس سنوات أن يدفع ايجار كل المدة مقدما من خلال بنك استبدال ، والذى يبدو لنا من اسمه كما لو كانت وظيفته تشبه الى حد كبير ما نسميه بنك الخصم • وفى مثال آخر يظهر بنك استبدال يؤدى خدمة كبنك تسجيل فى عملية شراء منزل (١٩) •

---

(١٩) الأمثلة المذكورة هنا هى : P. Oxy. 2584 and P. Strassb. 34.

هذه المعلومات التي لدينا عن الموضوع تكشف ، بما لا يجب أن يدهش أحدا أن أصحاب البنوك كانوا رجالا ذوى ثراء ووضع اجتماعي عال . وما عدا قليلا من أصحاب البنوك القروية ذوى الأسماء المصرية فان أصحاب البنوك الذين أحصيناهم كانوا يحملون أسماء يونانية مع وجود اسم رومانى هنا أو هناك . وكان معظمهم أعضاء فى الطبقة الراقية المحلية والقليل منهم من تقلد مناصب عالية مثل تيبيريوس كلوديوس ديمتريوس ابن بيون وهو اسكندرى الذى انتخب حاكما للجمنازيوم فى مدينته ، وكوفىء بمنحه حق المواطنة الرومانية ، ورقى الى سلك الكهانة ، وكرم باختياره عضوا فى أشهر المجامع العلمية القديمة وهو متحف الاسكندرية . اننا نلقاه فى ايصـــال مؤرخ من حوالى ٥٠ م صادر عنـــه هو وأخيه ايزودورس لاعادة دفع مبلغ ضخم مقداره ١٣ تالنتا (٧٨ ألف دراخمة) مدفوعة بواسطة شيرمون Chairemon شخصيا وعن طريق آخرين ، بحوالات مسحوبة من قبل على بنك ناركيسوس بن أرخياس ، وحوالات على بنك ديمتريوس وايزودورس نفسيهما ، وعلى الحوالة المسحوبة الآن بمعرفة شيرمون المذكور والمدفوعة بواسطة البنك السابق ذكره ناركسيوس Narcissus (٢٠) . ان البنـــوك كانت عملا يبدأ فيه الانســان غنيا وينتهى أكثر غنى .

وكانت الثروة والشـــهرة من نصيب الممثلين والأبطال الرياضـــيين أيضا الذين كانوا يعرضون فنونهم فى مدن وقرى مصر وكان نجوم القمة كل فى ميدانه يجوبون المدن الكبرى فى العالم الرومانى ، حيث كانت تنهال عليهم التكريمات .

أما فنـــانو المسرح ، أو كما كان يطلق عليهـــم فى ذلك الـــوقت الديونيسيون ، اذا أصبحوا متميزين بما فيه الكفاية ، كانوا يختـــارون لنقاباتهم المحلية أو الاقليمية . وهذه النقابات كانت وحدات من الجمعية المقدسة للسفر حول العالم للمنتصرين فى الألعـــاب المقدســـة والفنانون المتوجون بالتاج الذهبى ، المكرسة (للاله) ديونيسيوس وسيدنا (اسم الامبراطور الحاكم) . يظهر اسم الجمعية فى أماكن مختلفة ولكن كانت رئاستها ومركز العبادة فى روما . وتذكر ثلاث برديات من القرن الثالث احـــداها فى برلين والأخريان فى اكســـفورد المزايا التى وهبهـــا باسراف أغسطس والأباطرة اللاحقون على أعضـــاء الجمعية فهدريان ، على سبيل المثال أصدر مرسوما يؤكد على :

---

(٢٠) P. Oxy. 2471 فى القرن الثالث نجد بعض أصحاب المصارف قد اضيروا متأثرين بزيادة نسبة التضخم المالى ، وراجع المثل الموجود فى :
P. Oxy, 1411 + Select Papyri, 230.

« المزايا التى منحت للجمعية ، وهى الحصانة الشخصية وأسبقية الجلوس (فى المسارح الخ) والاعفاء من الخدمة العسكرية والاعفاء من الالزام بالأعمال العامة (انظر الفصل الثامن) والابقاء على كل ما يكسبونه من الألعاب والانجازات الأخرى بدون ضرائب ، والاعفاء من تقديم ضمانات تدل على اعفائهم من الضريبة المقررة للأضحيات العامة ، والحق فى الا يجبر على ايواء أجانب أو يعتقل تحت أى دعاوى أخرى ... أو أن يكون عرضة لتوقيع عقوبة الاعدام عليه » .

تأكيدات أعمق أصدرها كل من سبتموس سفيروس وكراكلا ، ثم مرة أخرى سيفروس الاسكندر . كان سرد الهبات الامبراطـورية يتبعه شهادة الجمعية لأحد الأعضـاء ، وعلى عكس رسـائل الأباطرة الرصينة والروتينية ، كانت لغة الجمعية سمجة وطـويلة .. والمثال التالى يحمل التاريخ المصرى الموافق ١٠ فبراير عام ٢٦٤ م :

« جمعية فنانون عبر العالم المكرسة لديونيسوس وللامبراطور قيصر بوبيليوس لكينيوس جاللينوس ماكسيموس بيـوس فيلكس أوغسطس ديونيسوس الجديد . الى الفنانين الأعضـــاء المكرسين لديونيسوس ، المنتصرين فى الألعـــاب المقدســـة ، والفائزين بالتاج الذهبى ، والى المنافســين تحيـــاتى ، اعلموا أن ماركوس أوريليوس ســـيرينوس بن سيرينوس من أوكسيرنخوس ، قد رسم فى الجمعية الفنية المقدسة للسفر حول العالم الجللينية Gallinic العظمى ، ككاهن أكبر فى ١٣٥ لعبة أوليمبية مقدسة عظيمة وعالية والخاصة بالاحتفال العظيـم لأنطينـوس Antinous ، وأنه دفع الرسوم المقررة بالقانون الامبراطورى وهى ٢٥٠ دراخمة أتيكية ، وكل التكاليف المقدسة لعبادة الأباطرة . وقد كتبنا هذا اليك للعلم . الى اللقاء » .

عندئذ يوقع كل واحد من الموظفين وكل واحد يكرر تقريبا لغة الوثيقة التى يشهدون عليها ، وفى النهاية يأتى نص رسالة الجمعية الى مجلس أوكسيرنخوس تعلمه فيه بأن ماركوس سيرينوس كعضـو فى الجمعية يستحق المزايا المذكورة هنا (٢١) .

كانت هنـاك جمعية موازية للرياضيين اسمها ، الجمعية المقدســة الهادريانية الأنطونية والسبتمية للرياضيين المسافرين المكرسة لهيراكليس ، والتى قرر امتيازاتها الأباطرة كلوديوس وفاسبسيان وسبتموس سيفروس فضلا عن الأباطرة الذين تمثل اسماؤهم جزءا فى اسم الجمعية . وكما

---

(٢١) الوثائق المذكورة هـ BGU 1074, P. Oxy. 2476 and P. Oxy. Hels 25. تتصل بثلاث حالات مختلفة للتكريم (ماركوس أوريليوس سيرينوس هو موضوع الثالثة) .

هو الحال الآن كانت حياة الاحتراف في الرياضة يمكن ان تؤدى الى شهرة أكبر وحظ أوفر من حياة الفنون · فنجوم الرياضة كانوا يكافأون بجوائز مالية قيمة وشهادات مواطنة فخرية ، ودخول كبيرة طوال الحياة بالاضافة الى مزايا أخرى هامة مثل الاعفاء من الضرائب والخدمة العامة الاجبارية · وكأمثلة أولية ، حدثت خارج مصر ، علينا أن نشير الى سائق العربات الذى جمع خلال ٢٤ سنة من السباق مبلغ حوالى مليون ونصف مليون دراخمة من الجوائز ، أو بطل الملاكمة الذى لم يهزم فى مائة مباراة ، ومنح حق المواطنة فى أربع عشرة مدينة مختلفة فى العالم الرومانى بما فيها الاسكندرية وأنطينوبولس (٢٢) ·

وبالنسبة لمصر فان البرديات تعطى كالعادة تفاصيل أكثر دقة ، ففى وثيقة من عام ١٩٤ م مشابهة لتلك التى اقتبسناها عاليه اعلان لأعضاء الجمعية « بأن هرمينوس Herminos المعروف أيضا بموروس Moros الملاكم أصبح عضوا فى جمعيتنا ودفع الرسوم المطلوبة وهى ١٠٠ دينار (٤٠٠ دراخمة) بالكامل » · وأيضا من هرموبولس عندما طلب من فائز فى ألعاب القوى الى مدينته المحلية من أجل معاش ١٨٠ دراخمة شهريا يستحقها عن كل انتصار من الانتصارين ، « واحد فى ألعاب النصر المقدسة (فى هرموبولس) ··· (والآخر) للانتصار والتاج اللذين فزت بهما فى الألعاب الأوليمبية العالمية المقدسة المقامة فى صيدا » (٢٣) ·

وبالنسبة لقيمة هذا المعاش فيجب أن نلاحظ بهدف المقارنة أنه فى منتصف القرن الثالث كان العامل الماهر وجنود الفرق ـ حتى بعد الزيادة بنسبة ٥٠٪ التى قررها كراكلا ـ يحصل على حوالى ٦٠ دراخمة فى الشهر ·

بل أكثر من ذلك ، ورغم المتاعب الاقتصادية للعصر ، فان الامتيازات الممنوحة للرياضى الفائز لم تكن فقط تصرف له ما بقى من حياته بل كانت أحيانا تمتد الى ورثته بعد وفاته (٢٤) ·

---

(٢٢) Corp. Inscr. Lat VI 10048 = Inscr. Lat. Selectae 5287 and IGRR IV 1519 = Sardis VII 79.

(٢٣) الوثائق المذكورة من
St. Pal : V. 52-6., P. Lond. 1178 = W. Chr. 156.
Select Papyri 306.

(٢٤) St. Pal. V 119 Verso iii = W Chr. 158 = select papyri 217.
وهناك ترجمة تمت مراجعتها أخيرا فى L-R II, p. 237.

وأخيرا ، فان بعض الامتيازات الممنوحة للبطل الرياضي كالكهانه وغيرها كان يمكن أن تشترى وتباع ٠ وبلا شك فان هؤلاء الأبطال الذين انهالت عليهم مكافآت الانتصارات المتكررة وجدوا من المناسب أن يحولوا بعض حقوقهم الى نقود كما فى المثال التالى من ١٤ أبريل ٢١٢ م :
« حول من حساب ايودايمون Eudaimon المعروف أيضا بنيلوس Nilos وهيراكليون المعروف أيضا أنوبيون Anoubion ١٠٠٠ دراخمة فضية ٠

(التاريخ) ، عن طريق بنك التسجيل المملوك لأنوبيون بن أمونيوس Ammonios (المواطن) من قبيلة ماتيديا العشيرة الكاليتكنيا Kallitekina فى أنطينوبولس ٠ الى ثوربون Tourbon بن أبوللونيوس ابن أمونيوس ، من قبيلة أوغسطس وعشيرة ديوسكوريا Dioskouria المنتصر فى الألعاب المقدسة والمعفى من الضرائب ٠

يقر ثوربون أنه قد تسلم من هيراكليون المعروف أيضا أثينودوروس الحق فى ان يمد بالطعام على الحساب العام والذى باعه لهيراكليون وأبنائه ، وهى الحقوق التى منحت له لانتصاره فى الملاكمة فى أنطينووبولس فى العامين ٣١ و ٣٢ من حكم كمودوس المؤله ، فى الألعاب المقدسة العظيمة على شرف أنطنيووس والثمن المتفق عليه معه ، وهو ألف دراخمة من الفضة ٠ طبقا للسجل الرسمى فى ادارة المحفوظات العامة ، مع كل الحقوق المترتبة عليه ٠

« هذا الايصال قرىء بصوت مرتفع لثوربون ، واقراره فى هذا الايصال كتب له « لأنه قال انه لا يعرف كيف يكتب ، توقيعات ثلاثة شهود والمشترى يلى ذلك) (٢٥) ٠

ولكى نختم هذا الفصل دعنا نلق نظرة سريعة على ممارسى المهن العلمية والوحيدون الذين يظهرون قليلا فى أوراق البردى هم الأطباء ونادرا ما يظهرون أثناء ممارستهم لمهنتهم ٠ وفى معظم الحالات يذكرون فى نصوص متصلة بملكية ثروات أو دفع ضرائب الخ ٠٠٠ ومع ذلك فيوجد لدينا بعض الأضواء عن عمل الأطباء ٠

---

(٢٥) P. Lond. 1164 i = Jur. pap. 31. كانت ماتيديا Matidia ابنة اخى الامبراطور تراجان وحماة هادريان الذى اسس مدينة انطنيووبولس Antinopolis ٠ اما لقب كاليتكنيا فيعنى « الأطفال الحلوين » وهو ليس مدحا لشخص ماتيديا وانما المقصود به مدينة أنطينووبولس نفسها ٠

رأينا فى نهاية الفصل الخامس مثالا لطبيب يكتب تقريرا رسميا عن موت مفاجىء ، أما المثـــال التالى فهو عن ضحية ضرب وسوء معاملة وقد كتب التقرير مواطن رومانى يعيش فى قرية — وهو من غير شـــك جندى متقاعد عمل فى الخدمات الطبية أثناء سنوات خدمته العسكرية ٠

« نســـخة من تقرير الى بروتارخوس Protarchos ، محافـظ محافظة أرسنوى ، القسم الهيراقليدى ، من جايوس Gaius منيكيوس Minicius فاليريانوس Valerianus الذى يمـارس أعمـالا طبيـة فى قرية كرانيس Karanis ومن فايزيس Phaesis بن زيناس Zenas وايسوريس Esouris بن كاستور Kastor ، كلاهما من شيوخ القرية ٠ (بالنظر) لحالة مستاريون Mystharion ابن كاميس Kames ، بعد أن زرناه فى حضـــور أخيه بتيسوخوس Petesouchos نقرر لك الآتى :

اننا نقسم بعظمة الامبراطور قيصر تراجاتوس هادريانوس أوغسطس أنه فى اليوم الخامس بعد أن ضرب مستاريون فوق صدغه الأيسر ، عالجته أناجايوس ميكينيوس فاليريانوس ، من جرح عميق ، وجدت فيه شظايا صغيرة من الأحجار ، واننا ، فايزيس وايسوريس ، باشرنا الجرح المذكور عاليه ، أو يكون علينا تبعة قسمنا (اذا كان كاذبا) ٠ (توقيعات ٠ التاريخ ٢٢ أغسطس ١٣٠ م) ٠

وفى خطاب مؤرخ يوم ٢٩ أغسطس سنة ٥٨ م مرسل الى طبيب ، يذكر الكاتب ، بعد الديباجة الافتتاحية المعتادة :

« لقد أرسلت لى تذكرتين طبيتين — احداهما وصفة أرخاجاثوس والأخرى عجينة كاوية ٠ ووصفة أرخاجاثوس جيدة ولكن المادة الكاوية تزيل الوزن النسبى للراتنج ٠

وما أريده منك فى الحقيقة هو (وصفة) لمادة كاوية قوية يمكن استعمالها بدون أضرار لباطن القدم ، وأنا فى أشد الحاجة لها ٠ وبالنسبة للمادة اللاصقة الجافة — كتبت أنه يوجد نوعان — فأرسل لى تذكرة طبية بالنوع المريح ٠٠٠ » (٢٦) ٠

---

(٢٦) Histories, BK 2, ch. 14 كان ارخاجاثوس طبيبا يونانيا فى القرن الثالث ق٠م ٠ حدثنا عنه كل من بلنى الأكبر وكاتب الطب الرومانى كلسوس Celsus كما تخبرنا عنه هذه البردية واستمر صيته وسمعته الطبية لقرون ٠ أما المشاكل الصحية التى نشأت عن تشققات أسفل القدم فلا زالت حتى اليوم متوطنة فى الأماكن التى يسير فيها الناس حفاة الأقدام معظم الوقت ٠

ورغم عدم ذكر القابلة في آلاف البرديات التي نشرت حتى الآن الا مرة واحدة · فان هذه المرة الوحيدة كافية لتذكيرنا بأن الفلاحين المصريين مثل سكان الريف في كل العصور والأماكن كانوا يلجأون اليها في احتياجاتهم الصحيه · واذا كان سكان المدن الاغريقية ومدن المحافظات قد اعتمدوا على الخدمات الصحية الأساسية المتركزة فيها ، فان أهل القرية اعتمدوا في علاج أمراضهم العادية على مجموعة من الأدوية المحلية البسيطة والمركبة والتي تطورت عن طريق التجربة والخطأ خلال القرون السابقة · وهناك أكثر من مائة وصفة طبية مكتوبة على البردي من العصر الروماني فيها علاج لكل شيء من شكاوى البطن الى الأمراض المعدية · وكما نتوقع فان الادوية في مجتمع ريفي هي في الأساس من مملكة النبات · وبالحساب نجد عددها يساوى ثلاث مرات عدد الأدوية ذات الأصل الحيواني أو المعادن معا · وهي تشمل كل شيء نباتي من المنتجات اليومية مثل الخمر والنباتات النادرة مثل الافسنتين والبرواق(*) نجد بعض الوصفات مخلوطة بقوة بالسحر والشعوذة في تعليمات استعمالها . ولكن الأغلبية وصفات مباشرة لاتعتمد على الشعوذة · ولكن في الحقيقة القليل منها هو الذى يعبر عن أفضل ما عرفه العصر من طب ورأى · وعلى سبيل المثال علاج تساقط الشعر ، وجد بأكثر من طريقة ، واحدة منها نشرت من أكثر من خمسين عاما وتم الاعتراف حديثا بأنها نفس الوصفة التي وجدت في أعمال جالينوس ، أشهر أطباء الامبراطورية الرومانية · وهي تقول :

« لمنع الشعر من التساقط »

بعد وضع اللودانوم Laudanum في نبيذ جاف · أضف زيت الآس والنبيذ حتى تصبح لها كثافة العسل ، ثم ادعك الرأس قبل وبعد الاستحمام · ويفضل أن تضيف بعضا من كزبرة البئر الذى يطلق عليه البعض أديانتوم Adiantum نصف كمية اللودانوم ، وتستخدمها مع زيت الآس أو مع جوزة الطيب » (٢٧) ·

وقد ذكرت كلمة طبيب بيطرى مرتين أو ثلاث مرات (طبيب الخيل في الاغريقية) ، وأيضا تعبير « طبيب الفرقة العسكرية » ، ولكنه ظهر في نطاق التعريف به في أمور ليس لها صلة بمهنته · وليس لدينا أيضا أى تفاصيل تتعلق بتدريب الطبيب · صحيح أننا نعلم أنه لم يوجد في أى

(*) مادة من الافيون Laudanum

(٢٧) M. H. Marganne, Papyrologica Florenlina VIII (1980), pp. 179-83.

مكان في التاريخ القديم أى امتحان رسمى يمكن أن يجتاز أو أى شهادة كان يتم الحصول عليها قبل ممارسة الانسان لمهنة الطب ٠ أما التدريب التجريبى على فنون العلاج فبلا شك كان يتم من خلال التحاق المبتدىء بعيادة طبيب ٠ ولم يكن هذا متاحا فقط فى المدن الكبيرة أو المراكز الطبية المشهورة ولكن أيضـا حيث يوجد طبيب محلى يرغب فى تعليم أسـلوبه الخاص ٠ ان الانتشار الواسع للكتب الطبية واضح مما عثر عليـه من برديات ٠ ففى مصر الوسطى كشفت أطلال المدينة اليونانية أنطينووبولس، وعواصم المحافظات هيرموبولس وأوكسيرنخوس ، وحتى بعض القرى ، عن تعليق على مؤلف لجالينوس ، وأكثر من عشر قصـاصات من أعمـال هيبوكرابيس ، فضلا عن أكثر من خمسين قطعة من أعمال طبية غير معروفة لنا حتى الآن ٠ وقد أثرت أعمال كتاب الطب الاغريق فى كثير من الوصفات الطبية التى وجدت كما فى المثال الذى ذكرناه حـالا ٠ وبالاضافة لهذا ، فقد كان للمصريين تراث طبى طويل ومؤثر خاص بهم مسجل فى البرديات الهيروغليفية التى ترجع الى الألفين الثالث والثانى ق٠م ٠ وكان ممارس الطب فى مصر الرومانية لديه قائمتا عقاقير يعتمد عليهما ، وبعض التداخل بين التراثين كان محتما ٠ وهناك مثال جيد على هذا المزج نجده فى لفافة بردية نشرت حديثا فى فيينا ٠ وهى كتاب طبى مكتوب بالديموطيقية من أواخر القرن الثانى الميلادى ٠ وقد كان أحد مجلدات مكتبة معبد سوخوس فى أرسنوى ٠ هذا المجلد به تجميع واف ، بعض ملامحه وعناصره مستمدة من الكتابات الطبية المصرية التى تعود للعصر الفرعونى وبعض ملامحه من الواضـح أنهـا ذات أصـل اغريقى ، والأكثر اثارة من هذا كله أن معظم اوصافهـا الطبية تتكون من مصـطلحات اغريقيـة كتبت بحـروف مصرية (٢٨) ٠ ولدينا ضوء غير مباشر عن اعداد طبيب فى قرية ، وهو يستحق اهتمامنا حتى لو كان الضوء الذى يلقيه المصدر على الموضوع يحيطه الشك ٠ ففى اقرار بخصوص تعداد السكان فى عام ١١٨ ميلادية ، يذكر قروى أن له ابنا فى السابعة عشرة من عمره يعمل بمهنة طبيب وان كان قد سجل الوظيفة بطريقة مختصرة Physi ٠ وهذا يعنى احتمال أن لدينـا هنا شـابا فى السـابعة عشرة من عمره له عـلاقة بممارسة الطب (كمـا اعتقـد منذ نشرت هذه البردية منذ أكثـر من ٧٠ عـاما) ! ٠

ففى المهن اليدوية ، كما رأينا قرب بداية هذا الفصل ـ كانت فترة التدريب الحرفى (كصبى) عادة تنتهى حتى فى سن أبكر من ذلك ٠

---

(٢٨) E. A. E. Reymond, A Medical Book From Crocodilopolis, Mitteil. Papyru.samml. oesteir - Nationalbibl, 10, 1976.

فهل ينطبق نفس الوضع على التدريب الطبى ؟ . حقيقة أن الشباب فى بلاد المناخ الدافىء ينضجون أسرع من أولئك الذين يعيشون فى مناخ بارد . فهل تقدم هذه الحقيقة أساسا كافيا لنفترض بأن سكان القرى كانوا يطمئنون لعرض آلامهم المرضية على طبيب ما يزال صغيرا هكذا ؟ . يضاف الى ذلك احتمال أن يكون هو الممارس الوحيد فى القرية ، أو ربما اكتسب سمعة بقدرته الشفائية أو قدرة أخرى يكون موهوبا فيها . مثل هذه الممارسات انتشرت جدا فى الشرق القديم . مرة أخرى ، فان الاختصار الذى استخدمه الأب (والذى أوضح أن وظيفته كاتب) قصد به الاشارة الى أن الشاب كان مساعدا لطبيب ، أو طبيبا تحت التمرين أو اخصائيا فى العلاج الطبيعى . وسوف يكون جديرا بالاهتمام ان نرى حلا لهذا اللغز اذا عثرنا على أدلة اضافية (٢٩) .

ليس لدينا أى فكرة عما اذا كانت أجور الأطباء عالية أو منخفضة ، فلم يذكر شيء عن هذا مطلقا . ونفس الشيء خاص بالمحامين . ونحن نعرف عنهم ، فى الحقيقة ، أقل مما نعرفه عن الأطباء . انهم يظهرون أحيانا فى قاعات المحكمة ، يدافعون عن موكليهم ، ولكن ليس لدينا أية معلومات عن كيفية اعداد الواحد منهم لممارسة المهنة فى القانون أو فى المحكمة . والشيء الذى يثبته تزايد اكتشاف البرديات هو أنه أصبح واضحا أن القانون الذى تعاملوا معه لم يكن رومانيا ولا اغريقيا ولا مصريا . ولكن كان يعتمد بصورة رئيسية على خليط من الاثنين الأخيرين ، ولكن المبادىء والاجراءات الرومانية تركت بالضرورة أثرها وزادت تحت الحكم الرومانى . وزاد هذا التطور بدرجة ملحوظة بعد عام ٢١٢ م. عندما منح الامبراطور كراكلا حق المواطنة الرومانية لكل سكان الامبراطورية الرومانية . والمثالان التاليان يكفيان لتوضيح مدى انتشار التأثير الرومانى فى ميدان القانون ، ففى القانون الاقليمى المصرى كان القاصر يبلغ سن الرشد فى الرابعة عشرة . وعندها يدرج فى سجلات المكلفين بأداء ضريبة

---

(٢٩) نوقشت تلك الوثيقة فى : P. Griss, 43 = SB 10630

« الأطباء تحت البشريين فى آسيا الصغرى » ، راجع : P. Griss. 43 = SB 10630

الرأس . ولكن حوالى منتصف القرن الثالث رفعت السن الى الحد المعترف به فى القانون الرومانى وهو سن الخامسة والعشرين · ومرة أخرى - فى بردية نشرت حديثا يعود تاريخها الى عام ٢٦٠ - ٢٦١ م · نجد شروطا معينة لاعادة البائنة بعد انفصال زوجين تنبع من التشريع الرومانى وليس من العرف المحلى الذى وجدناه في وثائق مشابهة ذات تاريخ أبكر (٣٠) ·

وعلى عكس القانون الرومانى فان القانون المحلى لم ينظم ولكنه تطور بتزايد مواد التشريع وقواعد المسائل الخاصة · وتحت هذه الظروف لابد أن تدريب المحامى كان الى حد كبير دراسة للقضايا والسوابق ·

(٣٠) التأثيران الرومانيان المذكوران هنا ناقشهما الكاتب في :
BASP 18 (1981), 73-4 and by D. J. Wolff in Zeitschr savigny-Stift. 96 (1979), 258-68.

تعداد السكان والضرائب والخدمات الالزامية

تعداد السكان وتسجيل الأرض :

« وشاع فى تلك الأيام بين الناس أن قيصر أغسطس أصدر مرسوما يفرض الضريبة على العالم أجمع .. وفرضت الضريبة على جميع الناس كل فى مدينته » . والقصة المشهورة عن ميلاد السيد المسيح المذكورة فى الاصحاح الثانى من انجيل لوقا تبدأ باشارة الى نظام غير محكم بتعداد السكان . ولكن فى مصر وحدها بفضل كميات هائلة من المعلومات التفصيلية التى أمدتنا بها مئات من البرديات وثيقة الصلة بالموضوع ، نستطيع متابعة الخطوات المختلفة والاجراءات المكتبية والمسئوليات الفردية التى يشملها تعداد السكان .

فى عصر البطالمة كان يتم تسجيل سكان مصر سنويا . ولكن أغسطس تخلى عن هذا النظام ، وأقر بدلا عنه نظاما لتعداد السكان يتم على فترات دورية مدتها أربعة عشر عاما . وطول هذه الفترة الزمنية يساوى الرقم المطابق للعمر الذى يتوقف عنده اعتبار الذكور المصريين قصرا ويسجلون لدفع ضريبة الرأس . وتبدأ عملية تعداد السكان باعلان مثل النشرة التالية الصادرة فى عام ١٠٣ م .

« جايوس فبيوس ماكسيموس Gaius Vibius Maximus حاكم مصر يعلن : أن تعداد السكان بيتا ببيت قد بدأ ، ومن الضرورى على كل الأشخاص الغائبين لاى سبب كان عن مناطقهم الأصلية أن يتنبهوا للعودة الى بيوتهم حتى يكملوا اجراءات التسجيل المعتادة وينكبوا على الزراعة المسئولين عنها · ونظرا لعلمى بأن مدينتنا (الاسكندرية) تحتاج بعض الناس من الريف · فأنا أرغب من كل من يجد لديه سببا مقنعا للبقاء هنا أن يسجل (نفسه عند) فولوسيوس فيستوس ، Volusius Festus قائد الفرق الذى عهدت اليه بهذه المهمة ·

ومن يثبت ضرورة بقائه طبقا لهذا التصريح سوف يمنح تصريحا موقعا منه قبل يوم الثلاثين من الشهر الحالى أبيب Epeiph ، وعلى الآخرين العودة الى ديارهم فى غضون ثلاثين يوما · وكل واحد يوجد (فى الاسكندرية) بعد ذلك بدون تصريح سوف يعاقب بلا رحمة ، لأننى أعرف جيدا أن ··· (الكلمات القليلة الأخيرة مفقودة) ·

وتم توزيع أمر مشابه فى أنحاء الولاية · ووقعت عقوبات قاسية على المتخلفين عن التسجيل كما نقرأ فى قواعد المكتب الامبراطورى الخاص :

٥٨ ـ الأشخاص الذين يتخلفون عن تسجيل أنفسهم وأولئك الذين ينبغى تسجيلهم فى تعداد السكان بيتا ببيت تتم مصادرة ربع أملاكهم واذا اتضح أنهم تخلفوا عن التسجيل فى تعدادين تتم مصادرة ربع آخر ·

٦٠ ـ أولئك الذين يتخلفون عن تسجيل العبيد تتم مصادرة العبيد فقط ·

٦٣ ـ أولئك الذين يستدعون لمحاسبتهم لتخلفهم عن التسجيل فى تعداد السكان السابق يعفون (من العقوبة) اذا سجلت عودة متأخرة (لهم) خلال ثلاث سنوات (١) ·

---

(١) P. Lond. 905 = Select Papyri 220 and BGU 1210.
وانظر أيضا الفصل التاسع

كم مرة تم فيها تنفيذ العفو عن المتأخرين لمدة ثلاث سنوات .
فى الحقيقة نحن لانعلم . ولكننا نعلم أن الاجراءات المعتادة كانت تسمح للعائدين بالتسجيل حتى نهاية السنة التالية لسنة .... وكما هو معتاد بين الناس فى عالم اليوم أيضا ، كان خمسة من كل ستة أفراد ينتظرون حتى اقتراب الموعد النهائى قبل تنفيذهم للاجراء المطلوب . كل رأس من أهل المنزل ، سواء كان مالكا أو مستأجرا للعقار الذى يعيش أو تعيش فيه ، كان ملزما باعداد بيان يذكر فيه ، بالاسم والسن ، كل فرد يقيم معه أو معها . واذا كان منزلا مهجورا كان المالك مطالبا بأن يقدم اقرارا يفيد ذلك . وكانت الاقرارات عن التسجيل « بيتا ببيت » كما كانت تسمى رسميا منذ تعداد السكان فى عام ٦١ ــ ٦٢ م (قبل ذلك كان يشار اليه بشكل عام باعتباره تسجيلا للهوية) كانت خاضعة للمحافظ أو الكاتب الملكى للمحافظة . وفى مكتبه كان يكتب رقم صفحة فى أعلى كل اقرار ثم تلصق حافته اليسرى بالحافة اليمنى للاقرار السابق . والنتيجة « مجلد ملتصق الصفحات » كما كان يسمى ، ويعطى المجلد بدوره رقما ويزود بدليل ويحفظ مع القوائم المماثلة .

والمعروف لدينا حتى الآن حوالى ثلاثمائة اقرار لتعداد السكان ، وبلا شك فان مجموعات البردى الموجودة فى العالم تحتوى على أعداد أخرى لم تنشر بعد . وأقدم اقرار لدينا خاص بتعداد السكان فى عام ١٩ ــ ٢٠م وأحدثها خاص بعام ٢٤٣ ــ ٢٤٤ م . والمثال التالى من اقرارات تعداد السكان الذى تم فى عام ١٧٣ ــ ١٧٤ م ، وهو يوضح الصيغة المتعارف عليها :

« الى أبيون Apion الكاتب الملكى لمحافظة بروسوبيت Prospite من بانتبيوس Pantheus ابن بيتوس Petos (اخوته) تثوينيس Tithoennesis وفلاكريس Phalakres وهارونيسس Haronnesis والأربعة جميعا من (قرية) ثلبوثون سيفثا Thelbothon Siphtha نسجل ــ طبقا لأوامر الحاكم الأشهر سالفيسيوس ستاتيانوس Salvisius Statianus من أجل تعداد السكان بيتا ببيت الذى يتم حاليا بشكل مناسب . الأملاك الخاصة بنا فى القرية ، وهى المنزل والأراضى الخالية المملوكة لكل من بانتبيوس وثثوينيس وفلاكريس وهارونيسس والأربعة كلهم أبناء بيتوس بن بنيفيروس Pnepheros

القاطنـون يتم ادراج كل منهم على حـدة : هناك أربعة اخوة ولدوا خلال ٢٨ عاما ، وكل منهم له زوجة ، بالاضافة الى اجمالى تسعة أطفال يخصونهم جميعا ، يعيشون كلهم فى نفس المنزل ، اثنان من الأطفال ولدا لاثنين من الاخـوة من زيجـات سابقة ، واثنـان من الاخـوة تزوجا من اختاهما ، والأخ الأكبر الذى يبلغ من العمر تسعة وأربعين عاما ، له ثلاثه اطفال من زوجته الثـانية ، البالغة من العمر الآن واحدا وعشرين عاما ، وقد سمى ستة من الأطفال التسعة باسماء أجدادهم وفقا للعادة المصرية ، وطفلة أخرى حملت اسم عمتها التى يظن أنها ماتت قبـل مولدها بفترة وجيزة ٠ وتسجل العلامات المميزة أو السمات (مثل « أعور ») بالنسبة للذكور لتساعد فى التعرف عليهم لأهداف ضريبة الرأس ، ونظرا لأن الاناث لم يكن يدفعن تلك الضريبة لذا كان يكتفى بالتعريف بهن بالاسم والقرابة والعمر (٢) ٠

وكان على مكتب المحافظ أو الكاتب الملكى أن يرسل نسخة من كل اقرار تعداد للسكان الى موظف التسجيل فى قرية أو مدينة أو ضاحية ٠ وفى تلك المكاتب المحلية كان يتم تجهيز أنواع من السجلات المتخصصة ، مثل سجل للذكور القاصرين ، وهم الذين سيتم نقلهم بعد ذلك الى قائمة دافعى ضريبة الرأس عندما يبلغ الواحد منهم الرابعة عشرة من عمره ٠

وبينما تكشف البرديات التى وصلتنا تفاصـيل تعداد السكان فى ست من المحافظات المصرية فهى لاتعطينا أى أرقام اجماليـة سـواء عن المحليات أو المناطق ناهيك عن الولاية ككل ٠ ويسجل اثنان من المؤلفين القدامى تقديرات لعدد السكان الكلى فى مصر ، وتقارب تقديراتهما يدفع للقول باحتمالات صحتها ٠ ففى بداية الحكم الرومانى كان عدد السكان طبقا لديودورس الصقلى ، سبعة ملايين نسمة ٠ وبعد ذلك بمائة عام أصبح عدد السكان وفقـا ليوسفوس سـبعة ملايين ونصف بدون اضـافة الاسـكندرية التى يحتمل أن سـكانها كانـوا نصف مليون آخـرين (الفصل الثانى) (٣) ٠

كان تعداد الأشخاص يتم تعديله طبقا للتغيرات التى تحدث من عام لآخر بمعرفة كاتب المدينة أو القرية كذلك كان مسح الأراضى الذى كان

---

(٢) P. Lugd. — Bat. V col- X = SB 7460 = P. Brux. 10.
وقد ظهر أهل منزل بعدد مماثل تماما (فى الفصل الثالث) وبخصوص زواج الأخ باخته انظر نفس الفصل ٠

(٣) Diodoru-, Historical Library, BK 1, ch. 31 ; Jusephus, The Jewish war, Bk. 2, sect. 385.

يقدم البيانات الضرورية لتقدير الضرائب على الأرض ومنتجاتها · وكان يتم تنظيم مسح الاراضى بمعرفة المحليات وتوابعها ، والتى كان يتم من خلالها ادراج قطع الارض المنفصله فى تسلسل طبوغرافى ، وبالنسبه لكل قطعة أرض كان يسجل (مع اختلافات محلية) فئتها الضريبية ، والملزم بدفع الضريبة (مالك أو مستأجر) ، والمحاصيل المزروعة عليها ، وهل تستقبل مياه فيضان النيل وكيف يتم ذلك (بالراحة أم بالرفع) ، ومساحتها كما سجلت فى مسح رسمى · ويتم التنبيه الى أى تغيرات فى اسم المالك وتسجيل ذلك عندما يحدث · وكانت تحدث بعض التغيرات فى فئة الضريبة من عام لآخر بسبب التغيرات فى مستوى فيضان النيل · والفلاح الذى تتأثر محاصيله عكسيا لأن بعض أرضه لم تصلها مياه الفيضان أو تآكلت أو تلفت بشكل آخر كان عليه أن يقدم تقريرا يفيد ذلك ويطلب التخفيض المناسب للضريبة وعند تسلم مثل هذه العريضة يتم ارسال مجموعة من المفتشين للموقع للتأكد من صحة الادعاء · ويصحبهم مساح لقياس المنطقة المتأثرة بالضرر · وسواء قدم الطلب بعد ارتفاع الفيضان مباشرة أو بعد ذلك بشهور عندما اقترب موسم الحصاد ، كان من السهل فى أى من الفصلين أن يؤكد المفتشون أن الأرض المعنية تركت جافة بالفعل أم لا ·

الضرائب والمطالبات :

لم تعرف أى حكومة قديمة وعدا قلة من الحكومات الحديثة بناء ضريبيا يضارع فى تعقيده بناء الضرائب فى مصر الرومانية · فهناك نواجه مجموعة هائلة من الضرائب والضرائب الاضافية التى تفرض على الفرد والأرض والمهن والخدمات والمبيعات والتحويلات وحركة البضائع والناس ، والملكية العقارية والشخصية ، خليط مذهل من الضرائب الأصلية والاضافات · واذا جمعت الضرائب والمكوس المنتظمة وغير المنتظمة التى نقابلها خلال قرون الحكم الرومانى ، نجد أن عددها يربو على المائة ضريبة ·

ومع ذلك فمجىء الحكم الرومانى لم يستشعره الناس فى البداية من خلال زيادة عدد الضرائب ـ والتى ظهرت بمضى الزمن ، وانما بسبب زيادة كفاءة التحصيل ـ على عكس الأحوال المتردية التى سادت أواخر عهد البطالمة · ويبدو ان التغيير فى نتائج التحصيل كان واضحا جدا حتى ان الامبراطور تيبيريوس ، الخليفة المباشر لأغسطس وبخ حاكم مصر لأنه أرسل الى روما ايرادات ضرائب تزيد عن الحصة المحددة · فكتب يقول « أريد أن يجز صوف شياهى لا أن تسلخ جلودها أحياء » · لقد كانت

قسوة الموظفين وجامعي الضرائب موضع شكوى مزمنة فى كل أقاليم الامبراطورية ، ولكن اصرار تيبريوس على الدقة فى محاسبة المعنيين أعطت فترة قصيرة من الانفراج . وأثناء فترة حكمه فى عام ٢٢ أو ٢٣ م شعرت قرية مصرية . واحدة على الأقل بالرغبة فى التعبير عن عرفانها بالجميل فى نقش تكريمى .

« (التاريخ) شعب قرية بوزيريس من محافظة ليتوبولس المجتمع قرر بالاجماع ما يلى :

حيث ان جنايوس بومبيوس سابينوس Gnaeus Pompeius Sabinus حاكم محافظتنا لا يدخر جهدا فى اهتمامه النشيط والكريم بسكان المحافظة ويعمل على وجه الخصوص من أجل صالح سكان هذه القرية – أى أنه يقيم العدل دائما فى ساحة قضائه بمساواة وأمانة ودون رشوة ، وفقا لرغبات حاكم الولاية الأقدس جايوس جاليريوس Gaius Galerius ، ويحرص على صيانة سدود الرى بكل الاهتمام فى الأوقات المناسبة . ويعمل ليل نهار بدون محاباة حتى اكتمالها . لذلك ، مع رى الحقول كلها ، نجنى محصولا وفيرا . ويعمل على حماية العاملين فى سدود القرية من النصب والاحتيال على عكس هجرهم للزراعة فى السابق . ويؤدى ما يجب على القرية للموظفين الآخرين فى ادارته ، وهذا على نحو مناسب يحمى الفلاحين من المعاملة غير العادلة والجزاءات – لهذه الأسباب وأملا فى أن نرد له الجميل قررنا تكريم المذكور بعاليه جنايوس بومبيوس سابينوس ، حاكمنا (محافظتنا) ، بلوحة حجرية تتضمن هذا القرار ، نقيمها فى أبرز مكان فى قريتنا . ونمنحه نسخة موقعة من أكبر عدد ممكن من السكان وهذه النسخة سوف تكون ايضا أصلية » (٤) .

كانت الكلمات الرسمية أيام الرومان (وكما كان الحال أيام البطالمة) تعلن عن اهتمام الحاكم بصالح رعيته والخيرات التى يغدقها عليهم (انظر الفصل العاشر بوجه خاص) . ولكن مظاهر هذا الاحسان لم تفعل شيئا من أجل تغيير الواقع . وبين أشياء أخرى كان نظام منح حق جمع الضرائب لأعلى مزايد (نظام الالتزام) – هو نظام استقر من قبل ، واحتفظ به الأباطرة دون تغيير تقريبا طوال المائة سنة الأولى من

---

(٤) SB 7738 = SEG VIII no. 527. وهناك مثال على غش حدث أثناء تنازل تجده مذكورا فى الفصل السادس ، أما تعنيف تيبريوس . الذى ذكر مسبقا فى هذه الفقرة فقد سجله : Dio Cassius, Roman History, Bk 57, ch. 10.

الحكم الرومانى ـ كان دعوة مفتوحة للفساد • فبعد أن يقبل عطاء المزايد ويتم التعاقد معه على أن يدفع للحكومة المبلغ الاجمالى المتفق عليه يكون هدفه الأول وغرضه الذى لايحيد عنه هو احراز الربح من مشروعه هذا ولكن أكثر من واحد منهم لم يقنع بهذا الهدف المتواضع ، فأكثر من واحد كان متعطشا لأن يحصل على التعاقد باعتباره مشروعا للثراء السريع ، وما أن يصل العقد جيبه بسلام حتى يبدأ استخدام أية وسيلة شرعية أو غير شرعية ، ليعظم ربحه وذلك بابتزاز مبالغ باهظة من ضحاياه البائسين التعساء • وكان يسهل هذا السلوك العنيف المتغطرس حقيقة أن جامعى الضرائب كان يرافقهم عادة ، ظاهريا لحمايتهم ، جنود أو حراس مسلحون • كان باستطاعتهم أن يستخدموهم ـ وقد استخدموهم بالفعل ـ فى ارهاب دافعى الضرائب ومعاملتهم معاملة سيئة • ومن قبل منذ عهد الجمهورية الرومانية كان جباة الضرائب نموذجا للجشع وسوء الحكم فى الأقاليم •

واستمرار سوء سمعة جباة الضرائب فى القرن الأول الميلادى نلحظه فى اقتران « جباة الضرائب بالخطاة » فى أناجيل (متى ٩ : ١٠ ، مرقص ٢ : ١٦ ولوقا ٥ : ٣٠ و ٧ : ٣٤) وفى القصة المذكورة فى انجيل لوقا ٣ : ١٢ ـ ١٤ • « وحتى جباة الضرائب تم تعميدهم ، وقالوا له « سيدنا ماذا سنفعل ؟ » فقال لهم « لا تجبوا أكثر مما حدد لكم » بل وسأله الجنود « ماذا سنفعل » فقال لهم « لاتبتزوا أموالا بالتهديد ولا تلفقوا الاتهامات الزائفة ضد أحد ، واقنعوا بأجركم » •

وتصلنا رواية حية عن غارات جامع ضرائب فى كتابات فيلون اليهودى الاسكندرى الذى توفى بعد عام ٤٠ م بقليل :

« عين مؤخرا فى منطقتنا جابى ضرائب ، عندما كان بعض الرجال الذين يتأخرون فى دفع الضرائب بسبب الفقر يهربون خوفا من العقاب الذى لايحتمل ، كان ينزل العقاب القاسى بزوجاتهم وأطفالهم وآبائهم وأقاربهم الآخرين ، ضربا ووطئا بالأقدام منزلا بهم شتى أنواع الامتهان ليجبرهم على افشاء أماكن الهاربين أو ليدفعوا (الضرائب) عنهم ، ولكنهم لايستطيعون أن يفعلوا الأمر الأول لأنهم لايعرفون (أماكنهم) ولا الثانى لأنهم لم يكونوا أقل فقرا من الهاربين • ولكن جابى الضرائب لم يكن ليتركهم قبل أن ينهك أجسادهم بالعصر والعذاب أو أن يقتلهم بطرق جديدة للموت • • • وعندما لا يوجد أقارب كان العذاب يمتد الى الجيران بل وأحيانا (كان يشمل) قرى ومدنا بأكملها ، وسرعان ما تصبح مهجورة وتخلو من سكانها الذين هربوا من بيوتهم وتناثروا فى أماكن يعتقدون

انهم فيها قد أمنوا تعقبهم · ولكن عندئذ ـ ومن غير المدهش ـ نجد رجالا متوحشين بطبيعتهم ، ولا يعرفون طعم الحضارة ينفذون أوامر سادتهم من أجل جمع الضرائب ، وينتزعون الضريبة السنوية كاملة ليس فقط من ممتلكات النـــاس وانما من أجســـادهم أيضـــا · لدرجة تعريض حياة بعضهم للخطر بدلا من آخرين » (٥) ·

ان غضب فيلون وسخطه اللذين يدويان بصوت مرتفع وواضـــح مع كل كلمة بدون شك صبغا فى تقريره بمقدار من المغالاة البلاغيـــة · ولكن مع ذلك فهذا التقرير يستند الى أساس حقيقى كمـــا تؤكد وثائق كثيرة تغطى فترة الحكم الرومانى كلها فى مصر · وهنا شكوى فلاح من عام ١٩٣ م :

« الى أمونيوس باترنوس Ammonios Paternus ، قائد مئة ، عن سيروس بن سيريون Syros son of Syrion الذى يعرف أيضـــا بتيركاسى Peterkas . من العاصمة (أرسنوى) · أنا وأخى سلمنا فى شهر بؤونة كل الضرائب التى ندين بها حبوبا وكذلك تسعة من العشرة أرادب المضافة علينا فى قرية كرانيس · والآن ، وبسبب الأردب الباقى ، اقتحـم جبـــاة ضرائب القمح بيتيسيوس بن توكيلو Peteesios son of Tokelo وسارابيون بن مارون Sarapion son of Maron وكاتبهما بطلميوس Ptolemaios فضلا عن مساعدهما أمونيوس ، منزلى بينما كنت فى الحقل ، ومزقوا عباءة أمى وألقوا بها أرضا · ونتيجة لذلك لازمت الفراش ، وأصـــبحت عاجزة (عن الحركة) لذا أطلب أن يتم استدعاؤهم أمامك ، بحيث أحصـــل على العـــدالة على يديك (التـــوقيع والتاريخ) » (٦) ·

---

(٥) Philo, On special Laws, Bk. 3. ch. 31.
(P. Mich. 529, as revised in Chronique d'Egypte, 50 (1975), 202-6).
ولسنا فى حاجة الى اضافة أن الأحداث التى تم وصفها كانت غير قانونية ، ان الأقارب والأصـــدقاء لم يكونوا مسئولين عن المتخلف عن دفع الضرائب ، وكما وجد الامبراطور سبتموس سيفروس أنه من الضرورة أن يؤكد فى عام ٢٠٠ م « حيث ان كثيرين ما زالوا يقدمون الالتماسات لكى يتحرروا من اجبارهم ـ على عكس المراسيم السابقة ـ بأن يدفعوا الضرائب عن الآخرين كما لو كانوا ضامنين لهم ؛ فنحن نرى أنه من الضرورى أن نؤكد مرة أخرى مرسومنا الذى أصدرناه مسبقا بخصوص هذا الموضوع وهو أنه لا يجبر شخص على دفع الضرائب المفروضة على غيره · لا الأب مسئول عن ابنه ولا الابن مسئول عن أبيه ولا أى شخص مسئول عن أى شخص آخر ولا يستبدل شخص بآخر يكون مطلوبا فى مثل هذه الأحوال ·

(٦) BGU 515 = Select Papyri, 286.
أمثلة أخرى لحالات الهجوم ذكرت فى الفصل الرابع ·

ولتجنب هذه القسوة أصبح من وسائل الحياة أن يسترضى الضعفاء الاقوياء بالرشاوى والهدايا ، التى كانت تبلغ فى بعض الأحيان مبالغ ضخمة • وكان يطلق على هذه العلاقة (الحماية) كما تعنى في الاستعمال الأمريكى للكلمة •

ولكن الرجل كان يمكنه عندما يخلو الى نفسه فى منزله أن يكتب فى دفاتره الأشياء باسمائها بدون تنميق ، كما يبدو من هذا الحساب على سبيل المثال :

لرجل الشرطة العسكرية	٢ دراخمة و ١ أبول
هـــدية	٢٤٠ دراخمة
مرضـــعة	٢٤ دراخمة
للحـــارس	٢٠ دراخمة
للابتزاز	٢٢٠٠ دراخمة
لرجلى الشرطة	١٠٠ دراخمة
لهرمياس رجل الشرطة	١٠٠ دراخمة

نصف السنة الثانى

للجندى ، بناء على طلبه	٥٠٠ دراخمة
(يتبع ذلك مشتريات عديدة ومبالغ خاصة بالضرائب المدفوعة) للجنـــدى ، بنـــاء على طلبـــه	٤٠٠ دراخمة (٧)

وتصـــوير فيلون للمقصرين فى دفـــع الضرائب الذين تحولوا الى هاربين وما نتج عنه من اقفار سكانى هذا التصوير تدعمـــه هو أيضا وثائق كثيرة • كان الهرب عادة هو الملاذ الأخير للفلاحين المصريين عندما تصبح الظروف غير محتملة • وفى القرون السابقة على الحـكم الرومانى كان الهروب يتجه عادة الى حرم أحد المعابد ومنها يدعى اللاجئون للعودة الى منازلهم وأعمالهم عندما تهدأ الأحوال • حدث تغيران هامان تحت حكم الرومان • فقد لجأت طبقات اجتماعية أخرى الى الهرب عندما دفع الناس

---

(٧) SB 9207.,

وانظر ايضا الفصل التاسع •

آخرين الى هذا الحل النهائى الى جانب الفلاحين . كما أن التغيب الناتج عن ذلك صار أطول زمنا وأحيانا أصبح دائما . « هل سأصبح هاربا؟ » كما رأينا (فى الفصل الخامس) كانت من بين الأسئلة المعتادة التى توجه لكهنة معابد النبوءات . وقد اتجه كثير من الفارين الى المدن اليونانية فى مصر وخاصة مدينة الاسكندرية حيث كانوا يأملون ، كما يقول فيلون ، فى أن يختفوا فى زحام هذه المدن . وأمر الطرد الذى أصدره الامبراطور كراكلا عام ٢١٥ م يشير الى « الريفيين الذين فروا الى الاسكندرية من مناطق أخرى » . وآخرون انضموا الى أوكونوا جماعات متنقلة من الخارجين على القانون ، يسطون على القرى المسالمة والمسافرين ، وكان هؤلاء شوكة دائمة فى جنب الادارة الرومانية (هامش ٢٦ فيما يلى) . وفى أحيان كثيرة خاصة فى أوقات التعداد كانت الحكومة تضطر لاصدار عفو ضريبى كاغراء للفارين على العودة الى ديارهم . ومع ذلك بقيت هذه الاجراءات فى أغلب الحالات ذات أثر وقتى ، اذ استمرت المشكلة متوطنة .

وعندما كان شخص ما يهرب كان على أقرب أقربائه أو أى جماعة أخرى معنية أن تبلغ عن غيابه مؤكدا عادة ـ على أمل أن يبقى جابى الضرائب بعيدا ـ أن الهارب لم يخلف وراءه أية ممتلكات . وقد تم العثور على عدد من هذه البلاغات تعود الى النصف الأول من القرن الأول الميلادى ، وهو نفس الوقت الذى كتب فيه فيلون قائلا :

« الى أبوللونيوس Apollonios وديديموس Didymos كتبة ضاحية وقرية أوكسيرنخوس من ميناندروس Menandros وهيراكس Hierax ، ابنى هاربيخيس Harbichis . (نخطركم أن) أرسينوفيس Orsenouphis بن مينخس Menches صانع النحاس ، والمسجل فى تعداد السكان ضمن سكان المنزل الذى ورثناه عن أمنا ونمتلكه فى طريق أسراب الأوز ، فر الى مكان ما منذ بعض الوقت ولم يترك خلفه ممتلكات . ونقسم بـ تيبيريوس كلوديوس قيصر أغسطس جيرمانيكوس امبراطورنا ، أن أورسنوفيس قد فر ، وأنه لاتوجد ممتلكات تخصه ، وأنه لم يلتحق بالجيش ، واذا (سمعنا) أنه التحق بالجيش (سوف نخبرك) فاذا كنا صادقين فى قسمنا ستكون أمورنا على ما يرام ، واذا كان قسمنا زورا فالعكس » (الباقى مفقود) .

وتنتهى مثل هذه الاقرارات بطلب « أن يدرج (الهارب) فى قائمة الفارين الذين لا يملكون شيئا من هذا العام فصاعدا » وكان موظفو المدينة أو القرية يكتبون ويمدون جباة الضرائب بقوائم بأسماء « الرجال الذين

رحلوا الى أماكن غير معروفة » • كانت هذه القوائم تعدل كل عام وكانت تطول بشكل أسرع عندما يكون المحصول قليلا والاوقات صعبة • وقد بقيت سجلات قريه فيلادلفيا في محافظة أرسينوى ، كما حدث ، بالنسبة للسنوات الاولى من حكم نيرون • ففي صيف عـام ٥٥ م نجد ٤٣ رجلا مدرجين باعتبارهم « هربوا ولم يتركوا أية ممتلكات » وبعد ذلك باثنى عشر شهرا ارتفع عدد الهاربين الى ما يزيد على المائة ، ثم لم يلبث الرقم أن بلغ ذروته فيما يبدو فاصبح ١٥٢ • وعلى الرغم من أن عفوا جزئيـا أغرى سبعه وأربعين على العودة الى ديارهم ، الا أنه في خريف ٥٧ م كان عدد الهاربين المتخلفين عن دفع الضرائب ما يزال ١٠٥ هاربين • وهذه الأرقام تعنى كما تخبرنا البيانات الباقية من تعداد سكان القرية ، أن واحدا من كل سبعة أو ثمانية من رجال فيلادلفيا كان هـاربا كل أو بعض هذه السنوات •

ان هجر السكان لقراهم كان شديدا لدرجة أن الجبـاة الذين كانوا يحصلون ضريبة الرأس في فيلادلفيا وخمس قرى مجاورة رفعوا التماسا الى حاكم مصر راجين تعـديل عقد التزامهم ، وتبريرا لطلبهم يقولون : « تحولت القرى المذكورة آنفا من حالة العمار السكانى السابقة الى أعداد صغيرة بسبب هروب بعض الرجال دون أن يتركوا أية ممتلكات ، وموت آخرين ليس لهم أقارب • لذلك نحن نواجه خطر ترك مهمة جمع الضرائب بسبب الافتقار الى الموارد » • ومما لا شك فيه أن هؤلاء الجباة بالغوا في تصوير ورطتهم محاولين أن يحصلوا على اعانة • ولكن بعد مضى قرن من الزمان سجل موظف القرية الاختفاء الكلى لدافعى ضريبة الرأس من كفرين، وقد تضاءل عدد السكان الذكور في واحدة منهما من سبعه وعشرين الى ثلاثة وفي الثانية من أربعة وخمسين الى أربعة ، وفي خاتمة المطاف انتهى الأمر في الحالتين عند العدد صفر (٨) •

وهكذا وحتى دون المعاملة السيئـة والابتزاز غير الشرعيين ، كان الأمر بالنسبة لكثير من القرويين كفاحا دائما من أجل الوفاء بالالتزامات ، ومتأخرات عام أو أكثر مسجلة في الوثائق شأنها شأن المبالغ المدفوعة في الميعاد المحدد • وما جعل عبء الضريبة مرهقا للغـاية لم يكن فقط حجـم الضرائب المفروضة ولكن عددها أيضا • وليس هنـاك مكان أو حاجة بنا

---

(٨) P. Oxy. 2669, P. Ryl. 595, SB 7462, PSI 101, 102.

وانظر أيضا الفصل الرابع

لنعدد هنا كل أنواع الضرائب المفروضة · وعرض بعض الضرائب الرئيسية سوف يكفى لتوضيح نماذج المفهوم والتنفيذ ·

كان الدور الذى أنيط بمصر عندما ضمها أوغسطس الى الامبراطورية الرومانية هو دور الممون لمدينة روما · ومن ذلك الحين كانت مصر تشحن الى روما ثلث الحبوب التى تستهلكها تلك المدينة سنويا · وتقدر هذه الكمية فى المتوسط بستة ملايين أردب سنويا أى حوالى ١٣٥ ألف طن (٩) · وكانت ستبقى كمية اضافية فى الولاية ، ليس لدينا عنها أرقام مؤكدة ، لاطعام جيش الاحتلال · وبالطبع لم يكن دافع الضرائب الفرد يهتم بتلك الأرقام الفلكية الا قليلا ، هذا ان كان يعرف أصلا أى شىء عنها · فقد كان همه الأول التزامه بتسليم كميات الحبوب والمبالغ المالية المكلف بها ·

فبالنسبة لمحاصيل الحبوب كان سعر الضريبة المعتاد على الأراضى المملوكة للأفراد أردبا واحدا لكل أرورة · ولكننا نعرف حالات وصل سعر الضريبة فيها الى ضعف ذلك · وفى حدود الانتاجية المقدرة (الفصل السادس) تبلغ هذه المعدلات الى ما يشبه العشر · ومن الناحية الأخرى كان الفلاحون الذين يستأجرون ويزرعون مساحات من الأرض ضمن ضيعات الامبراطور ــ وهذه كانت تشتمل بدون شك على بعض أجود الأراضى فى الولاية ــ كانوا يدفعون ما بين خمسة وثمانية أرادب لكل أرورة · وهناك مثال بلغ فيه معدل الضريبة الى أربعة عشر أردبا وثلث · وبين هاتين الغايتين يوجد العديد من الفئات الضريبية ، على سبيل المثال : كانت الأراضى العامة (المملوكة للدولة) تدفع ثلاثة أرادب ونصف · وكقاعدة عامة كانت الأراضى الهامشية التى تعتمد على الرى (بالرفع) تدفع نصف معدل الأراضى التى يصلها فيضان النيل (الرى بالراحة) · وبالنسبة لكل نوعيات الأراضى كانت ضريبة الحبوب تزيد بمعدل من خمسة الى عشرة فى المائة كرسوم اضافية · وبالنسبة لكثير من المزارعين كان عليهم أن يسددوا ما سبق أن اقترضوه من بذور · أى قدر من المحصول تتركه كل هذه الالتزامات للمزارع ؟ بالنسبة لهذا الموضوع ليس أمامنا أى شعاع ضوء يجلى أمامنا الحقيقة ، ولكن لابد أن هذا القدر كان يختلف وفقا للظروف ·

واهتمام الحكومة بالمحافظة على الانتاج الوفير واضح · فالأرض البور لا تنتج محاصيل ، وبالتالى لا تدر عائدا · وقد كانت الدولة عاجزة عن أن تطلب محصولا من قطعة أرض لا يصلها الماء ، نظرا لبعدها عن قنوات الرى أو الروافع · ولكن ماذا بشأن الأراضى الصالحة للزراعة

---

(٩) Josephus, Jewish War, BK 2, sect. 286, Aurelius Victor, The Caesars, Ch. 1.

والتى هجرها الفلاحون وهربوا ؟ وماذا بشأن الحقول التى لم يتقدم أحد لتاجيرها أو العمل فيها ؟ كانت اجابة الحكومة على ذلك هو البساطة بعينها : كانت الحكومة تأمر بزراعة هذه الأرض اجباريا اما ك (ملحق) للأملاك المجاورة أو ك (حصة اضافية) مفروضة على القرى المعنية بالأمر ، والتى كان يقع على كتبتها وكبار السن فيها مهمة تقسيم زراعة هذه الحقول بين المزارعين المحليين • وهكذا بجرة قلم خلقت الحكومة دافعى ضرائب عن الأراضى غير المرغوب فيها ، ولكن بطبيعة الحال كانت هذه الأراضى فقيرة فى نوعيتها أو صعبة فى الوصول اليها ، لذا من السهل تصوركم كان استياء الفلاحين من مثل تلك الاضافات • وهذا يفسر لنا ما نراه من ضمان بأن قطعة الأرض خالية من مثل هذا العبء غير المستحب والذى يرد بكثرة فى عقود بيع وايجار الأراضى •

ولكى يدفع الفلاح ضرائبه لم يكن عليه فقط أن يدرس الحبوب ويذريها حتى تصبح نظيفة ، ولكن أن يسلمها ، أو يدفع تكلفة نقلها لمن يسلمها الى شونة الحكومة التى تخدم منطقته • وهناك يحصل على ايصال عن كل كمية يسلمها ، كدليل على الدفع وعليه أن يحفظه بعناية • هذه الايصالات ، كما رأينا فى مئات منها عثر عليها ، كانت تكتب أحيانا على أوراق البردى ولكن فى الأغلب الأعم على الشقف الفخارية (الاوستراكا) ومن هذه الحقيقة نستنتج أن دافع الضريبة كان مطالبا بان يحضر المادة التى سيكتب عليها ايصاله ، وبينما كانت تكلفة ورق البردى لا تذكر بالنسبة للجميع باستثناء البيوت الشديدة الفقر ، كانت شقف الفخار متوافرة فى كل مكان وبكميات هائلة ومجانا •

ولحصاد كل عام كان لكل شونة قمح حكومية مجموعة خاصة من جامعى الحبوب Sitologoi (*) الذين كانوا يعينون دوريا من السكان المحليين باستثناء الفقراء فقرا مدقعا ، ليخدموا دون أجر ويدفعوا تكاليفهم فى ظل نظام الأعباء الذى نشرحه فى الفقرة التالية من هذا الفصل • وكان جامعو الحبوب مسئولين عن كمية الحبوب ونوعيتها منذ لحظة تسلمهم لها فى الشونة الى لحظة تسليمها للمخازن الضخمة فى نابولس خارج الاسكندرية أو توصلها — اذا طلب ذلك — الى مركز عسكرى فى الطريق • وفى نيابولس كانت ضرائب القمح التى جمعت من كل مصر تصبح تحت سلطة أحد الوكلاء الرومان Procurator الذى يشرف على الشحن الى روما •

(*) ترجمت Sitologoi جامعى الحبوب — أما جباة الضرائب فهى ترجمة Tax Collestors

وكان جامعو الحبوب يتسلمون أغلب الضرائب فى الأشهر القليلة التى تعاصر وتلى مباشرة موسم الحصاد ، ولكن الضرائب المتأخرة كانت فى مرات كثيرة تمتد لسنتين أو اكثر · وكان شحنها نهرا الى الاسكندرية يستمر طوال العام الى أن يتم شحن كل كميات الحبوب التى جمعت باستثناء الكمية التى يسمح لهم بالاحتفاظ بها فى الشونة كبذور لكى تقرض لموسم البذر التالى · وكانت المرحلة الأولى لشحن الحبوب بمعرفة جامعى الضرائب تتم بأن تنقل من الشونة الى ميناء معين على النيل · وكان ذلك يتم بقوارب صغيرة بمجاديف أو يتم قطرها عبر قنوات الرى الكبيرة · ولكن معظم الحبوب كانت تنقل برا على ظهور الحمير والجمال ، وحمولة الحمار المعتادة ثلاثة أرادب أما الجمل فيحمل ضعفى أو ثلاثة أضعاف هذه الكمية · وكان من يقودون قوافل الحيوانات يجندون للقيام بهذا العمل كسخرة · ويوضح لنا وصف مفصل لعمليات التسليم الى مجموعة من القوارب النهرية بميناء أوكسيرنخوس من ٦ الى ١٤ ديسمبر عام ١٢٧ م تبين أن الحبوب كانت تصل الى دفعات تتراوح بين ستة الى اثنين وأربعين حمارا بحمولة يومية قدرها الاجمالى ٤٢٤ الى ١٣١٤ أردبا (١٠) ·

وعندما كانت الحبوب تشحن بأحد القوارب بالميناء النهرى كان ربان القارب يكتب ايصالا لصالح جامعى الضرائب القائمين على الشحن ·

« من أوريليوس أمونيوس Aurelius Ammonios بن أمونيوس الربان فى ادارة نيابولس لثلاثة قوارب حمولتها ١٥٠٠٠ أردب الى أوريليوس سارابيون Aurelius Sarapion جامع الحبوب ، بضاحية سكو ..ho ، المقاطعة العليا ، تحياتى · لقد تسلمت منك وكيلت الكمية المحددة لى من قبل المحافظ أوريليوس هاربوكراتيون Aurelius Harpokration والكاتب الملكى أوريليوس نيمبسون أوريليوس بن نيميسون Aurelius Nemesion المعروف أيضا بديونيسيوس تحت اشراف مراقبى الشحن والمعنيين الآخرين من الشونات العامة بالمقطعة المذكورة آنفا بميناء ساتيروس Satyros الواقع على النهر الكبير من القمح حصاد العام الثالث الماضى نقى وغير مغشوش وخال من الطين وخال من الشعير ومنخول ومكيل وفقا للطريقة المحددة باستخدام المكيال العام للنصف أردب · ومقدار الكمية ٧٧ أردبا بما فيها الاضافات ، وسوف أحملها الى الاسكندرية ، وأسلم الحمولة كاملة وغير تالفة لادارة نيابولس · وهذا الايصال صالح وكتب من ثلاث نسخ واحدة لك يا جامع الحبوب واثنتين للمحافظ وعندما طلب منى الطلب المذكور أفدت [التوقيع — التاريخ ٢٢١ ميلادية] ·

---

(١٠) P. Oxy. 2670.

وكان يرافق حمولة كل مركب أو قافلة رجل او اكثر كمشرفين على الشحنة • كانت وظيفته التحقق من الكميات عند الشحن وأن يحرص على الا يعبث أحد بها أثناء الطريق • وهذه المهمة كانت فى البداية من نصيب الجنود ، ولكن فى القرن الثانى تحولت الى خدمة الزامية تفرض على السكان المدنيين • وكان المشرف على الشحنة يحمل عينة أو عينات مختومة من الشحنة ليقارن بها الحمولة بمعرفة الموظف الذى يتسلمها فى نيابولس • فاذا ثبت وجـود غش فالمسئولية تقع على جامعى الحبوب الذين قدمت الشحنة من عندهم ، كما يتضح من المثال التالى : ـ

« من أنطونيـوس أيليانوس Antonius Aelianus [الوكيل فى نيابولس] الى محافظ يوسبولس فى طيبة ، تحياتى • بما أنه قد اتضح من الفحص أن الحمولة المنقولة بالسفن تحت قيادة باوسيس Pausis ابن سيبوس Sipos وطاقمه من المحافظة التى تحكمها : وهى ٢٠٠٠ أرادب من القمح ، قد غشت ، لذا أمرت بفحص نصف أردب للكشف عن الشعير والشوائب فتبين أنهـا تحوى اثنين بالمائة شعيرا ونصفا بالمائة شوائب • وبناء عليه لتعويض هذا النقص اجمع على مسئوليتك من جامعى الحبوب الذين شحنوا القمح كمية اجمالية قدرها ٥٠ ¾ أردبا من القمح بالاضافة الى الرسوم الاضافية والتكاليف الأخرى ، وعندما يدخل الدين (= الكمية المطلوبة) الى ادارتى أخبرنى بذلك [التاريخ ٢٨ اكتوبر ١٨٨] (١١) •

هذا اذن هو نمـط تقدير وتحصيل وتسليم الضريبـة الرئيسية والشاملة فى مصر وهى القمح لملء البطون الجائعة فى روما • ومما لا جدال فيه فان كل المنتجات الزراعية كانت خاضعة للضريبة أيضـا وبشكل أساسى الخمور (بما فيها الخل) والزيوت والخضروات • وعموما كانت روما تتزود بهذه المنتجات من ايطاليا والمناطق القريبة • ولذلك وباستثناء بعض الكميات التى كانت تجمع عينا لتسليمها للمراكز العسكرية فى مصر نفسها ، كانت الضرائب على هذه المنتجات تحصـل نقدا • ومن الضرائب الرئيسية الضريبة التى كان يطلق عليها « ضريبة المسح » وقد رأينا آنفا الدور الرئيسى للمساح فى قياس الأراضى المنتجة وغير المنتجة ـ وكانت تقدر بسعر عال على مزارع الكروم بمقدار ٤٠ دراخمة لكل أرورة ـ (ولكن المعدل قد يرتفع فى بعض الأمثلة النادرة الى ٣٥٠) وكان مقدار الضريبة على بساتين النخيل والفواكه يبلغ من ٢٠ الى ٣٠ دراخمة لكل أرورة ، ومزارع الخضروات من ٢٠ الى ٢٥ دراخمة • وثمة ضريبة

---

(١١) P. Oxy. 2125, and 708 = W. Chr. 432.

أخرى كانت تسمى « قسم الدخل » وكانت قيمتها أيام حكم البطالمة تتراوح بين عشر وسدس المحصول ، ولكن الادارة الرومانية وان كانت قد احتفظت لهذه الضريبة باسمها الا أنها كانت تحصلها نقدا ، بداية بمعدل ٥ دراخمات لكل أرورة على مزارع الخضروات و ١٠ على مزارع الكروم ، ولكن في فترة التضخم في القرن الثالث رفعت النسبة بشكل موحد فأصبحت ١٢½ دراخمة للجميع • وفي نوع آخر من الضرائب كان يتم تحصيل ضريبة من الفلاح على حيواناته الحقلية عن كل رأس لتكسبه لها ولاستخدامه مراعى الدولة • وهذا يوضح لماذا كان المالك مطالبا بأن يقدم تقريرا عن حجم قطعانه كل عام • ليقنع رجال الضرائب أن تقديره للضريبة قد اشتمل على الزيادة السنوية التى شهدها القطيع •

وبالاضافة الى الضرائب المفروضة على مختلف الأنشطة الزراعية كانت هناك ضرائب على المهن الأخرى وعلى الفرد نفسه ، وأكثر هذه الضرائب شيوعا كانت ضريبة « تسجيل السكان » Laographia وهذه هي ضريبة الرأس • ولم يكن يعفي منها الا الطبقات المتميزة جدا فقط وهي على وجه التحديد الرومان والاغريق الحضر واليهود وأعضاء أكاديمية الاسكندرية وعدد معين من الكهنة في المعابد الأكثر توقيرا ، وبعض كبار الموظفين من غير الرومان أثناء فترات خدمتهم • وكان كل سكان مصر الآخرين من الذكور خاضعين للضريبة من سن الرابعة عشرة (عندما لا يصبح الذكر قاصرا) حتى سن الستين • وكان موظفو مدن المحافظات والقرى عليهم أن يعرفوا من سجلات التعداد متى يصبح كل ولد في مناطقهم خاضعا للضريبة ومتى يستبعدون الأموات ومن يتخطون السن من القوائم • فكانوا يجهزون كل عام لوائح جديدة بدافعي الضريبة • وفي احدى هذه القوائم يسجل الموظف ، بعد أن أدرج أسماء دافعي ضريبة الرأس ، الحساب الختامي لذلك العام •

« مسجل للتحصيل [هذا] العام —

رجال يدفعون ضريبة الرأس	٦٢٩
(رجال) تخطوا السن ، بلغوا ٦١ [هذا] العام	٥
متوفون [هذا] العام	٢
اجمالى	٦٣٦ (١٢)

اختلف سعر ضريبة الرأس من محافظة الى اخرى ، مع ملاحظة أن سكان العواصم كانوا يتمتعون بسعر منخفض للضريبة — والايصالات

---

(١٢) P. Lond. 259 = W. Chr. 63 (AD. 94).

التى أعطيت لدافعى الضريبة من بعض المناطق ـ مرة أخرى ما سجل منها على الأوستراكا يفوق ما سجل على البردى ـ متاحة لنا بالمئات • ورغم ذلك فالسعر السنوى للضريبة ليس بالامكان تحديده على نحو قطعى ، لسبب بسيط وهو أن معظم دافعى الضريبة كانوا يفضلون الدفع على أقساط لا دفعة واحدة سنويا • وبالنسبة لنحو اثنتى عشرة محافظة لدينا عنها أدلة لا نملك الا مجرد استنتاج مقدار الضريبة السنوية فقط • ويبدو أن كامل سعر الضريبة فى الأغلب كان ١٦ دراخمة فى السنة ، وكان سكان عواصم المحافظات يدفعون اما ٨ أو ١٢ دراخمة • وبالنسبة لأجزاء طيبة ربما كانت الأسعار المناظرة للضريبة ٢٤ و ١٠ دراخمات • وبالنسبة لمحافظتى هرموبولس وأوكسيرنخوس فاننا نعرف أن سعر الضريبة فى العاصمة هو ٨ و١٢ دراخمة على التوالى•ونعتقد بناء على ذلك أن المحتمل أن كامل سعر الضريبة كان ١٢ و ١٦ دراخمة • والمحافظة الوحيدة التى لدينا عنها دليل قاطع بالنسبة لكلا السعرين فهى أرسنوى ، حيث كان سعر كامل الضريبة ٤٠ دراخمة وكان ساكن العاصمة يدفع ٢٠ دراخمة • وهذه كانت أعلى المعدلات فى مصر كلها ، وهى معدلات أعلى من ضعف معدلات معظم المناطق الأخرى • لذلك نفترض أن هذه المعدلات المرتفعة كانت تعبيرا عن حقيقة أن أرسنوى باعتبارها المستفيدة من أكثر نظم الرى امتدادا وتعقيدا فى مصر ، كانت أوفر المحافظات انتاجا وأكثرها رخاء • ورغم أن هذا التفسير يبدو جذابا فهو يظل مجرد استنتاج منطقى لا تدعمه أدلة قاطعة الى الآن •

وبالاضافة لضريبة الرأس كان المصرى الذكر البالغ يدفع أيضا ٦ $\frac{2}{3}$ دراخمة ضريبة للسدود (وهى الضريبة النقدية الوحيدة التى كان سعرها موحدا فى مصر كلها) • وحوالى ٢ دراخمة كضريبة للخنازير • الضريبة الأولى يعتقد أنها كانت لدفع تكاليف الامدادات والمواد اللازمة لصيانة السدود اللازمة لنظام الرى ، والواضح أنها كانت تدفع بالاضافة الى العمل المطلوب من الفلاحين فى السدود وليست بديلا عنها (كما رأينا فى الفصل السادس) •

أما بالنسبة لتحديد ضريبة الخنازير يمكننا أن نفترض أنها كانت تزود المعابد اليونانية والرومانية بحيوانات الأضحيات ، وعلى هذا النحو عملت كحافز للفلاحين المصريين على تربية حيوان كان محرما فى ديانتهم •

والضرائب الأخرى التى كانت تحصل نقدا كثيرة ومتنوعة • وكانت الضريبة التى طبقت على قاعدة عريضة من السكان هى « ضريبة الصانع اليدوى » • وهذه الضريبة كانت تحصل من كل فرد ذكر أو أنثى عمل بأى حرفة مقابل أجر أو ربح بما فى ذلك « الصبية تحت التمرين » الذين

يبلغون الرابعة عشرة فما فوقها • وكان تحصيل الضريبة يتم على حدة بالنسبة لكل حرفة • وهنا أيضا كانت الضريبة فى الأغلب تدفع على اقساط عادة شهرية ، لذلك فالأعداد الضخمة من الايصالات والسجلات الباقية تواجهنا بعدد مذهل من الأرقام من المستحيل أن نستنتج منها الضريبة السنوية الاجمالية التى كان يدفعها الحرفى الفرد • فضلا عن ذلك فسعر الضريبة اختلف باختلاف الأماكن • وهنا أيضا نجد أعلى سعر من محافظة أرسوى •

وكان مطلوبا من الحرفى ــ وهو « السيد » فى حالة وجود متدرب ــ أن يخبر السلطات عندما يمارس هذا المتدرب مهنة ، حتى يدرج فى قائمة الضريبة المناسبة • وكان مطالبا أيضا أن يبلغ السلطات عند تغييره حرفته، وعند تركه حرفة سواء كان ذلك بشكل دائم أو مؤقت ، حتى ترفع عنه ضريبتها • وقد تم اقرار هذا المبدأ بناء على سابقة حدثت فى منتصف القرن الثانى عندما رفض أحد الحرفيين أن يدفع الضريبة عن فترة تحول فيها الى نشاط آخر (من المحتمل أنه عمل من أعمال السخرة) • وقد عرضت هذه القضية على حاكم مصر فحكم فيها « اذا لم يمارس الحرفة لا يمكن محاكمته لعدم دفعه ضريبة (هذه) الحرفة » (١٣) •

كان على عمال اليومية والعمال العابرين الذين يرغبون فى التوقف فى أى قرية أو مدينة للعمل لفترة قصيرة ، أن يحصلوا على تراخيص مؤقتة من الجابى المحلى خاصة بحرفتهم • وانتشار هذه الضوابط معروفة تماما من خلال تصاريح اليوم الواحد التى كانت تصدر للداعرات (واحدة منهن كانت تسمى أفروديت) من أحد جباة هذه الضريبة ، تسمح لهن ــ من الواضح أنه مقابل رسم ــ بالرغم من أن القيمة غير مذكورة « بالذهاب للفراش مع من ترغبين فى هذا التاريخ » (١٤) •

ومن بين الضرائب المفروضة على الأفراد كانت هناك ضريبتان خاصتان للتعويض عن عجز المعدمين والهاربين فى سداد التزاماتهم • ولقد لاحظنا فى بداية هذا الفصل ••• ظاهرة دافعى الضرائب المفلسين الذين كانت تدفعهم حالتهم اليائسة للهرب • وكان كل هارب يتسبب فى نقص حصيلة الضرائب التى تحصل على الرؤوس • ومعظم الهاربين كما رأينا لم يكونوا يتركون خلفهم أملاكا ذات قيمة من أى نوع • ولم يكن بالامكان أيضا انتزاع أية ضريبة من المعدمين •

---

(١٣) Scritti ... Montevecchi, Bologna, 1981, pp. 196-7.

(١٤) Wo 1157.

كيف اذا كان يتم تعويض النقص فى متحصلات ضريبة الراس والضرائب المشابهة المفروضة على الأفراد ؟ وكما كان الحال مع الأراضى المهجورة ، كان حل الحكومة فى منتهى البساطة : فقد قسمت العجز على العدد الاجمالى لدافعى الضرائب الباقين وهذه الاضافة لابد كانت تختلف من عام لعام وفقا لحجم العجز وعدد دافعى الضرائب الذى سيقسم عليهم هذا العجز .

وفى القرن الثانى ، الذى ترجع اليه معظم المعلومات المتوفرة لدينا ، كانت « الضريبة المقدرة للهاربين » تتراوح بين ثلاثة أوبولات الى ثمانى دراخمات على كل دافع ضريبة . وكانت هذه الضريبة تفرض في السنة التالية للتعداد عندما كان العفو الصادر من الحاكم فى مرسوم التعداد يغرى كثيرا من الفارين بالعودة الى منازلهم .

وخضعت المعاملات التجارية أيضا لمجموعة أخرى من الضرائب كما كانت تفرض رسوم على تسجيل الوثائق فى المحفوظات العامة . ومن الضرائب التى كان لها تأثير كبير ضريبة العشرة فى المائة المفروضة على بيع الأملاك العقارية والعبيد ، وضريبة الاثنين فى المائة على الرهونات وضريبة متغيرة القيمة على حيوانات الأضاحى . وما سبق ذكره من أنواع الرسوم ، التى كانت تحصل عند كثير من نقاط المرور . وكان تسجيل الصكوك والوثائق الأخرى وتقديم الطلبات والأوراق الرسمية المماثلة تخضع كلها لدفع رسوم مقابل الخدمة .

وقد أشرنا من قبل الى تخصيص عوائد الضرائب للانفاق على جيش الاحتلال الرومانى فى مصر . ولأن هذه المخصصات كانت توفر فقط الاحتياجات الأساسية من الطعام والوقود والأعلاف ، فان العسكريين كانت لديهم السلطة لطلب امدادات وخدمات اضافية عند الحاجة . وتاريخيا فى الشرق والغرب على حد سواء كانت هذه السلطة القادرة على الاستيلاء والمصادرة مدعوة للتزيد فى الابتزاز والتغاضى عن الاسراف فيه ، فانزلق الجنود المفترض فيهم أنهم حماة الشعب والمدافعين عنه الى التصرف كقائدهم . ومن أكثر المساوىء شيوعا فى مصر الرومانية المطالبة بتقديم المأوى ووسائل النقل للجنود بدون مقابل . وهذه العادة – وهى غير قانونية . استمرت بصورة دائمة – ليس فقط في مصر بل وفي كل أنحاء الامبراطورية الرومانية – بالرغم من أوامر « الكف والتوقف » الصادرة عن حكام الأقاليم بل وعن الامبراطور نفسه . وأول هذه القرارات التى لدينا معرفة بها أصدرها فى عام ١٩ م جيرمانيكوس صاحب الجماهيرية ابن أخى تيبيريوس وولده بالتبنى ، عندما كان فى الاسكندرية فى اطار جولة بالأقاليم الشرقية لروما :

« يعلن جيرمانيكوس قيصر ، ابن [تيبيريوس] أغسطس حفيد أغسطس المؤله ، البروقنصل : لقد أبلغت أنه استعدادا لزيارتي صودرت مراكب وحيوانات ، وأماكن للاقامة تم الاستيلاء عليها بالقوة ، وهدد المدنيون . لذلك أمرت أنه يجب أن يكون واضحا أنني لا أرغب في أن يستولي أحد على أي مركب و حيوان حمل الا بتفويض من صديقي وسكرتيري بايبيوس Bebius . ولا يهاجم أي مسكن ، واذا كان ثمة حاجة سيحدد بايبيوس بنفسه الأماكن بعدل ، أما فيما يتعلق بالمراكب والحيوانات المصادرة أصدر أمري بأن يدفع لها ايجار وفقا لجدولي . ومن يعترض فليمثل أمام سكرتيري الذي سيحول دون وقوع أضرار بالمدنيين أو يحيل الأمر لي . فالاستيلاء بالقوة على حيوانات الحمل عند عبورهم المدينة ممنوع لأن ذلك عمل من أعمال السلب لا شك فيه » .

وفي عام ٤٢ م أصدر حاكم مصر مرسوما مشابها ، كذلك فعل الامبراطور كلوديوس في عام ٤٩ وكان مرسوم الأخير ينتقد بشدة « انعدام ضمائر الناس » في استمرار هذه المظلمة بالرغم من « العلاجات الناجعة » التي أمر بها . وكانت حيوانات الحمل الخاصة بضياع الامبراطور محمية ضد المصادرة بتمييزها بعلامات تربط حول الرقبة . نقش على احد هذه العلامات البرونزية التي عثر عليها بمصر « ملك ضيعة أجريبينا ، روتيليا الخاصة بمولانا الامبراطور ، غير خاضعة للضرائب أو المصادرة » . ثم لدينا أمر امبراطوري صادر في عام ٩٠ م في نقش عثر عليه في سوريا منذ حوالي خمسة وعشرين عاما :ـ

« من أوامر الامبراطور دومتيانوس قيصر اغسطس بن [فسباسيانوس أغسطس . الى الوكيل كلوديوس أثينودورس Claudus Athenodorus من بين المشكلات الخاصة التي تتطلب عناء كبيرا ، أدرك أن اهتمام والدنا المقدس فسبسيانوس قيصر كان موجها الى امتيازات المدن ، لذا أمر ألا تقع المظالم في حدود الأقاليم (المختلفة) عن طريق الايجار الجبري لحيوانات الحمل أو الطلبات الاستغلالية للمأوى . ولكن عن قصد أو عن غير قصد ..... لم يوضع هذا الأمر موضع التنفيذ ..... لذلك آمرك أيضا أن تهتم ألا يتم مصادرة حيوان حمل الا باذن مني لأنه من شدة الظلم أن تخول سلطة أو رتبة شخص له أن يفرض مصادرات ليست من حق أي شخص الا أنا . لذلك لا يتم شيء من شأنه أن يلغي أمري ويعرقل هدفي ..... لمساعدة الأقاليم المنهكة والتي تسد حاجاتها اليومية بصعوبة ، لا تدع أحدا يتحدى رغبتي بظلمهم أو يصادر سائسا الا اذا كان لديه أمر مني ، لأنه اذا اختطف المزارعون بعيدا فستبقى الأرض غير مزروعة . [الباقي مفقود] .

وعن هذا الموضوع يوجد أيضا مرسوم صادر حوالى عام ١٣٥ م عن حاكم مصر وآخر صادر حوالى عام ١٨٥ م عن حاكم سوريا . ولكن لم يكن أى قدر من النصح أو التهديد ليغير من النزال غير المتكافىء بين المدنيين الضعفاء والجنود المسرفين المستهترين الذين يواجهونهم . لذا ظل سوء المعاملة الذى يلقاه المدنيون على أيدى الجنود مستشريا وغير قابل للاستئصال . وفى شتاء عام ٢١٦ - ٢١٧ م يخبرنا المؤرخ ديوكاسيوس أن قوات كراكلا أقامت فى سوريا قانونيا هذه المرة - « واستخدموا كل شىء لدى مضيفهيم كأنها أشياؤهم الخاصـــة » (١٥) . والآن لنر فى المقابل كيف كانت المصادرات تنفذ وفقا للتوجيهات . وها هو كمثال أول طلب دفع صادر لبنك من قبل رجال معينين للقيام بالمهمة (سخرة) لجمع الملابس والأغطية المصادرة :

« ادفع لأمر هيراكليديس Herakleides بن هوريجاس Horigas وهيرون Heron عتيق بوبليوس Publius مايفيوس Maevius وديوسكوروس Dioskoros عتيق الاله الأعظم سرابيس ، نساجون من قرية فيلادلفيا ، لهم وللواحد والثمانين نساجا الآخرين من نفس القرية ، على ضمـاناتهم المتبادلة كمقدم للملابس التى أمر حاكمنا المبرز أفيديوس هليودوروس بتصنيعها :-

(أ) لاحتياجات الجنود فى كبادوكيا : عباءة بحزام أبيض طوله ٣ أذرع وعرضه ٣ أذرع و ٤ أصابع وتزن ٣¾ مينات . وحسابها ٢٤ دراخمة . وأربع عباءات سورية بيضاء طول كل منها ٦ أذرع وعرضها ٤ أذرع وتزن ٣¾ مينات وقيمة الواحدة ٢٤ دراخمة = ٩٦ دراخمة باجمالى ١٢٠ دراخمة .

(ب) لاحتياجات المستشفى العسكرى فى معسكر الامبراطور ، بطانيـة بيضاء سادة طولها ٦ أذرع وعرضها ٤ أذرع وتزن ٤ مينات وحسابها ٢٨ دراخمة واجمالى أمر الدفع ١٤٨ دراخمة فضية من هذا المبلغ ٢٨ دراخمة مقدم (ثمن) خصم منه ٦ دراخمات لحساب الخزانة .

(جـ) بشرط أن يصنعوا الأشياء (المطلوبة) من صوف راق وناعم وخالص وابيض وخال من أية شوائب فى اللون جيد النسج حسن الحواشى

---

(١٥) النصوص المذكورة من :
Select Papyri 211, P. Lond. 1171 Verso = W. chr . 439, Inscr. Lat. selectae 214, SB. 4226, Revue int. des droits de l'antiquite, 15 (19[illegible]), 137, PSI 446 = select Papyri 221, OGIS 609, and Dio [illegible]ssius, Roman History, BK 79 (78), ch [illegible] see also L-R II, pp. 399-403.

وحسن المظهر بدون عيوب ، تساوى كامل القيمة للثمن المدفوع لهم مقدما . فاذا تم رفض أى من هذه الأشياء (المطلوبة) عند التسليم أو ثبت أنها دون المستوى . فانهم سيردون ثمن القطع المرفوضة على مسئوليتهم متضامنين (بالاضافة الى الضرائب والنفقات) ويدفعون العجز فى القطع الناقصة ويسلمون الأشياء المطلوبة دون تاخير وفقا للمقاييس والموازين المذكورة آنفا بغض النظر عن أية ملابس عامة أخرى مستحقة عليهم [التاريخ ٩ سبتمبر ١٣٨] (١٦) .
وكانت الحبوب أيضا تصادر :

« الى داماريون Damarion ، محافظ هرموبولس ، من أنطونيوس جستينوس ، جندى رتبته ذات راتب مضاعف ، مرسل من قبل فاليريوس فرونتينوس Valerius Frontinus قائد الفرقة الهرقلية [التى تعسكر] فى قفط . لقد تسلمت من كبار قرية تيرتون ايبا Terton Epa ، فى مقاطعة باتيمى العليا Patemite Toparchy الحصة المفروضة على قريتهم من الـ ٢٠٫٠٠٠ أردب من الشعير التى أمر حاكمنا المبرز [حاكم مصر] لونجايوس رفوس Longaeus Rufus بشرائه من محصول العام الرابع والعشرين الماضى لاحتياجات الفرقة المذكورة آنفا ، وهى مائة أردب من الشعير مكيلة بالمكيال العمومى واجراء القياس المحدد (= شعير ، ١٠٠ أردب) ، مساوية للضريبة المقدرة من قبل موظفى المحافظة ؛ ولقد أصدرت هذا الايصال من أربع نسخ . [التاريخ ، يونيو ١٨٥ م توقيع] (١٧) .

وهناك طلب استيلاء آخر مشابه يسجل أن الشعير تم شراؤه بالثمن المعتاد ، ولكن لدينا ما يدعونا الى الاعتقاد بأن الحكومة فى كثير من الأحيان ، وربما دائما ، كانت تدفع أقل من سعر السوق . ولكن الريفيين كانوا يجدون تلك الطلبات ثقيلة الظل ، حتى وان دفع لهم فيها سعر السوق كاملا ، لأن هذه الطلبات الاجبارية وان حدثت أصلا كالزامات خصصت لتخفيف نقص عرضى ، الا أنها أصبحت فى منتصف القرن الثانى تقريبا دائمة الحدوث . وتخبرنا البرديات عن وحدة عسكرية قامت بجمع متحصلاتها على أقساط شهرية منتظمة على مدى العام كله ، وليس هناك

---

(١٦) BGU 1534 = Select Papyri 395.

(١٧) P. Amh. 107 = W. Chr. 417.

بمصطلح « عتيق سيرابيس » مشروح فى الفصل الثالث .

والنسخ الأربع كانت مقصودة ومتعمدة واحدة كانت موجهة الى المحافظ والثانية لكبار القرية ، والثالثة من المحتمل انها كانت موجهة الى موظفى المحافظة الذين ذكروا فى النهاية (ربما الكتاب الملكيين) ، اما النسخة الرابعة فكان يحفظها من اصدر الايصال .

ما يدعونا للاعتقاد بأن ما صنعته هذه الوحدة كان خاصا بها • وعلاوة على ذلك لم يكن في وسع القرويين أن يكونوا على ثقة تامة متى يتأخر الدفع ومتى يلغى تماما •

ولم يقتصر الأمر على ذلك • فامدادات اضافية من الطعام والمعدات والنقل كانت تصادر بين الفينة والأخرى دعما لحروب الامبراطور الخارجية وبشكل متكرر لاعاشة واستقبال الزوار المهمين وحاشيتهم والتفتيش بالاضافة الى الرحلات الملكية للأباطرة وأفراد أسرهم الذين كانوا يزورون مصر للسياحة • وفي تقرير من عام ٢١٦ م يخبرنا أحد سكان قرية سوكنوبايو نيسوس Soknopaiou Nesos أنه في العام السابق كان مطلوبا منه أن يعير جملين لرحلة كراكلا للبلاد ، وأن الحيوانين أعيدا اليه في الوقت المحدد ، وبعد ذلك – ومرة أخرى – صودرا ، ولكن رفض أحدهما لأنه لا يصلح أما الآخر فقد اقتاده أوريليوس كالفيسيوس ماكسيموس Aurelius Calvisius Maximus ، قائد مئة ، وقد أرسل لهذا الغرض وفقا للتفويض المكتوب من الحاكم المبرز فاليريوس داتوس Volerius Datus ، « للخدمة الامبراطورية لجوشنا عظيمة الشجاعة في سوريا » أي من أجل الاستخدام في حرب كراكلا على الجبهة الشرقية (١٨) •

والأكثر تشويقا ، أو على الأقل الأكثر تفصيلا هي معلوماتنا عن الرحلات الادارية لحاكم مصر (١٩) أن المبلغ المفروض على الفرد دافع الضرائب لهذه الجولات كان يحصل عادة نقدا بمعرفة لجان معينة خصيصا ، لجنة لكل محصول (أو مجموعة محاصيل) • والوثائق المتعلقة بالموضوع تذكر أكثر من عشرين لجنة مختلفة • فكانت هناك لجنة مسئولة عن تنظيم المرور عند المقر الرئيسي لاقامة الحاكم ، وأخرى تشرف على الولائم وثالثة للوقود والاضاءة ورابعة للامداد بحيوانات الجر والعربات وعلى الجانب التمويني شملت الأطعمة المذكورة الخبز والشعير والجبن والزيت والعدس والسمك الطازج والسمك المدخن والمقبلات والخضروات

---

(١٨) BUG 266 = W. Chr. 245.

(١٩) تقويم الأعياد المذكور في الفصل الخامس كان به التدوين التالي يوم ٢٠ برمهات [١٦ مارس] « زيارة والينا اللامع سبتموس هيراكليتوس : تكليل كل [النصب] في المعبد ، [والدفع] من أجل اقماع الصنوبر والعطور الأخرى • ولصانع النحاس لمسح كل التماثيل بالزيت ، وللعمال الذين يحملون الصورة الخاصة بالاله لمقابلة الوالي [عند وصوله] من أجل الأكاليل ، ومن أجل الصورة المذكورة ، وللخطيب شمس لتقديم الشكر لوالينا اللامع سبتموس هيراكليتوس لأنه اضاف الى كنوز المعبد [تمثال] للنصر والهدايا الأخرى •».

والخمور والدواجن والأوز والخنازير الصغيرة والعجول وأعلاف لحيوانات النقل ٠ وكل عضو في لجنة كان يخدم بدون أجر في وظيفة يعين لها هو وآخرون من طبقته الاجتماعية والاقتصادية بالتناوب ٠ وهذه الخدمات الاجبارية كانت تسمى الخدمات الالزامية , Liturgy وقد سبق وقابلناها عدة مرات بالصدفة ٠ وقد حان الوقت لنمعن فيها بشيء من التفصيل ٠

الخدمات الالزامية :

كانت قوى العمل الشعبي في الملكيات الشرقية القديمة مجندة بانتظام لخدمة احتياجات ورغبات والمجد العظيم للحاكم ٠ فهذه القوى هي التي بنت الأهرامات العظيمة والزاقورات ، وبنت وزخرفت القصور الملكية وأمدتها بالغذاء ٠ وقد نشأت فكرة دعوة الأفراد للقيام بخدمات من أجل الصالح العام لأول مرة في ديموقراطيات الاغريق الكلاسيكية ، وبشكل ملحوظ جدا (بقدر ما نعرف) في أثينا ٠ ومثل هذه الخدمة اصطلح على تسميتها باللغة اليونانية Letourgia أى « العمل من أجل الشعب » ٠ ففي أثينا في القرنين الخامس والرابع ق٠م كان الرجال من أغنى الأسر مطالبين بأن يتناوبوا لمدة عام في المرة الواحدة مع تحملهم نفقات وظيفة من وظائف الدولة المتعددة من أموالهم الخاصة ٠ وبعض هذه الخدمات كان يتعلق بالشعائر الدينية وبعضها بالأعمال العامة وأعلاها كلفة الى حد كبير — فضلا عن أنها أكثرها أبهة — هو بناء وتجهيز سفينة ثلاثية للأسطول ، أو اعداد فرقة من الممثلين للاحتفالات المسرحية السنوية ٠ وقد ظلت هذه الخدمات مؤسسة مستقرة داخل الهيكل الادارى للمدن الاغريقية طوال العصرين الهلينستي والروماني ٠ (ومن خدمة للشعب أو المجتمع تطورت الكلمة لكي تستخدم تعبيرا عن خدمة أحد الأرباب — ومن هنا جاء الاستخدام الحالي للكلمة liturgy .

وفي فترة مبكرة من تاريخهم قدم الرومان مفهوما فضفاضا أكثر من ذلك عن الواجبات العامة Munera التي كان يتوقع من المواطن الثرى ذى المكانة المرموقة أن يؤديها ٠ وفي مصر دمج الأباطرة التراث الاغريقي الباقي لشرق البحر المتوسط ببعض العناصر الرومانية ، وطوروا نظاما للخدمات لم يكن له نظير في شموله في أنحاء العالم القديم ، فكان يصل الى أبعد القرى ويفرض الخدمة على كل مستويات السكان ٠

وكما هو الحال بالنسبة للضرائب كانت هناك بالطبع جماعات تمتعت بالاعفاء من الخدمات وهو امتياز اتجه الأباطرة بشكل عام الى الحد منه باضطراد مع مرور الوقت فكان المواطنون الرومان والاغريق

الحضر والأبطال الرياضيون وأعضـــاء المهن العلمية والآباء لخمسة أبناء والأشخاص المشتغلون بمهن تعد ضرورية (مثل امداد الجيش) معفيين من التكليف بالخدمات • وكان أفراد نفس الأسرة يعفون من التكليف بخدمات متزامنة • وكذلك كان النساء والمحاربون القدامى وبعض الكهنة والمسنون والمرضى معفيين من التكليف بالخدمات التى تتطلب جهدا بدنيا • بمعنى آخر كان هناك خدمات للياقات الزرقاء وأخرى للياقات البيضاء ، أو كما اصطلح الرومان على أنها خدمات جسمانية وخدمات مالية •

ويتكون لدينا من الوثائق القليلة القديمـة انطبـاع عن نظام فج للخدمات يتبلور شكله فى منتصف القرن الأول الميلادى • ومع نهاية القرن كان النظام ينمو بسرعة ويكتمل ازدهاره قبل أن تنقضى سنوات كثيرة من القرن الثانى • وابتكرت خدمات جديدة طوال حكم الرومان • ولكن النظام نضج وأصبح له هيكل واضح قبل نهاية حكم تراجان (١١٧م) • وكان تراجان نفسه هو الذى اتخذ الخطوة الفريدة بعيدة المدى عندما حول تحصيل معظم الضرائب النقدية الى أعمال بالخدمة الالزامية ، وهكذا حد من سلطة ومساوىء جباة الضرائب رغم أن ذلك لم يتم كلية •

حتى الآن نعرف تقريبا مائة خدمة الزامية بعضها يشمل أعدادا كبيرة أو صغيرة من الأقسام الفرعية ، يكلف بكل منها شخص أو مجموعة من الأشخاص • كان كبار القرية وموظفو ورجال شرطة القرية أو المدينة وجباة الضرائب من الحبوب أو النقدية ، وناقلو الحبوب من الشونة الى الميناء النهرى ومن الميناء النهرى الى الاسكندرية أو الى معسكر للجيش ومفتشو الفيضان والحقول التى يصلها الماء والتى لا يصل اليها ومفتشو البذر والحصاد وأعمال السدود ومراقبو الأعمال العامة وتحصيل الضرائب والقيم بامدادات الموظفين الزائرين ورجال البنوك لتسليم الأموال العامة — والأوصياء على القصر وكل أعضاء مجلس العاصمة والموظفين الساميين — كل هؤلاء وأكثر كانوا مكلفين الزاميا فى نظام التكليف الالزامى حين تطور تطورا كاملا فى القرنين الثانى والثالث • وكانت مدة التكليف فى معظم الخدمات الالزامية عاما أو ثلاثة أعوام ، بعدها كان الشخص المكلف يصبح مؤهلا بشكل عام لفترة اعفاء لمدة سنوات قبل أن يرشح لأحد التكليفات الالزامية مرة أخرى • ومع ذلك فمن واقع الممارسة كانت فترة السماح تختصر عشوائيا أو حتى لا يلتفت اليها نهائيا من جانب الموظفين القائمين على التعيين عندما يعانون نقصا فى أعداد الأشخاص الصالحين للتعيين لكل الخدمات الالزامية التى كان عليهم ملؤها •

فاذا خبا نجم جباة الضرائب من على مسرح الأحداث فلم يكن ذلك لأن الحكومة الرومانية من منطلق أخلاقى ، كانت عازمة على تصفية بؤرة

لفساد سيئة السمعة • ولكن لأنها وجدت نظام الخدمة الالزامية يحقق لها نفس الهدف ولكن على مدى أوسع • فالمكلفون وهم الرجال الذين يقومون بخدمة الزامية ، لم يكن مطلوبا منهم فقط أن يتحملوا نفقات المناصب بل عندما كان يتعلق الأمر بجمع الضرائب كانوا فرادى وجماعة مسئولين عن توريد الحصة المقررة على ضواحيهم كاملة — وكان ذلك يعنى سد أى عجز من جيوبهم الخاصة • ولهذا كان هناك حد أدنى من الملكية تؤهل لكل منصب وهذا الحد بلغ ثلاثة تالنتات (١٨٠٠٠ دراخمة) أو أكثر بالنسبة لرجل البنك الذى يخدم محافظة كاملة وكان ٢٠٠ دراخمة فقط بالنسبة للحارس القروى • ومن الواضح أن شبكة الخدمات الالزامية شملت الجميع ماعدا شديدى الفقر •

وبمجرد أن يعلن تعيين المكلفين كانت أملاك الشخص المرشح توضع تحت الحجز لصالح الدولة ، وكان مطالبا بأن يؤدى قسما يعد فيه بالأداء المخلص للمهمة المكلف بها وبشكل مميز • لكن الحكومة الرومانية لم تكن تقنع بالاعتماد على الضمانات الوحيدة لثروات المكلفين • وجسدت شبكة متكاملة من المسئوليات المالية الأولية والثانوية نظام التكليف بالخدمة الالزامية • وكان على موظفى القرية والمدينة الذين كان من واجبهم أن يرشحوا المكلفين أن يشهدوا على مسئوليتهم الخاصة ، أن كل مرشح هو شخص صالح قانونا ومناسب ويضمنون أنه سوف يقوم بأداء الخدمة فعلا • وفى بعض الأحيان ، وازداد ذلك بالوقت ، كان الشخص المرشح بالاضافة الى ما سبق مطالبا بأن يقدم ضمانات تؤكد أداءه المرضى للتكليف • وكانت اللوائح تنص على أن عمل القائمين على الترشيح تم بموافقة ضمنية من الجمهور ، وبالتالى فى حالة تقصير القائم على الترشيح تمتد المسئولية تلقائيا على سكان المنطقة جميعهم •

وبالنسبة لمعظم الخدمات الالزامية المحلية كانت التعيينات لكل الأغراض والأهداف مسيرة ذاتيا • وطريقة انجاز التعيين لهذه الخدمات كان يتم برفع الترشيحات الى حكام المحافظات • الذين كانوا يعطونها الطابع الرسمى بالتصديق عليها ويأمرون باعلانها للعامة • ومع ذلك كان يستخدم اجراء آخر فى حالة محصلى الضرائب بغرض منع التآمر والتواطؤ • فكان القائمون على الترشيح يقدمون أسماء اثنين أو ثلاثة من المرشحين المناسبين لكل منصب من المناصب • وكان حكام المحافظات (الذين بصفتهم المديرين المحليين على معرفة شخصية بواحد أو أكثر من المرشحين) وهؤلاء يقدمون القائمة الكاملة الى الابيستراتيجوس (وهو رومانى مقيم فى موضع بعيد جغرافيا محايد ونزيه) • وكان الأخير هو الذى يحدد أسماء

المعينين بالقرعة · وهذه التفاصيل الاجرائية مذكورة فى وثائق التعيين نفسها : —

« لى ابوللونيوس حاكم محافظة ارسنوى . ضاحية هيرقليديس من بيتاوس Petaus ، كاتب قرية بطولميس هرمو ، والقرى الأخرى · كبدلاء المرين Meron بن سابينوس Sabinus ، واسخيريون Ischyrion بن فاسيس Phasis ، [illegible] بن هاتريس Hatres و [أسماء] الجباة الستة للضرائب النقدية [illegible] سيرون Syron و [أسماء] الجباة الاربعة للضرائب النقدية [illegible] كيركيسوحا أوروس Kerkeson ha Oros · وكل [illegible] [illegible] انهوا الآن فترة ثلاث السنوات المحددة·أعين بموافقة وعلى مسئولية سكان القرى والذين يزرعون في جوارها حيث ان سكانها ضامنون متضامنون مع المعينين ، المعينين التالية أسماؤهم بوصفهم ذوى ثروة كافية ومناسبة عن أن نرسل أسماؤهم الى الابستراتيجوس المبرز للاختيار وهم :

لقرية بطولميس هرمو — بيثيوس Petheus بن اسخيريوس وثاوباستيس Thaubastis ، ويملك ثروة ٧٠٠ دراخمة وديوس Dios ابن بابونتوس Papontos وتاوباس Thaubas شرحه ·

[يلى ذلك أسماء أربعة وعشرين آخرين للقرى الثلاث ، باجمالى ستة وعشرين مرشحا يجب اختيار ثلاثة عشر منهم بالقرعة · وكل مرشح يمتلك ثروة تبلغ ٦٠٠ أو ٧٠٠ أو ٨٠٠ دراخمة] (٢٠) ·

ماذا يحدث اذا عين رجل بطريق الخطأ — كما حدث فى بعض الأحيان — لأنه غير خاضع للتكليف بسبب الاعفاء أو لكونه دون مستوى الثروة المقررة ؟ · اذا كان هناك وقت فان الموظف القائم على التعيين يحاول اصلاح الخطأ بتعيين بديل · والا فانه يكون مجبرا ، تحت مسئولية من رشحه ، على اتمام التكليف بنفسه · « كاتب القرية ، حيث فرض من تلقاء نفسه الزراعة الاجبارية على نساجين منتهكا بذلك قواعد سابقة ، عليه أن يأخذ على عاتقه التكليف أو يحوله الى آخرين على مسئوليته الخاصة » · وفى حالة مشابهة ظهر فى عام ٢٤٤ م ، اخوان ، من مواطنى انطينوبولس وهما معفيان بسبب هذه المواطنة عينا فى مكان آخر للقيام بتكليف فى أوكسيرنخوس ، حيث لديهما أملاك هناك ، وقد قدما اعتراضا وأجاب كاتب البلدة على الاستراتيجوس « عند الفحص تبينت أنهما [معفيان] وعند علمى بذلك أخذت التكليف على عاتقى بدلا منهما (٢١) ·

---

(٢٠) P. Pelaus 65 (AD 185).

(٢١) P. Phil. 1. and P. Oxy. 1119 = W. Chr. 397.

اذا جاوز خطأ القائم على التعيين السهو . كان من الممكن الزامه . بدفع قيمة الأضرار . والحكم التالى الذى أصدره حاكم مصر ضد كاتب قرية فى ١١ فبراير ١٤٣ م . بالرغم من ايجازه فانه يخبرنا القصة كلها .

« ماذا كنت تتوقع عندما عينت رجلا ذا ثروة غير كافية للقيـــام بتكليف ؟ لقد تسببت فى هربه وتسببت فى بيع ممتلكاته [للمساهمة فى تحمل نفقات : التكليف] لذا توقع عليك العقوبات (التالية) : تدفع الغرامة [المحددة] للخزانة ، فضلا عن ذلك تدفع له أربعة أضعاف القيمة التى بيعت بها أملاكه » (٢٢) .

والمفهوم أن الخدمات الالزامية كانت شيئا يسعى معظم الناس لتجنبه ان أمكن . وكان من الممكن أن تغرى عدية الموظف القـائم على التعيين فيتغاضى عن اسم ما عند تسجيل المعينين ، كما كان من الممكن أيضا حذف اسم آخر بدافع الصداقة . ولكن الحكومة حاولت تصعيب هذا الأمر بأن أمرت أن يتم اختيار كتاب القرى ، وهم أنفسهم كانوا مكلفين بخدمة الزامية ، من خارج القرى التى كان عليهم خدمتها . وقد حصل بعض الرجال على اعفاء فعلى من التكليف بالخدمات الالزامية عن طريق استعمال تكتيكات القوة الغاشمة . وكان كاتب القرية يجد عادة طريقا لمواجهة من لا يخفون تهديداتهم بالانتقام منه ان لم يستبعدهم من قائمة المعينين . وتهديدات مشابهة كانت تخرس الضحايا البؤساء المعينين للخدمة مكان (البلطجية) . ومن آن لآخر كان الضــحايا يتشجعون ويتظلمون لدى السلطان الأعلى . وكان يتبع ذلك توقف الأذى لفترة قصيرة . ونحن نعرف أن مرسوما امبراطوريا ضد شراء « الحماية » من التكليف بالخدمات الالزامية صدر حوالى عام ٤٨ م ، وبعد ما يقرب من تسعين عاما ، قام حاكم مصر آنذاك بالتحقيق فى اتهامات من هذا النوع .

فى أكتوبر عام ٢٠٧ م أرسلت لجنة مكونة من خمسة وعشرين عضوا كممثلين عن مزارعى الدولة فى سوكنو بايونيسوس Soknopaisu Nesos الالتماس التالى الى استراتيجوس المحافظة :

« نحن ملزمون بالعمل ، كل منا الى أقصى حدود قدرته فى أرض الشاطىء الذى تراجع عنها فيضان النيل . ولكن شخصا يدعى أورسيوس Orseus وهو رجل عنيف وعنيد هاجمنا هو واخوته الأربعة ومنعونا من

---

(٢٢) P. Wisc. 81 .
وبخصوص الفرار من الخدمات والتكليف الالزامى راجع الصفحات التالية من نفس الفصل

عملنـا ، وروعنا حتى نهرب من منازلنا كما كان الحال فى الســابق لكى يتمكنوا من الاســـتيلاء وحـدعم على الأرض · ولذلك نرســل اليك مذكرة بخروجهم عن القانون ، انهم لا يدفعون أنصبتهم من الحصص الشهرية وتقديرات الضرائب المفروضـــة نقدا وحبوبا ···· ولم يؤدوا الخدمات الالزامية قط لأنهم كانوا يرهبون كتاب القرية المتعاقبين ، وبدافع الضرورة لجأنا اليك ونسألك . ان سمحت سيادتكم ، أن تأمر باستدعائهم أمامك وتسمع قضيتنا ضدهم ، بحيث نتمكن بنجدتك من تكريس أنفسنا للأرض وأداء الخدمات الالزامية المكلفين بهـا وحتى يســـاهم أورسيوس واخوته بنصيبهم فى الايرادات العامة ويقوموا بالخدمات الالزامية المؤهلين لها ، وأن نكون جميعا مسئولين بأنصبة متساوية عن بذر الأرض المذكورة· وهكذا يمكننا أن نقيم فى قريتنا ونشكر سيادتكم والسلام » (٢٣) ·

وعلى الطرف الآخر من المشهد الاجتماعى كان هناك أعمدة المجتمع المحلى الذين أخذوا على عاتقهم متطوعين ، بروح من الالتزام النبيل أو من أجل الصالح العام ، القيام بخدمات الزامية كانوا معفيين منها قانونا · بعض هؤلاء الخيرين كانوا يندمون على لفتات الايثار هذه عندما يقررون هجر مناصبهم ، فقد وجدوا مجتمعاتهم تنظر الى كرمهم باعتباره منحة دائمة · ففى احدى الحالات توسل طبيب الى حاكم مصر كى يأمر باعفائه (من العمل) · وفى حالة أخرى تعهدت امرأة ثرية بزراعة بعض الأراضى المهجورة ، وهو تكليف كان من الممكن أن تطلب الاعفاء منه بسبب كونها امرأة · وعندمــا حاولت انهــاء تعهدهــا دفعت الى شــغل منصب بيروقــراطى لمــدة عامين تقريبــا قبــل أن تنجح فى الحصـــول على اعفاء (٢٤) · أدى الكساد الاقتصـادى فى أواخر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث والذى زاده تدهورا الضرائب والرســوم المتزايدة بشــكل دائم والمصـــادرات التى فرضت لمواجهة الصراعات الضــارية على عرش الامبراطورية والحروب على حدودها ، أدى كل هذا الى تبديد ثروات كثير من العائلات الثرية · وقد مس وصفنا لحياة سكان العواصم بعض جهودهم لتجنب الخدمات الالزامية فى تلك الأوقات المضطربة ، أو على الأقل لحمل آخرين على مشاركتهم أعباءهم · وعندما تفشل كل الوسائل كان بعض الناس ، عندما يواجهون باستدعاء جديد للقيـــام بخدمة الزامية كانوا

---

(٢٣) SB 4284. المرسوم المشار اليه فى الفقرة السابقة يوجد فى Hibis 1 = OGIS 665 and PSI 1406.

(٢٤) P. Oxy. 899 = W. Chr. 361. اما الالتماس المقدم من الطبيب مذكور فى : — P. Fay. 106 = W. Chr. 395 = select Papyri 283.

ولها ترجمة أيضا عن : L-R II, p. 374.

يفضلون التنازل عن كل ثرواتهم للقائم على التعيين على أن يؤدى (بنفسه) الخدمة الالزامية بدلا عنهم ، وهذه أيضا كانت جزءا من المخاطرة الشخصية للقائم على التعيين . والشخص المتنازل عن ثروته كان فيما يبدو يسترد جزءا من الاجمالى . والمصادر لا تعبر عن تفصيل هذا الأمر بدقة . ولكن مما لا ريب فيه أن مثل هذه التنازلات عن الأملاك كانت تحدث . وكان الناس يضربون أحيانا بل ويسجنون بواسطة الموظفين المحليين لارغامهم على الغاء تنازلهم والقيام بالخدمات الالزامية . وقد أمر الامبراطور سبتموس سيفروس بوقف مثل هذه المعاملة السيئة والا تخفض المرتبة الاجتماعية والامتيازات المتعلقة بها للأشخاص الذين يختارون التنازل عن أملاكهم . ولدينا أيضا دليل على ذلك ست قضايا نقدم واحدة منها فيما يلى وهناك أخرى سترد فى الفصل التاسع :

« الى أوريليوس ليونيديس Aurelius Leonides ، استراتيجوس محافظة أوكسيرنخوس ، من أميليوس ستيفانوس Aemilius Stephanos ابن هتريس Hatres وتاسورابيس Tasorapis من قرية سنكيفا Sinkepha . علمت اليوم أن أوريليوس أمويس Aurelius Amois ابن باتاس Patas وديمتريوس Demetrious ، من نفس القرية ، عيننى باعتبارى ذا ثروة كافية ومناسب لكى أخلفه فى وظيفة جامع الضرائب النقدية المستحقة على سكان قرية سنكيفا المذكورة فى السنة الثالثة الحالية . وهذا غير معقول ولا يتفق مع مبدأ المشاركة فى الخدمات الالزامية [بعدل] . لذلك أتنازل له عن ثروتى وفقا للقانون المقدس [الامبراطورى] وأعلن أن لدى أملاكا عقارية .... [الباقى مفقود ـ السنة ٢٣٦ م] (٢٥) .

وكما رأينا من قبل فى هذا الفصل فان الملجأ الأخير لدافع الضرائب ، عندما يصبح عبء الضرائب والرسوم غير محتمل ، هو أن يولى الادبار ويختفى . وعبء الخدمات الالزامية خلق هو أيضا حصته من الفارين ، بل ان بعضهم لم يكونوا لينتظروا صدور قرار تعيينهم . وانما يسارعون بالفرار حالما يعلمون أو يشكون بأنهم سيعينون . وفى مرسوم صادر فى يوم راس السنة المصرية الثامنة عشرة من حكم انطونينوس بيوس (٢٩ اغسطس عام ١٥٤ م) لم يتخير حاكم مصر كلماته وهو يتحدث عن الأشخاص « الذين فروا من القيام بخدمات الزامية معينة بسبب الفقر المحيط بهم فى ذلك الوقت [و] ما زالوا يعيشون بعيدا

---

(٢٥) P. Oxy. 1405.

عن اوطانهم في خوف ، حيث أعلن أنهم خارجون عن القانون] واستطرد في حديثه مقدما لهم عفوا عاما اذا عادوا الى بلادهم خلال ثلاثة أشهر (٢٦) ٠

ومما لا شك فيه ان كثيرين كانوا يرحبون بالعودة الى بلادهم بعد اعفائهم من العقاب ٠ وعندئذ كانت تبدأ الدائرة المفرغة من جديد ٠ صحيح أن العفو لابد قد محا الديون والاساءات القديمة ، ولكنه كان بغير تأثير على تحسن الأحوال في المستقبل ، بل على العكس ، فان فترة التاريخ الرومانى التالية على المرسوم السابق كانت فترة اتسمت بتزايد الحروب على الحدود وقلة الاستقرار السياسى وتدهور حالة الرخاء ـ وهذا كله يعنى أن حمل الضرائب والخدمات الالزامية لم يكن قابلا للتخفيف ولكنه اتجه نحو الزيادة المستمرة بمضى الوقت ٠ وحكام مصر ، الذين كانوا عاجزين عن تغيير هذه الحقائق ، لم يكن بمقدورهم سوى اصدار اعفاءات عن الضرائب أو اعفاءات عامة كلما وصل الحال الذى يسببه الهاربون الى حد الأزمة ٠ وعلى أحسن تقدير عملت هذه المراسيم كمسكنات مؤقتة ٠ وقد استمر الرجال يهربون من بلادهم ، خلال كل قرون الحكم الرومانى وبالطبع زادت هذه الحالة سوءا في الأيام المضطربة خلال القرن الثالث ٠ وكان هؤلاء يهربون كلما ازدادت الأعباء الضريبية عليهم الى حد القشة التى قصمت ظهر البعير ٠ واستمرت الحكومة تحصد نتاج ما بذرته يداها : قلة في الأيدى العاملة ، وتدهور فى الايرادات ، وحالة تعبئة عسكرية نشيطة ضد عصابات السرقة المتعددة التى كونها الهاربون ٠

(٢٦) BGU 372 = W. Chr. 19. وهناك ترجمة فى L.R II, pp 374-5.
وبخصوص الخروج على القانون وقطع الطريق راجع أيضا الفصل العاشر ٠

نظـام القضـاء
أو
اقامة العـــدل

وصف المؤرخ الرومانى تاكيتوس مصر بقوله : « أمـة تجهـل القـــانون » ـ حتى المـؤرخ تاكيتوس المعروف بدهائه السياسى وسعة ادراكه يخضع قدراته النقدية الى ذلك الازدراء المتأصل لدى الرومان ضد شعب مصر • غير أن ديودورس وهو اغريقى من صقلية كتب قبل تاكيتوس بنحو مائة عام ـ يقدم لنا رأيا مختلفا كل الاختلاف ، عندما يشير الى عراقة العرف والقـــانون المصريين ، ويشيد بالمبادىء الأخلاقية التى شكلت جوهر هذا العرف وذلك القانون • وتروى الأسطورة أن القانون المصرى كان هبة من الاله تحوت (وهو الاله الذى أصبح فيما بعد مساويا لهرميس واهب القوانين فى الأساطير الاغريقية) الى الفرعون مينا من الأسرة الأولى ، والذى وحد مصر العليا ومصر السفلى حوالى نهاية الألف الرابع قبل الميلاد • وحتى اذا استبعدنا مينا وقانونه باعتبارهما مجرد اسـطورة ، فثمة أدلة وشـواهد تاريخية واضحة تفيد أن مبادىء العدالة كانت قد صيغت ، وأن مجموعة من القوانين قد سجلت ، وأن نظاما للمحاكم قد تطور فى مصر قبـل نحـو ألفى عام من بـدايات الرومـان

الأولى (١) ·

كان الامبراطور هو السلطة القضائية العليا فى الامبراطورية الرومانية · وكان الحاكم هو السلطة العليا فى كل ولاية · وكان للمواطنين الرومان فى سائر أرجاء الامبراطورية الحق فى الاستئناف أمام الامبراطور ·

وكان هذا الحق مطلقا فى القضايا الحيوية ومتاحا فى القضايا المدنية فوق حد معين· أما بقية سكان الامبراطورية فقد كان لهم الحق - مع بعض الاستثناءات القليلة - فى رفع شكاياتهم الى الجهاز القضائى الداخلى فى الولاية التى ينتمون اليها · غير أن الحاكم نفسه كان مطالبا برفع القضايا التى نظرها الى روما ليحصل على قرار الامبراطور بشأنها ·

وبالاضافة الى الحاكم المعين لتولى حكم الولاية ، كان هناك عدد آخر من كبار رجال الادارة الرومانية فى مصر مارسوا أعمال القضاء ، ولكن فقط تلك المتعلقة بالأمور المدنية · اننا نعرف معنى ألقابهم وهم (معلن القانون Juridicus وكبير القضاة Archidikastes ومفسر القانون أو المستشار Exegetes ومدير المكتب الخاص Idios Logos والمراجع المالى Dioiketes) · ولكن نظرا لندرة مصادرة المعلومات المتعلقة بأغلب هذه الوظائف فلا نعرف بدقة تفاصيل المهام القضائية المتعلقة بهم · وعادة كان واحد أو أكثر منهم يصاحبون الحاكم العام أثناء جولته السنوية لتفقد الادارة فى المحافظات وعقد الجلسات القضائية الدورية · وفى هذه الجولات نادرا ما كان الحاكم يسافر جنوب منف أو أرسنوى (وكان الرسميون فى الأقاليم الواقعة جنوب ذلك هم الذين يحضرون لتقديم التقارير اليه) · ونادرا ما كان الحاكم يولى اهتماما بقضايا غير تلك التى ترسل للاستئناف أمامه من محاكم أدنى - بل لم يكن الاهتمام يتجاوز شريحة مختارة من هذه القضايا كما سنرى · ونتيجة لذلك فان نسبة قليلة جدا من السكان هى التى كان لها اتصال بالسلطات القضائية العليا فى البلاد · اما أغلب السكان فكان ذهابهم الى المحكمة يعنى وقوفهم أمام

---

(١) Tacitus, Histories, Book 1. Ch. II, Diodorus, Historical Library, Book 1, Chs, 93-4.

وعن تطور المبادىء القانونية وادارة العدالة فى مصر تحت حكم الأسرات المبكرة ، يمكن قراءة والاستفادة من الفصول المتعلقة بهذا الموضوع فى كتاب

J. Pirenne, Histoire des institutions et du droit privé de l'ancienne Egypte, 3 Vols, Brussels, 1932-5.

والمواد الخاصة بالدائمات والتى ترجع للعصر الرومانى تناولها Coles بالجدول

R. A. Coles, Reports of Proceedings in Papyri, Paprologica Bruxellen_ia, 4, 1966.

استراتيجوس المحافظة ، وحتى الشكاوى المقدمة الى السلطات الأعلى كانت ترد ثانية الى الاستراتيجوس للفصل فيها ٠

كان القانون والعمليات القضائية التى سادت مصر الرومانية مزيجا متطورا بالتجربة يجمع بين الماضى والحاضر ٠ وفى فترة الرومان كان تعبير مصرى ــ كما لاحظنا بالفعل أكثر من مرة ــ يشمل كل سكان مصر ماعدا الرومان واغريق الحضر واليهود ٠ وقد تمتعت كل مجموعة من هذه المجموعات المستثناة بميزة العيش فى ظل قوانينها وطقوسها الدينية الخاصة ٠ وما أطلقت عليه الادارة الرومانية « قوانين المصريين » فقد كانت عند الفتح الرومانى مجموعة من القوانين العملية والأعراف ، جانب منها مصرى ولكن أغلبها كان ذا أصول اغريقية ٠ وخلال القرون المتعاقبة من الحكم الرومانى تعدلت هذه المبادىء والممارسات تدريجيا وحيويا طبقا للقانون الرومانى المناسب ٠ وقد سجلنا أمثلة على هذه التطورات عند نهاية الفصل السابع ٠

أقام الحكام الأوائل عن الأسرة البطلمية محاكم مدنية منفصلة لأصحاب كل حضارة من الحضارتين ٠ فأمام « قضاة الشعب » كانت الاجراءات تتم باللغة المصرية وطبقا للقانون الوطنى ، بينما كان قانون الاغريق يستخدمه « القضاة المتنقلون » الذين كانوا يسافرون بين مناطق سكنى الاغريق المتناثرة ٠ ولم يقتصر هذان النظامان القضائيان على مجموعة بعينها من الأشخاص ، بل كان لأى متقاض سواء كان اغريقيا أو مصريا الحق فى اختيار أى من المحكمتين ، وكان هناك مترجمون متوفرون اذا ما ظهرت مشكلة اللغة ٠ وقد ظلت سائر الأمور تسير فى وضع متكافىء ، فكانت النزاعات التى تنشب بين المصريين أو بخصوص عقود مكتوبة باللغة المصرية ترفع الى المحكمة الوطنية فى حين يتم احالة الأمور المتعلقة بالاغريق الى المحكمة المتنقلة ٠ واستمر الحال على ما هو عليه لفترة تحت الحكم الرومانى وعند منتصف القرن الأول تم التخلى عن نظام القضاء الثنائى ٠ من ذلك الوقت احتفظ السكان الوطنيون بلغتهم القومية فى معاملاتهم الداخلية بينهم ، ولكنهم اعتادوا أن يديروا أعمالهم (أو كانت تدار لهم) باللغة الشائعة عند الحكومة وهى الاغريقية ٠

زودت الادارات فى الأقاليم الرومانية بمجموعات من ممثلى الادعاء ، وكان للمتقاضى الحق فى أن يقيم الدعوى الخاصة بنفسه أو من خلال من يمثله ٠ وكانت خطوته الأولى تقديم شكوى لدى سلطة مناسبة ، وعادة كانت تتمثل فى الاستراتيجوس أو الابيستراتيجوس وكلاهما كانت له سلطة قضائية فى القضايا التى تتعلق بالمظالم الشخصية أو المالية ٠ وكان بعض الشاكين يطلبون منه اعفاء أو تعويضا ، وآخرون يطلبون ادراج

قضاياهم فى القائمة التى تعرض على حاكم مصر أثناء جولته القضائية التالية . وتذكرنا هذه المجموعة الأخيرة من الشاكين بالحقيقة الخالدة التى يشير اليها الاسكندر بوب Alexander Pope فى قوله ان الأمل يتدفق تدفقا أزليا فى صدر الانسان : وحيث كان الحاكم - بوجه عام - يقوم بنظر الدعاوى المتعلقة بالجرائم الكبرى فقط ثم يصدر حكمه فيها بدون حيثيات ، فان أغلب القضايا - كما سنرى - لم تصل اليه أبدا بل كان مكتبه يعيدها بصورة (روتينية) الى الاستراتيجوس أو يسند أمرها الى محكمة أخرى أدنى .

وفيما يلى نص أحد الالتماسات المقدمة فى عام ١٧٧ م من ستة من الكهنة فى قرية تبتونس Tebtynis الى الاستراتيجوس " « نرفع اليكم هذه الشكوى ضد كرونيون بن سابينوس بسبب الاعتداءات التى اقترفها ضدنا والتى سنورد تفصيلاتها فى الموعد المحدد . نطلب منكم استدعاءه من خلال أحد معاونيكم ليمثل أمام حاكمنا المعظم باكتوميوس ماجنوس Pactumeius « توقيعات » (٢) .

وكان على المتهم المنتظر تقديمه للمحاكمة أن يقدم أشخاصا موثوقا فيهم لضمان مثوله أمام المحكمة عند نظر القضية ، وهذا يشبه الى حد كبير نظام الكفالة المالية وغيرها المعروف هذه الأيام . وفى غياب مثل هذا الضمان يجب عليه فى القضايا الخطيرة ، أن يبقى فى الحبس حتى المحاكمة . وعندما يكون الاستراتيجوس مستعدا لنظر الشكوى فانه أو أحد معاونيه يقوم باصدار أمر للمتهم بالمثول أمام المحكمة . والمثير حقا أن هذه الأوامر ، ولدينا منها مائة تقريبا حتى الآن ، كانت تتحدث بدقة ، ولكنها ليست اخطارا بالتهم الموجهة ولا كانت أمرا بالقبض على المتهم ، ولكنها تعليمات موجهة لرجال البوليس المحلى.هذه الأوامر مع وجود بعض الاختلافات القليلة فى الألفاظ كانت تتبع صيغة ثابتة ، مختصرة ومباشرة :

« الى رئيس شرطة تامبيتى Taampetei يتم ارسال هاتريس ابن هارسيورس Harseouris وهوروس Horos بن بلليس Belles وبسيناموونيس Psenamounis بن باوزيرس Pausiris [القاطنين] فى سيفو Sepho أثناء نظر الالتماس المقدم من فيلينوس Philinos ١٨ أمشير » (٣) .

أما المحاكمات التى يرأسها الاستراتيجوس فكان يقوم فيها بدور

---

(٢) P. Teb. 303 = Select Papyri 248.

(٣) P. Oxy. 3190. ومن المحتمل ان وضع هذه العلامات (XXX) فى نهاية الأمر والتى ظهرت أيضا فى العديد من هذه الأوامر كان بهدف منع أى تعديل فى الأمر سواء باضافة بعض التحويرات أو التعديلات اللغوية .

المحقق . وكانت الأدلة والشهادات الشفوية كثيرا ما تستبعد بينما يؤخذ فقط بالاقرارات التى يتم القسم على صحتها ، والشهادات المكتوبة والوثائق والقوانين والسوابق المسجلة . وفى النهاية وبعد الاستماع الى كل ذلك كان الاستراتيجوس يصدر حكمه . وكانت هذه الاجراءات القضائية ـ كما سنرى ـ تتخذ نفس شكل تلك التى يديرها حاكم مصر .

واذا ما حكم الاستراتيجوس بأن احدى القضايا خارج اختصاصه فانه يحيلها الى الابيستراتيجوس وفى بعض الأحيان مباشرة الى الحاكم العام . وعند سماع قرار الاستراتيجوس « اذا كان ـ كما تدعى ـ صاحب السعادة الابيستراتيجوس قد حكم فى مثل هذه القضية ، فأنا أحيل الأمر للحكم بمعرفة سعادته » . وفى نهاية الاستماع الى قضية أخرى قرر الاستيراتيجوس تكليف رئيس الشرطة فى القرية « الاثنان (المدعى عليهما) يرحلان مقبوضا عليهما بمعرفتك للمثول أمام صاحب السعادة الابيستراتيجوس عندما يقرر هذا الأمر » . وهناك الاستئناف وهو كان يقام بناء على ما ورد فى قرارات الاستراتيجوس . ونحن لا نعلم الظروف والمحاذير التى أحاطت بحق الاستئناف . وان كنا نعتقد بأن الاحتجاج يكون بسبب خطأ قانونى ، حيث نعلم أن استراتيجو قد أدين بسبب سوء استعمال السلطة والتعسف . وفى هذه الحالة كان يجب أن تذهب القضية مباشرة الى سلطة أعلى (٤) .

وعلى الرغم من أن سلطة الابيستراتيجوس القضائية كانت تفوق سلطة الاستراتيجوس الا أنها كانت ما تزال محدودة . ولذلك كانت تحال القضايا التى تتخطى سلطته الى الحاكم العام أو غيره من كبار المسئولين .

« من خلال محضر المحكمة التى حضرها صاحب السعادة فيديوس فاوستوس Vedius Faustus ، الابيستراتيجوس . بعد استفهام فايستوس استشار مساعده فى المحكمة وقال لهربوكراتيون Harpokration ، استراتيجوس أقسام ثيمستيس Themistes و بوليمون Polemon [من محافظة أرسنوى] « طبقا لفحص وأوامر حاكمنا المعظم ، فان القرار سوف يأخذه هو ، وسوف أشرح كل الخطوات التى اتخذتها » (٥) .

وفى حالة تاجيل نظر دعوى ما الى جلسات المحكمة الدورية للحاكم . فهل هناك ثمة طريقة لضمان سماع الحاكم للقضية أو على الأقل البدء فى

---

(٤) الوثائق المكتوبة منقولة عن SB 7601 and P. OSLO 17 وهناك شهادة مكتوبة وتحمل قسم يتعلق باستراتيجوس اتهم بسوء استغلال وظيفته يظهر فى الفصل الثانى .

(٥) PSI 1100.

اجراءاتها من قبله ؟ والاجابة باختصار هي : لا • مع ذلك فالمرء عليه ان يفعل ما في وسعه وأن ينتهز فرصته • ولكن هنا لقد كانت ميزة أن تكون غنيا • فالشخص الثرى كان بامكـانه تحمل نفقات السـفر الى الاسكندرية والاقامة بها أو تحمل نفقات ممثل له هناك وتلك الاقامة لم تكن محدودة بالأيام القليلة المخصصة للمحافظة التى ينتمى اليها أثناء انعقاد الجلسات القضائية الدورية • وفى نقش من أواخر القرن الأول سجل أحدهم كيف « أنه استطاع أن يصل الى الحاكم ماركوس ميتيوس روفوس Marcus Mettius Rufus أثناء مروره وسلمه شكوى باليد •••• وقد قبـل الالتماس وسـلمه باليد الى كلوديوس جيمينوس Claudius Geminus المدير بالمكتب الخاص للتحقيق » • والأخير سمع القضية وأعلن حكما • ومرة أخرى تروى احـدى البرديات التى يرجـع تاريخها الى أواخر القرن الثالث كيف أن أحد سكان مدينة أوكسيرنخوس كان لديه مندوب عنه يدعى نيمسيانوس Nemsianus انتظر الحاكم العام فى الأسابيع التى تسبق مباشرة حضوره الجلسات القضائية الدورية التى تضم أوكسيرنخوس • وفى المحاولة الأول طلب من نيمسيانوس أن يأتى فى يوم السماع (لدعاوى الجمهور) • وعاد فى الموعد ولكنه وجد أن اليوم عطلة ، وأن المحكمة لم تعقد • وفى اليوم التالى حضر فى داخل قاعة الجلسة ، ولكن الحاكم العام أعلن أنه سيكرس ذلك اليوم للسفارات والأمور المشابهة • وأخيرا فى المحاولة الرابعة فان نيمسيانوس رتب لكى يبدأ الحاكم بالكلام فى حديقة القصر • وقيل له أن يرفع التماسه مكتوبا وقد فعل هذا ، ورقمت وثيقته « المجلد الأول ص ٨١ » وبدأ فى اجراءاتها بعد ذلـك (٦) •

لم يكن لصغار الناس ولا سيما الذين كانوا يقطنون أعلى البلاد مثل هذا القدر من الحظ ، اذ كان عليهم انتظار موعد انعقاد الجلسة القضائية المخصصة لمحافظتهم ، والتى قد تعنى الانتظار شهورا عديدة حتى موعد هذا الحدث السنوى • لقد كان الحاكم يتوجه فى كل عام الى منف أو الى أرسنوى (وأحيـانا كان يختار مدينـة أخرى مثل قفط) وذلك فى أواخر شهر يناير وأوائل شهر فبراير ، وكان يمكث هناك عادة لمدة شهرين أو ثلاثة ، أى بقدر ما يتطلب الوقت الذى تحتاجه مراجعة السجلات المالية والمشاكل الادارية لنحو عشرين محافظة تمتد من ممفيس الى حدود مصر الجنوبيـة •

وكذلك لتصريف حصيلة العام من المنازعات وقضايا الاستئناف • ونظرا لأن الحاكم لم يكن تواقا لاطالة فترة بقائه خلال صيف مصر الحار

---

(٦) SEG XVIII, no 646 and P. Oxy, 2343.

والذى كان يقترب ، وكذلك حتى لا ينتهك دونما مبرر ذلك التقليد السائد والذى كان يمتنع الحاكم بمقتضاه عن السفر على صفحة النيل المقدس أثناء موسم الفيضان (من يونيو حتى أكتوبر) • لذلك لم يخصص لكل محافظة سوى بضعة أيام قليلة فى جدول الجلسات القضائية الدورية •
وقد كان حجم العمل المطلوب انجازه هائلا • وهذا ما تشير اليه احدى البرديات المرفوعة من رجل من اكسيرنخوس تحمل رقم ملف ١٠٠٩ ونحتفظ بها حاليا جامعة ييل تذكر أنه فى مارس سنة ٢٠٩ م ، عندما كان الحاكم مقيما فى أرسينوى ، تلقى ١٨٠٤ التماسات خلال فترة يومين فقط • اى ما يتراوح بين ٧٠٠ الى ٧٥٠ التماسا فى اليوم الواحد • واذا كان مكتب الحاكم يبقى مفتوحا لمدة عشر ساعات يوميا ـ وهو الحد الأقصى من ساعات العمل المصرح بها للمحـاكم فى البلديات الرومانيـة ـ فمعنى ذلك أن الالتماسات كانت تقدم بمعدل التماس واحد كل دقيقة خلال كل فترة العشر ساعات • ولا يحتاج الأمر الى خيال واسع لتصور شكل الملتمسين وهم يكونون طابورا طويلا من قبل طلوع الشمس وينتظرون الوقت الذى يتطلبه تقديم الورقة الثمينة التى تحمل كثيرا من الآمال والمخاوف (٧) •

والالتماسات التى يعتبرها المعاونون مميزة أو استثناء فقط توضع جانبا للعرض على نظر الحاكم شخصيا • وحتى هذه كان الحاكم يشير فى أغلب الأحوال بعرضها على موظفين أدنى أو قضاة مؤقتين يعينهم لهذا الغرض وهم أقرب الى المحكمين الخاصين فى الواقع • واذا كانت القضية تضم بين أطرافها جنودا ، تكون الاحالة الى ضـابط • أما بالنسبة له شخصيا فيبقى عدد قليل نسبيا من القضايا التى يظهر ، بسبب جدتها أو أهميتها ، أنها فى حاجة الى الخبرة الشخصية للحاكم • ونحن نعلم أن الالتماسات الـ١٨٠٤ التى ذكرت فى الفقرة السابقة عبئت كلها وذهبت الى الاسكندرية ، حيث أرسل مكتب الحاكم الاجابات عليها بعد شهرين •

وتشير كثير من البرديات الى تحقيقات تمت أمام الحكام وما زال لدينا عدد من مقتطفات فعلية من المحاضر الرسمية لوقائع هذه التحقيقات • ومن مجموع الدلائل المتاحة يتضح أن الحاكم كان يتولى النظر شخصيا فى القضايا المتعلقة بالشئون العسكرية وأمور المتقاعدين ، والضرائب والمالية العامة والاعفاءات من الخدمات الالزامية وجرائم العنف والنصب •

ان أطول محضر لجلسة محكمة وصلنا حتى الآن مسجل على لفافة من أوراق البردى محفوظة اليوم فى المكتبة البريطانية وهذه اللفافة فى

---

(٧) P. Oxy, 2131 and P. Yale, 6 .

حالتها الحالية ناقصة ، ولسوء الحظ ممزقة وتتكون من خمسة أعمدة عددها ١١٤ سطرا . وقد سبقت الاشارة الى فقرة منها وهى مكتوبة فى عام ٢٥٠ فى مناسبة أخرى (فى الفصل الثالث) . وفيما يلى بعض النماذج من مقتطفات أخرى من محاضر جلسات التحقيق :

(الحاكم : دكيموس فيتوريوس ماكرينوس ١٨١ - ١٨٣ م)
(Decimus Veturius Macrinus)

قال ماكرينوس لبسياس Psais : « هل تم تسجيلك فى التعداد ؟ » وقد أجاب عن طريق مترجم « لا » قال ماكرينوس « أين اذن تم تسجيل اسمك ؟ فأقر « أنا لم أسجل . لقد توفى أبواى عندما كنت صغيرا ولم يكونا قد قاما بتسجيل اسمى » وبعد مشادات أخرى قال ماكرينوس : « هذا أمر خطير » وبعد فحص الموضوع مع مجلس مستشاريه أمر بسايس بأن يوضع تحت التحفظ (الباقى مفقود) .

الحاكم : (سيرفيوس سولبيكيوس سيميلس
Servius Sulpicius Similis

العام الخامس عشر من حكم تراجان المؤله ٢٥ برمودة (٢١ مارس ١١٢ م) فى نوقراطيس .

« تقدم ديوسكوروس بن ديونيسيوس وقال : نحن أخوان (كلفنا) بالخدمة الالزامية (كلانا) واننى أرجو منكم اعفاء أحدنا حتى يتمكن من الاشراف على زراعتنا . فقال سولبيكيوس سيميلس : هل أبوك مازال على قيد الحياة ؟ ولما أجاب بالنفى حكم سولبيكيوس سيميلس « سيعفى أحدهما » .

من وقائع محضر جلسة فلافيوس تيتيانوس ، حاكم سابق Flavius Titianus فى العام الثانى عشر من حكم هدريان المؤله فى ٨ بؤونة (٢ يونيو سنة ١٢٨ م) بالمحكمة المنعقدة بساحة السوق .

« أنطونيوس بن أبوللونيوس ظهر وسجل من خلال مستشاره أزيدوروس أن والد زوجته المدعو سمبرونيوس Sempronius حرض للتحرش به واختطاف ابنته رغما عنها . وقد أدى ذلك الى مرضها نتيجة الحزن . وقد تعاطف معها الابيستراتيجوس Bassus وأصدر قرارا بعدم حرمان أنطونيوس (من الاحتفاظ بها) اذا كان الاثنان يرغبان فى الحياة معا . ولكن لم ينفذ هذا القرار ، لأن سمبرونيوس تجاهله ، وتقدم بالتماس الى الحاكم العام ، متهما أنطونيوس بالعنف ، وأنه قد تسلم خطابا بدعوة الطرفين للمثول أمام المحكمة . عندئذ دافع أنطونيوس

بانه ، اذا سمح الحاكم العام . فانه لا (يرغب) فى أن يطلق زوجته التى نكن له الحب . ورد ديديموس المحامى . معترضا ، أن عمل سمبرونيوس لم يكن بغير سبب حيث ان أنطونيوس عدد باتهامه بالفسق بابنته ، ولذلك فان سمبرونيوس ، الذى رفض أن يحتمل الاهانة ، استخدم حقه الذى كفله له القانون واتخذ هذا الاجراء ضد أنطونيوس . (وعندئذ) أضاف بروباتيانوس نيابة عن أنطونيوس أنه فى حالة عدم انباء الزواج فليس للأب أى سلطة على مهر الابنة أو على الطفل والذى قدمه أثناء الزواج . وهناك قال تيتيانوس بأن العامل الحاسم فى مثل هذا الأمر هو أى الرجلين ترغب الزوجة فى البقاء معه . قرأت وأشرت » .

من وقائع محضر المحكمة التى حضرها موناتيوس Munatius (فيلكس Felix) فى العام الثالث عشر من حكم أوليوس أنطونينوس Aleius Antoninus المؤله ، ٢٢ برمودة (١٧ ابريل عام ١٥٠ م) :

جليكون Glykon بن ديونسيوس وأبوللونيوس بن جليكون ، وقد حضر أمام المحكمة ، وبعد ملاحظات أخرى قال أرخيلاوس Archelaos المحامى « ان جليكون لا يملك مقومات (القيام بخدمات الزامية) وهو قد تنازل عن ممتلكاته » . قال موناتيوس : « يجب أن تراجع ممتلكاته وهناك قاعدة سبق أن طبقتها فى كثير من الأحيان ويبدو أنها صحيحة ـ أنه فى حالة الأشخاص الذين يتنازلون عن أملاكهم ، فان عملهم هذا يكون باطلا اذا ثبت أنه تم بغرض خداع الدائنين » (٨) .

لقد كان الحظ يحالف عددا قليلا من مقدمى الالتماسات والمتقاضين الذين كان الحاكم يتولى بنفسه النظر فى قضاياهم لأن المسالة كانت تحسم بمجرد صدور قراره بشأنها ، ويتم بعدها اعلان القضية Res Judicata

أما بالنسبة للدعاوى التى لا تعرض على الحاكم فان الاجراءات القضائية الخاصة بها تطول وتطول . وأول مظاهر هذه الاجراءات الانتظار للدورة القضائية القادمة ، وهذا يعنى انتظارا قد يمتد الى عشرة شهور ، قبل أن يتلقى الملتمس ردا ، مثلما كان الحال بالنسبة لـ ١٨٠٤ التماسات المشار اليها أعلاه . وحتى عندما يصل الرد فهو لن يكون سوى « بدون تحيز سوف ينظر الابيستراتيموس فحوى مظلمتكم » أو « اذا كانت لديه أية أدلة أحضرها الى الاستراتيجوس وهو سوف يقوم بعمل اللازم » . أو شىء

---

(٨) PSI 1326; SB 9050 ; SB 9050 ii. P. Oxy. 237 vii and P. Ryl. 75 = select Papyri 258 and 259.

حول قدرة الأب على ان ياخذ ابنه ويقوم بتطليقها من زوجها ـ راجع الفصل الرابع ـ وحول التنازل عن الممتلكات حتبا للقيام بالخدمات الالزامية راجع الفصل الثامن .

مشابه . وفي بعض الأحيان كان الاستراتيجوس يوكل ليس للحكم في الأمر بنفسه وانما لاجراء تحقيق (وهي مهمة عادة ما كان يوكلها الى الكاتب الملكي في محافظة) ثم يكتب تقريرا يرفعه الى الابيستراتيجوس أو الحاكم ـ وكل هذا لا يعني بالنسبة للدعوى سوى تأخير على تأخير (٩) .

وكان الحاكم يوكل بعض القضايا الى أصدقاء له باعتبارهم محكمين خصوصيين . وكان هؤلاء رجالا معروفين أو مركزين عنده ، وبدون شك فانهم ساعدوا أحيانا بيد أنه لم يكن دائما في سرعة انجاز العمليات القضائية . وعلى سبيل المثال . أعلن الحاكم في ختام الجلسات القضائية لعام ١١٦ ميلادية أنه لم يتم البت في كثير من القضايا ، وأعلن أنه « اذا كان القضاة الذين قمت بتعيينهم هم المسئولين عن هذا التأخير فانني سأبقى هنا لحين انتهائهم من هذه القضايا » (١٠) .

ومن ناحية أخرى ، قد يكون مرد هذه التأخيرات سببه الأطراف المتنازعة نفسها ، وذلك من خلال طرق التعويق المتعددة أو طلب ارجاء النظر في القضية لوجود عذر مقبول (مثل الحاجة للاشراف على الحصاد) أو ببساطة بسبب عدم القدرة على الحضور عند المناداة على القضية في المحكمة . وفي الثالث من شهر أغسطس سنة ٨٩ م فان عدم مثول المستدعى أمام المحكمة كان موضوع قاعدة جديدة أصدرها الحاكم ماركوس ميتيوس روفـوس .

نسخة من وقائع المحضر (التاريخ)

بعض الأطراف المنظورة قضاياهم أمام المحكمة يتم استدعاؤهم ولكنهم يتخلفون . لذلك فان ميتيوس روفوس أمر المنادى بأن يعلن : « الأشخاص المسجلون في أي محكمة ولا يحضرون سيتم اشعارهم باستدعائهم مرة أخرى ، واذا تغيبوا (مرة أخرى) فستتم محاكمتهم غيابيا in absentia

ولكن بات واضحا أن المشـكلة استمرت تسبب هموما للمتقاضين ومشاكل للادارة فبعد مائة سـنة من زمن روفوس جاء الحـاكم تيتوس باكتيميوس ماجنوس Titus Pactumeius Magnus ، واصـــدر أمرا آخر يتعلق بنفس المشكلة .

رافعو الالتماسات الذين تلقوا أو يتلقون فيما بعـد تعليمات أو ردودا بأن « امثلوا أمامي في المحكمة » فانه سيرسل لهم اخطار بأنهم اذا

---

(٩) الجمل المذكورة من P. Oxy 2131 and P. Wurzb. 0. وهما مثالان فقط من بين امثلة متعددة .

(١٠) P. Oxy. 2754.

لم يمثلوا خـلال عشرة أيام من (تاريخ) استلامهم للأمر أو الاجابة ، فانه لن يلتفت الى طلباتكم سواء كانت اجراءات قانونية أو انجازات لحكم قضائي ... واذا سجلوا هذه التعليمات (عند موظف المحكمة) فسوف انظر قضيتهم خلال مدة عشرة الأيام المحددة (الباقى ممزق) .

ان محاضر الجلسات التى تمت فى عام ٢٥٠ م تضم تلك الملحوظة : « عرضت القضية أمام الابيستراتيجوس وصدر الحكم ضدهم بعدما تم استدعاؤهم ثلاث مرات ولم يمثلوا (أمام المحكمة) » (١١) .

ان الاستراتيجوى وغيرهم ممن كانت تسند اليهم القضـايا عادة ما كانوا يسـارعون فى تنفيـذ أوامر الحاكم . لقـد كان ، بعد كل شيء رئيسهم القوى فضلا عن أنهم يشغلون مناصبهم برضاه وموافقته . لكن المتظلم الذى بدا منتصرا حيث أيدته محكمة الاستراتيجوس كان عليه أن يصطدم مع موجة أخيرة من التباطؤ متمثلة فى اعتراض الموظفين المحليين المسئولين عن وضع أوامر الاستراتيجوس موضع التنفيذ . ان موظفى المدن والقرى كانوا محترفين فى ايجاد أسباب لعدم تنفيذ الأحكام القضائية التى تورطهم فى دفع بعض المال من جيوبهم . مثال ذلك ايجاد بديل لشخص ما سبقت تزكيته بمعرفتهم لشغل خدمة الزامية لاغتصاب حقوقه . وفى أحد الأمثلة المشهورة ، نجد سيدة ــ بعد حوالى عامين من حكمه لصالحها ما تزال تشكو للاستراتيجوس لكي يلزم موظف القرية بان يمتثل لأمره . وهناك قضـية أخرى تمثل نزاعا حـول ممتلكـات ، تم عرضـها على الابيستراتيجوس الذى أحالها بدوره للعرض على حاكم مصر لأنها كانت معقدة لارتباطها بجريمة قتل أم المدعى عليها ، ومنذ الوفاة فان المدعى عليها ذهبت ــ كما أمرت الى الاسكندرية حيث استمرت تنتظر بلا فائدة ظهور المدعى ، وأخيرا طلبت من حاكم مصر السماح لها بالعودة الى مسقط رأسها فى أوكسيرنخوس حيث سمح لها على أن تقوم باعادة عرض الموضوع مرة أخرى على الابيستراتيجوس الحالى . ومرت شهور وربما أعوام ولكن الأمر عاد الى نقطة البدء (١٢) .

ورغم مئات ومئات الوثائق التى تشير الى منازعات وقضايا من كل نوع فان مما يدهشنا اننا لا نعرف سوى معلومات قليلة عن العقوبات . ومثلما هو الحال الآن فان الشكاوى التى كانت تهدف الى عمل قانونى أو الترضيه أيضا يعبر عنهما بصيغة لغوية نمطية . فكان الاستئناف يرفع

---

(١١) P. Hamb 29 = Jur. Pap. 85, P. Oxy. 3017, SB 7696 (Lines 35-6).

(١٢) P. Oxy. 899 and 486 = W. Chr. 361 and M. Chr. 59.

الى « العدالة المنصفة » أو الى « سماحة » أو « رحمة » القاضى الموجه اليه الاستئناف (وعلى الخصوص اذا كان الحاكم العام) · والعقوبة المطلوبة كان يعبر عنها بالفظ عامة وليس بمصطلحات محددة ـ فيقال « العقوبة المناسبة » و « طبقا للنتائج » وما شابه ذلك من تعبيرات · وفى القضايا الخطيرة فان المتهمين من العبيد والأحرار من الطبقات الدنيا كان يحكم عليهم بالقيام بالأعمال الشاقة فى معسكرات الجيش أو المناجم والمحاجر · كما نسمع أيضا عن وجود سجون وخدمات الزامية للقيام بواجب الحراسة فى السجون ولكننا لا نعلم شيئا عن النزلاء ، وهناك اشارات قليلة الى أوامر بالضرب لانتهاك أوامر المحكمة ·

ولكننا فى الغالب نقابل عقوبات مالية · أغلب المنازعات التى نقرأ عنها فى البرديات كانت منازعات ذات طابع خاص ، التعويض فيها يشمل دفع الخسائر عن الأضرار التى لحقت بالفرد أو بالممتلكات · وفى حالات قليلة كانت المسألة تتصل باختلاسات أو غش للدولة ، نتيجة اغراء يجد الشخص المدنى أو العسكرى نفسه عاجزا عن مقاومته · مثل هذه الاتهامات عندما تثبت فان النتيجة تكون عقاب المذنب ومكافأة حقيقية لمن أبلغ عنها ، ففى عام ١٣٩ م عرض كاهن سوكنوبايو نيسوس Soknopaiou Nesos والذى كان قد خدم أيضا كحارس فى مركز تحصيل رسوم على أحد الطرق التجارية عرض تفاصيل قائمة حساب على الابيستراتيجوس يتهم فيها جامعى الرسوم باختلاس منظم للايرادات لمدة تزيد عن أربع سنوات ؟ وعندما انتهى بالجملة التى ذكرها مقدم العريضة « لقد قدمت هذا التقرير لأتمتع باحسانكم » ومن الثابت هنا أن الاحسان الذى يعنيه هو مكافأة المرشد عن الجريمة (١٣) · والقول المأثور يسجل ان تأخر العدالة هو انكار للعدالة على قمة سلسلة من الأمور تضم الضرائب الفادحة والضغوط القانونية والانتهاكات غير القانونية · كل هذه كانت ملامح دائمة فى الحياة فى مصر تحت الحكم الرومانى ، والفشل فى تحقيق اصلاح سريع لنظام القضاء ربما كان بالنسبة للكثيرين القشة الأخيرة التى أحالت الوجود الهامشى للمصريين الى أمر لا يمكن تحمله · وأغلب الوقت كان المصريون يعانون فى صمت أو هكذا بدا لحكومة غافلة غبية لا مبالية · ولكن الاستياء كان قائما ، ومعظم الوقت كان المصريون فى حالة غليان تحت السطح · ولكن الأمر كان يتفجر من آن لآخر فى شكل حوادث انتقام فردية وثورات جماعية · وهذه هى القصة التى سيرويها الفصل العاشر ·

---

(١٣) P AMH 77 = W C HR 277

تصدعات
فى جدران السلام الرومانى

ان كتاب تاكيتوس « التواريخ "Histories"» الذى أخذنا عنه عنوان هذا الفصل وفصول أخرى سابقة ، يعد واحدا من الأعمال الأدبية القديمة التى تعبر عن ازدراء الرومان لسكان مصر باعتبارهم مخلوقات من درجة أدنى . هذا الحكم الذى اكتسب شيوعا بكثرة الاستخدام كان أقوى مؤيديه هو الشاعر جوفينال Juvenal (كما سبق أن رأينا) . كما أن معاصره الشاعر ديو من بروسا Dio of Prusa « ذو الصوت الذهبى » مزج فى خطاب عام ألقاه بالاسكندرية ثناءه على عظمة المدينة تجاريا وثقافيا مزج هذا بوابل من الاهانات نسجها فى ثنايا الخطاب فوصم أهل الاسكندرية بالاستهتار والانغماس فى التطاحن والطموح الجامح والبذخ والمزاج المتقلب والفجاجة (فى الذوق) والفوضى والعنف البدنى والسعى الانفعالى وراء المتع وتوافه الأمور والحاجة الى الجدية وعدم العقلانية والحماقة والخبث وسوء السلوك . وأضاف ديو من بروسا وهو يخاطب أهل الاسكندرية قائلا « لا عجب فى هذا ، فأنتم محل احتقار حكامكم » . وهناك ديو آخر ، ينتمى الى القرن الثالث يدعى ديو كاسيوس خرج عن خطه مكررا أثناء كتابه الضخم لكى يدين المصريين وعلى الأخص دهماء

الاسكندرية ويصفهم بالتقلب والصخب والميل الى التخريب والايمان بالخزعبلات والتهور وعدم احترام السلطات . وقد اعتاد الكتاب المحدثون على ترديد هذه الصيغ المكررة (١) .

كان فرجيل ، هو شاعر الدولة التي كانت عندئذ امبراطورية حديثة النشاة ، وكن أول من عبر بوضوح ودقة عن المهمة التاريخية المقدسة لروما كما اعلنها أغسطس : وهى حكم شعوب العالم بما يخدم مصالح الجميع ، ودعم السلام عن طريق الحفاظ على حياة الشعوب التى يتم السيطرة عليها ومنع العصيان . وكانت الأداة المختارة لتحقيق هذا الهدف المقدس ، بالطبع ، هى الامبراطور . وبدءا من أغسطس ، وهو واحد من أعظم سادة فنون الدعاية السياسية ، كانت العملة الامبراطورية والمراسيم الامبراطورية والاقليمية والأعياد والاحتفالات كلها تكمل الفكرة ـ التى تمثل الخط الرسمى كما نقول الآن ـ بأن الامبراطور راع صالح حام للسلام والوئام فى الامبراطورية حريص على خير ورخاء الشعب وبوجه خاص ما يتعلق بأمنهم الشخصى وفوق ذلك كله توفير الامدادات الغذائية التى كانت لها أهمية قصوى . لقد كان قادرا على أن يهب كل هذه النعم لأنه بفضل الالهام الالهى وطبيعته المباركة مثل التجسيد الحى لكافة الفضائل الشخصية والاجتماعية والسياسية ، وعلى وجه التخصيص الشجاعة والرحمة والكرم والانسانية والعدل والتفانى فى أداء الواجب والنظرة الثاقبة فيما يحقق رفاهية الرعية . ومما لا شك فيه أن القارىء سيتذكر رؤيته لبعض هذه التعبيرات فى واحدة أو أكثر من الوثائق التى سبق عرضها فى الفصول السابقة (٢) .

وفى مصر مثلما كان الحال فى باقى الأقاليم فان السكان الخاضعين قبلوا على العموم السيادة الرومانية بل وصبروا عليها فلم يكن فى استطاعتهم التخلص منها . ولكن كانت جذوة السخط بل والكراهية تتأجج تحت السطح الهادىء للسلام الرومانى المتباهى به . وفى معظم الأحيان بقى هذا السخط حيا فى نفوس سكان الأقاليم ، ساعد على ذلك الضرائب

---

(١) عن تاكيتوس انظر الهامش أسفل المحتويات والصفحة الأولى من الفصل التاسع أما بالنسبة لجوفينال فانظر الصفحة الأولى من الفصل الخامس وملاحظة أخرى بعد ذلك بخمس صفحات ، وبالنسبة Dio Chriysos:om انظر خطبته ٣٢ ، فصل ٣١ . وبالنسبة للكتاب المحدثين هناك اشارة لأحدهم فى الفصل الرابع الهامش ١٤ .

(٢) راجع الفصل الخامس ، أما الاشارة الى فرجيل فموجودة فى :

Virgil. Aeneid, Book V, Verses, 851-3.

أما موضوع الامبراطور وفضائله فقد نوقش كثيرا وأحدث هذه الدراسات هى .

A. Wallace-Hadrill, Historia, 30 (1981), 298-323.

الباهظة والنظرة المتعالية من السادة الرومان • وكان هذا السخط يجد متنفسا في كلمت الاحتجاج والتعبير عن الاحباط • وكان سنيكا Seneca وهو رجل دولة وفيلسوف عاش في القرن الأول ، ذا خبرة مباشرة بمصر نظرا لامتلاكه ضياعا هناك • وقد لاحظ سنيكا بأن في مصر عبقرية خلاقة تتجلى في ابتكار طرق للسخرية من الحكام الرومان • وأهل الاسكندرية الذين كن يعيش في وسطهم الحاكم الروماني – اشتهروا بسوء السلوك والوقاحة وكانوا بلا شك روادا في مباراة التراشق بالالفاظ ، وهي مباراة كانوا عادة يعرفون الحدود التي لا يجب أن يتجاوزوها حتى لا يتعرضوا لعقاب قاس (٣) •

وعلى أية حال فقد تحول الاحتجاج في بعض الأحيان من الكلام الى العمل • وكان الدافع المعجل بقيام ثورة قد يكون خطيرا كحدوث مجاعة مثلا أو تافها كتخيل التعرض للاهانة • وأكثر التحديات للرومان التي نعرفها جيدا هي الانتفاضات اليهودية • ولكن هذه الانتفاضات كانت ذات جذور اجتماعية دينية فريدة جعلت منها نوعية خاصة ، وطبقا لذلك فقد ناقشناها في الفصل الثاني • أما في هذا الفصل فاننا سنركز اهتمامنا على مشاعر العداء الاغريقية والمصرية ضد روما ، وهي مشاعر تختلف لدى كل منهما في أسبابها وطرق التعبير عنها وان كانت تتلاحم أحيانا عندما يصل الأمر الى حد التمرد الصريح •

أولا ، الجانب الاغريقي • ان الاسكندرية لم تخف مشاعر العداء ضد اكتافيان Octavian حتى بعد أن اكتمل نصره بانتحار كل من أنطونيوس وكليوباترة • وقد أثار ذلك حفيظة اكتافيان ودفعه الى أن يستن نهجا سار عليه من خلفه من الأباطرة لما يزيد على مائتي عام ، برفض طلب أهل الاسكندرية المتكرر بأن يكون لهم مجلس منتخب – وهو الأساس التقليدي للحكم الذاتي في المدن الاغريقية • وقد زاد من احساس أهل الاسكندرية بالاهانة حصول اثنين من المدن الاغريقية الثلاث في مصر بل ربما المدن الثلاث على حق الحكم الذاتي ، ولذلك بقي السخط حيا في النفوس تتوارثه الأجيال • ازدهرت الاسكندرية في ظل الحكم الروماني كمحطة تجارية في ملتقى الطرق بين الشرق الغرب • أما بالنسبة لوضعها السياسي فبعد أن كانت سيدة مدن البحر المتوسط صارت مجرد مدينة ريفية • وهناك ، في المدن الريفية الأخرى – عواصم المحافظات – حالة سخط مماثلة التهبت بين طبقة سكان عواصم المحافظات ، الذين نظروا لأنفسهم باعتبارهم

---

(٣) ملحوظة سنيكا موجودة في كتابه :
Consolation Addressed to, Helvia, Ch. 19.

الورثة الشرعيين للثقافة الاغريقية ، ولكن الحكومة الرومانية كانت تعاملهم باعتبارهم مجرد مجموعه أخرى من المصريين الاقل شأنا • صحيح أنهم كانوا يتمعون ببعض الامتيازات ، ولكن مع ذلك فهم مصريون •

لقد اضطربت صدور أهل الاسكندريه بالمزيد من المظالم • فلم يعد هناك من ينكر على روما تبوء المكانة الأولى فى منطقة البحر المتوسط حتى كمركز ثقافى ، وبعد ان كانت الاسكندرية محط كل الأنظار تراجعت الى المركز الثانى • ومما زاد لهيب السخط اشتعالا حصول اليهود الذين كانوا يعيشون بين الاسكندريين ــ خلال المائة عام الأولى من حكم الرومان ــ على منح امبراطـورية حــرم منهـــا أهـل الاســكندرية • وقد أدى السخط الذى غذته هذه الاهانات ــ سواء كانت حقيقية أو وهمية ــ الى صدور وتوزيع نسخ من الأدب السرى وصلنا منها اثنتا عشرة نبذة أو أكثر وهى تمثل دليلا كافيا • وعندما بدأت هذه القصاصات تظهر فى ما عثر عليه من أوراق البردى اكتسب هذا الأدب الموجه سريعا عنوانا أخاذا وهو أعمال الشهداء الوثنيين •

وقد تم اسباغ الواقعية على مشاهد الاستشهاد • فكل منها يبدو وكأنه تسجيل حرفى لجلسة استماع يمثل فيها فرد أو مجموعة صغيرة من أهل الاسكندرية أمام الامبراطور للتعبير عن مطلب أو دفع اتهامات خطيرة عادة ما تكون متعلقة بالعيب فى الذات الملكية (Laesa Majestas) وبدون استثناء نرى الأبطال الاسكندريين يعبرون عن تحـديهم السافر واحتقارهم لحاكم الامبراطورية ، أقوى شخص فى العالم • ان التواريخ المأساوية لعدد من الأحداث الهامة تقع بين حكم أوغسطس وحكم كمودوس Commodus وربما كراكلا Caracalla ، وقد ذكر أحد الكتاب الذين تناولوا هذا الموضوع بالدراسة « لم ينج سوى عدد قليل من أباطرة القرنين الأول والثانى من تشهير « نصوص الهرب والخيانة هذه » (٤) • وجدير بالذكر ، أنه على الرغم من أن أبطال هذا الأدب كانوا جميعـا اسكندريين ، فان البرديات التى تضم هذه النصوص وجدت جميعها فى الريف ، وهو مؤشر على اتساع دائرة انتشـارها وشعبيتها بين مدعى الثقافة الهلينية فى العواصم الريفية والقرى •

ان تحليل مضمون أدب الاستشهاد يكشف عن وجود عناصر متكررة كالكبرياء ومعاداة السامية بيد أن الموضـوع الذى يحظى بجل الاهتمام

---

(٤) C. H. Roberts, Journal of Roman Sturies, 39 (1949), 79.

هو معاداة الرومان ، فهو يحفل بالعديد من النماذج سواء الحقيقية أو المشكوك فيها التى تظهر جشع وطغيان الحكومة الرومانية واستبداد وفساد الأبطرة وحكام عصر · أحد أفضل القطع حفظا تشمل التراشقات الآتية (يرجع التاريخ المأساوى الى منتصف القرن الأول) ·

« تم استدعاء مبعوثى الاسكندرية ولكن الامبراطور أرجأ الاستماع الى قضيتهم الى الغد ··· وفى اليوم التالى ، ٦ بشنس ، يستمع كلوديوس قيصر الى قضية ايزودوروس مدير معهد التربية (الجمنازيوم) بالاسكندرية ضد الملك أجريبا (ملك اليهود) وذلك بحدائق لوكوليا (بروما) · وكان يجلس (مع الامبراطور) عشرون من أعضاء مجلس الشيوخ وستة عشر من المستشارين ، كما حضر محاكمة ايزودورس بعض سيدات البلاط ·

بدأ ايزودوروس : سيدى القيصر ، اننى أركع عند ركبتيك عسى أن تصغى لأنين مدينتى وطنى » ·

الامبراطور : « اننى أهبك هذا اليوم » · وهنا أبدى أعضاء مجلس الشيوخ الحاضرون موافقتهم ···

كلوديوس قيصر : « لقد تسببت فى موت أصدقاء لى يا ايزودورس » ·

ايزيدوروس : « لقد أطعت الامبراطور (كاليجولا) الذى كان بيده الأمر آنذاك · وأنت أيضا ما عليك الا أن تخبرنى بمن تريد أن أوجه الاتهام وسوف أفعل ذلـك » ·

كلوديوس قيصر : « هل أنت حقا ابن راقصة يا ايزيدوروس ؟ ·

ايزيدوروس : « اننى لست عبدا ولا ابن راقصة ولكنى مدير معهد التربية (الجمنازيوم) فى مدينة الاسكندرية ذائعة الصيت · أما أنت فلست سوى ابن لقيط لسالومى اليهودية ··· » ·

لامبون (وهو اسكندرى آخر) قال لايزيدوروس : ماذا عسانا أن نفعل سوى الانصياع لملك مجنون ؟ ·

كلوديوس قيصر : « على الذين أمرتهم سالفا باعدام ايزيدوروس ولامبون (أن ينفذوا الأمر دون ابطاء) (البقية مفقودة) (٥) ·

وفى القطعة الأخرى التالية نجد أن الامبراطور هو كومودس وأن وقت الحدث حوالى عام ١٩٠ م :

---

(٥) W. Chr. 14 = Musurillo Text IV A.

وانظر ايضا الهامش رقم ٦ ·

« أثناء اقتياد أبيان Appian ... التفت ، فرأى هليودوروس وقال (له) : أليس بوسعك أن تقول شيئا ياهليودورس وأنت ترانى مدفوعا الى ساحة الاعدام ؟ » ويجيب هليودوروس قائلا « الى من يمكن أن نتحدث اذا لم نجد من يصغى ؟ اذهب ، ياولدى ، والق حتفك . ان موتك شرف لانه تضحية من أجل مدينتك وطنك الغالى . لا تجزع ... فانى سالحق بك ... » .

(وهنا) يستدعى الامبراطور أبيان مرة أخرى ويقول :

الامبراطور :

« أعتقد أنك تعرف (الآن) الى من تتحدث ؟ » .

أبيان : « أنا أعلم . فاننى أتحدث الى طاغية » .

الامبراطور : « كلا انك تتحدث الى حاكم » .

أبيان : لا تقل هذا . ان ماركوس (أوريليوس) المؤله أباك ، كان خليقا بأن يكون امبراطورا . تذكر أنه كان فى المقام الأول فيلسوفا وثانيا أنه لم يكن يلهث وراء المال ، وثالثا أنه كان محبا للخير . ان ما بك هو نقائض هذه الخلال — الطغيان والغدر والغلظة » .

وهنا يأمر القيصر باقتياده الى الاعدام وفى أثناء اقتياده يقول أبيان : « سيدى القيصر هب لى هذا المطلب الأخير » .

الامبراطور : « ما هو ؟ » .

أبيان : اصدر أمرك بأن يقتادونى الى ساحة الاعدام لابسا علامات الشرف الخاصة بى » .

الامبراطور : « لك ما طلبت » .

وهنا يأخذ أبيان عصابة الرأس ويضعها فوق رأسه ، وينتعل حذاءه الأبيض ، ثم يصيح فى وسط روما قائلا : « اسرعوا أيها الرومان حتى تروا منظرا لا يتكرر . ها هو مدير معهد التربية ومبعوث مدينة الاسكندرية يقاد الى الاعدام » (٦) .

ان أدب الاستشهاد كما نحس من خلال هذه المقتطفات كان يميل الى عدم اللياقة فى الحديث أكثر من ميله الى التحريض ، فهو لم يتضمن أية

---

(٦) P. Yale inv. 1536 (Published in Trans. Amer. Philol. A sn. 67 (1936, 7) + P. Oxy. 33.

وقد تم اعادة نشر كل كنص يحمل رقم ١١ وذلك فى
H. Musurillo. The Acts of the Pagan Martyrs, Oxforr, 1954 and Acta Alexandrinorum, Leipzig, 1961.

دعوة الى عمل محدد كما أنه لم يستغرق فى الرغبة فى الانتقام بالتنبؤ باطباق قدر مفزع على الظالم ، كما كان الحال فى الكتابات الكهنوتية لليهود والمسيحيين والمصريين · ويمكننا أن نصور الاسكندريين الأكثر تعلما وثروة وسكان عواصم المحافظات يغذون الضيق السياسى لطبقاتهم بتصفح هذه الكتب فى هدوء مكتباتهم أو يقرأونها بصوت مرتفع فى تجمعات من الأصدقاء · وحتى عندما كانوا فى بعض الأحيان يرسلون بعض المواطنين فى سفارات الى روما ، فانهم كانوا يعبرون عن مشاعر الاحباط بكلمات وليس بأفعال · ولا ينطبق هذا على عامة الاسكندرية الذين اشتهروا بالتمرد والتقلب وسرعة الهياج ·

وفى خلال القرن الأول تركزت مشاعر العداء عند الاسكندريين على المجتمع اليهودى الذى كان يعيش بينهم · فقد كانت الامتيازات التى منحتها الحكومة الرومانية لليهود وأنكرتها عليهم دافعا دائما للهياج بين أهل الاسكندرية المظلومين · وقد تكرر حدوث اشتباكات خفيفة بين أعداد من الجانبين ، ومن وقت لآخر كانت هذه الاشتباكات تتطور الى أعمال شغب دامية كما ظهر بوضوح فى مذبحة عام ٣٨ م ومأ حدث بعد ذلك بحوالى عشرين عاما وثلاثين عاما · ولكن بعد ثورة اليهود فى الفترة من ١١٥ ـ ١١٧ م قتل العديد منهم حرموا من امتيازاتهم · وأصبحوا يمثلون عنصرا يمكن اهماله · ومكن ذلك الاسكندريين من تركيز كل عدائهم على الحكومة الرومانية ، التى كانت متمركزة بصورة كبيرة فى قلب مدينتهم · فكانوا غالبا ما يقومون بالمظاهرات الشعبية فى الشوارع وفى المسرح ضد حاكم الاقليم أو حتى ضد امبراطور زائر · وعندما كان تمرد يندلع فى مكان آخر من مصر نجد الاسكندريين على استعداد للانضمام والمساعدة · كما أن المنافسين الذين تحدوا الاباطرة بدءا من أفيديوس كاسيوس فى ١٧٥ م حتى دوميثيوس دومتيانوس فى نهاية القرن الثالث استطاعوا الاعتماد على ترحيب وتأييد الاسكندرية · لقد كان لهذه الانتفاضات مغزى يتعدى الجانب السياسى : فقد كانت تحدث اضطرابا فى شحنات القمح المتجهة الى روما ، مما هدد امدادات الغذاء للعاصمة · ولم تساعد ألوان العقاب التى كانت تعقب اخماد المقاومة الا على زيادة مشاعر العداء ضد الرومان · وقد كانت أكثر أعمال العقاب دموية تلك التى اقترفها كراكلا فى ٢١٥ ميلادية · ويروى لنا قصة هذا الحدث مؤرخان معاصران ، عرف عنهما مشاعر العداء تجاه الامبراطور وهما ديوكاسيس وهيروديان · والقصة كما يحكيها كل منهما بأسلوبه تؤكد فجور كراكلا ·

فالاسكندريون الصرحاء سخروا من الامبراطور لما يدعيه من خلود سيرته ، ومن أن قتله الذى لا مبرر له لأخيه جيتا Geta كان عملا من إعمال

الدفاع عن النفس . وكان كراكلا في ذلك الوقت يعد العدة لشن حرب ضد بارثيا Parthia ويبدو انه خشى أن يهدد الاضطراب في الاسكندرية خطوط امداد قواته الغازية . فكان رده على الموقف خبيثا وسريعا ووحشيا . فعند قدومه الى الاسكندرية خرج كبار رجالات الاسكندرية ـ كالعادة ـ الى الضواحى لتحيته . قام بالترحيب بهم بحرارة ولكنه أمر بقتلهم في الحال . وبعد مرور عدة أيام أمر بوقف المذبحة ، وفى تقرير لمجلس الشيوخ وبعد ذلك أطلق قواته فى المدينة وأباح لها النهب والقتل كيف شاءت . الرومانى ذكر أنه من غير المهم معرفة عدد القتلى من الاسكندريين ، لأنهم جميعا يستحقون الموت . ثم أصدر بعد ذلك سلسلة من الأوامر حفظ أحدها فى النسخة التالية :

« كل المصريين الموجودين بالاسكندرية وخاصة الريفيين الذين فروا اليها من أماكن أخرى ويمكن بسهولة الكشف عن هويتهم ، يجب طردهم بكلية باتباع كل السبل . ويستثنى من ذلك تجار الخنازير وعمال القوارب النهرية ، وأولئك الذين يحضرون البوص لتدفئة الحمامات . ولكن اطردوا كل الباقين ، الذين يسببون اضطرابا بالمدينة لكثرة أعدادهم وعدم اشتغالهم بأية مهنة . لقد بلغنى أن المصريين يقومون فى عيد سرابيس وفى بعض الأعياد الأخرى وحتى فى الأيام العادية كذلك باحضار ثيران وبعض حيوانات أخرى لتقديم القرابين ، فلا تمنعوهم من الحضور من أجل ذلك . فالذى يسرى المنع فى حقهم هم أولئك الذين يفرون من الريف الذى ينتمون إليه للتخلص من العمل فى الأرض . وليس أولئك الذين يتجمعون بها لرغبتهم فى رؤية المدينة العظيمة أو الذين يحضرون الى هنا بحثا عن حياة أكثر ثقافة أو للقيام بعمل من حين لآخر . ولاحظوا أنه من بين النساجين يمكن التعرف على المصريين بسهولة من خلال حديثهم . وان حاولوا التشبه بالآخرين من حيث المظهر والزى . وبالاضافة الى ذلك فان من تحديثهم يتبعون أساليب معيشية على النقيض من الأساليب والسلوك الحضرى فاعلموا أنهم مصريون » (٧) .

وبوصولنا الى هذه النقطة فاننا نكون قد سبرنا غور المشاعر المتأججة ضد الرومان والأحداث التى قام بها الاغريق ومن يطلق عليهم اغريق مصر . إن أمر الطرد الذى أصدره كراكلا يذكرنا بأن من المناسب النظر الى جموع الشعب المصرى ومشاعرهم تجاه حكامهم الرومان .

من هم السكان « غير الشرعيين » الذين أدانهم كراكلا ووجه اليهم تهمة تعكير صفو الأمن فى الاسكندرية ؟ لقد كان هؤلاء بكل تأكيد يضمون

(٧) P. Giss 40 ii = Select Papyri, 215.

بعض عمال المراكب المقيمين بصفة دائمة أما الأغلبية فكانت تتمثل فى الريفيين الذين فروا الى المدينة من بلادهم · ان قيام كراكلا بتحديد دافع نزوحهم من الريف بالرغبة الهوجاء فى تجنب حياة التعب جعله يتجاهل الحقيقة · فعلى مر التاريخ كان معظم الناس ، وخاصة الفلاحين ، قانعين بالاقامة فى مواطنهم ، حيث الشعور بالانتماء ، طالما كانت ظروف الحياة محتملة · وعلى مدى قرون بل وآلاف السنين برهن المصريون على ارتباطهم بالأرض ، بالرغم من أنها فى أغلب الأحوال لم تمدهم الا بالنزر اليسير · فالفرار وترك الانسان لبيته مهما كان هذا البيت متواضعا ، دون أمل فى العودة ، كان عملا يائسا · وهو الملجأ الأخير الذى دفع اليه هؤلاء الرجال ، كما رأينا فى الفصل الثامن ، عندما فقدوا كل أمل فى القدرة على مواجهة المطالب الظالمة للادارة الرومانية من ضرائب وخدمات الزامية ·

وكان بعض الهاربين عليهم أن يولوا وجوههم شطر الاسكندرية أو الى مركز عمرانى كبير آخر على أمل الاختفاء بدون عقوبة فى الزحام · بينما اتجه آخرون الى مخابئ فى الصحراء حيث كونوا أو انضموا الى عصابات اللصوص · وكما رأينا فى الفصل السابع ، فقد كانت الطرق التجارية التى تعبر الصحراء تخضع باستمرار لحماية قوات البوليس والجيش تحسبا لغارات قطاع الطرق · وقد أصدر الأباطرة والحكام القرار تلو القرار بخصوص هذا الموضوع مستنكرين مهددين وأحيانا مداهنين هذه القرارات وخاصة تلك التى تضمنت عفوا عاما أو اعفاء من الضرائب بمناسبة اقتراب موعد تعداد السكان ، وقد ساهمت هذه القرارات فى خفض عدد اللصوص بصورة مؤقتة · وعلى سبيل المثال : فان الفلاحين المستأجرين من سوكنوبايونيسوس الذين قرأنا شكواهم فى الفصل الثامن تبدأ بما يلى :

« ان أعظم أباطرتنا قداسة وخلودا الامبراطور سيفروس والامبراطور (كراكلا) عندما كانا يقيمان فى مصر ، كان من بين الهبات الكثيرة التى أنعما بها (على الناس) رغبتهما أيضا فى عودة الأشخاص النازحين فى مناطق أخرى الى ديارهم وترك العنف والأعمال المخالفة للقانون ، وطبقا لأوامرهما المقدسة فاننا عدنا » (٨) ·

ولكن نظرا لأن الظروف التى دفعت الناس الى الفرار استمرت كما هى ، فان نشاط عصابات النهب ظل متفشيا فى مصر الرومانية ، واستعصى على المعالجة فى أوقات الرواج كما هدد ببلوغ حد الأزمة فى أوقات الشدة ·

---

(٨) SB 4284.

وبعد مرور حوالى اثنى عشر عاما على صدور أمر الامبراطور الذى حث أولئك المزارعين من سوكنوبايونيسوس على العودة الى ديارهم • أرسل حاكم مصر الخطاب التالى الى محافظى الأقاليم السبعة وأرسينوى

« لقد سبق لى أن أصدرت اليكم أمرا بالفعل فى خطاب آخر بالبحث الجاد عن عصابات اللصوص ، والتى حذرتكم من خطورة اهمال ذلك • والآن وتأكيدا على الأمر السابق فاننى أصدر أمرا بأن يعلم كل من فى مصر باننى لا أعتبر هذا الشأن قليل الأهمية ، بل اننى أقدم المكافآت لمن يتعاونون منكم (المحافظون) معنا كما أنذر بالويل كل من يختار عدم الطاعة • اننى أرغب فى نشر أمرى هذا فى العواصم والأماكن البارزة جدا فى محافظاتكم وسوف تخضعون للعقاب واحتمال (الفصل) اذا ما ارتكب أحد الخارجين أعمال عنف ولم يقبض عليه • وختاما اليكم تحياتى » •

ولكن المشكلة — كما رأينا — كانت مزمنة كما أن سياسة « ابحث ودمر » لم تكن جديدة • وفى عام ١٥٤ ميلادية عندما أعلن الحاكم فترة عفو مدتها ثلاثة شهور يسمح فيها للخارجين على القانون بالعودة الى بيوتهم دون عقاب ، فانه أضاف التهديد التالى لحث العصاة والمترددين على الاستجابة :

« دعهم يعلمون أن أصحاب السعادة حكام المقاطعات وكذلك القادة والجنود الذين أرسلتهم لحفظ الأمن والهدوء فى المراكز الريفية لديهم أوامر بقمع أى أعمال سطو عن طريق اجراءات سريعة ومناسبة والقيام بمطاردة فورية عند حدوث الغارات ومعاملة الخارجين على القانون الذين يقبض عليهم أثناء البحث معاملة المتورطين فى عمليات السطو هذه » (٩) •

بيد أنه لا ينبغى أن نجعل بلاغة الحاكم وحماسته تعتم الرؤية أمامنا • فبالرغم من أن الحكومة لم تنجح مطلقا فى القضاء على اللصوصية كلية ، الا أن عدد اللصوص ظل صغيرا بالقياس بالعدد الكلى للسكان حتى فى أحلك الأوقات • فحياة اللصوصية كانت تتطلب تجشم مصاعب تفوق مصاعب حياة الشخص العادى • فهى تعنى الانفصال الدائم عن دفء المنزل والأحباب ، كما أن الوقوع فى قبضة السلطان كان يعنى الموت المحقق • ويذكر فلاوستراتوس Philostratos ، وهو كاتب عاش فى بداية القرن الثالث قصة اثنى عشر رجلا اتهموا بالسرقة باعتبارها حادثة عادية •

---

(٩) P. Oxy, 1408 = Select Papyri 244, and BGU 372 = W. Chr . . 19.

القرار مذكور فى الفصل الثامن •

فيذكر أنه تم عرضهم فى موكب عبر شوارع الاسكندرية وحتى ساحة الاعداء حيث أطيح برؤوسهم (١٠) •

ومن الواضح أن الغالبية العظمى من السكان كانت تعيش فى هدوء ولكن كيف كانوا يعبرون عن سخطهم ؟ بالرغم من أنهم يميلون الى التحمل والاستكانة في أغلب الأوقات الا أن صبرهم كان ينفد أحيانا تحت وطأة نقص الغذاء ، والضرائب والمطالب التى لا تنتهى • وقد حدثت موجات تذمر نجحت الحاميات العسكرية الموجودة فى مناطق البلاد المختلفة فى اخمادها • وهى فى المهد • ولكن موجات احتجاج أخرى سرعان ماتطورت الى ما يقرب من الثورات الشاملة بعد قطاع الطرق بالمشاركة فيها • ومن بين الاضطرابات الكبرى التى وقعت التمرد الذى اشتعل فى عام ١٥٢ م واستمر لأكثر من عام • ولم يسجل عن هذا التمرد سوى القليل من التفاصيل ، فيما عدا انه عرض امدادات الغذاء الى روما لخطر حقيقى ، وهو ما أدى الى مصرع حاكم مصر ، ولم يتم اخماده الا بعد التدخل الشخصى للامبراطور • وكانت انتفاضة عام ١٧٢ — ١٧٣ م أكثر خطورة ، عندما تمركزت فى مستنقعات بوكوليا Boukolia فى دلتا النيل • وهنا أيضا لا تفيدنا التقارير القديمة عن الأسباب التى أدت الى اشتعالها ولكن قائد التمرد كان كاهنا مصريا مما يشير الى نمو الشعور الوطنى • ومما لا شك فيه أن الطاعون الذى اجتاح الامبراطورية الرومانية آنذاك أضعف قبضة السلطة واظهر ضعفها • عامل آخر جعل الحالة صالحة للثورة هو أن احدى الفرقتين العسكريتين المتمركزتين فى مصر كانت قد انسحبت حديثا للمساعدة فى الحرب ضد القبائل الجرمانية التى كانت تضغط على حدود الامبراطورية على نهر الدانوب • وقد تمكن الفلاحون المصريون رغم افتقارهم للتنظيم والسلاح من هزيمة وحدات من القوة الرومانية المتبقية وأوشكوا على الاستيلاء على الاسكندرية • وقد تم استدعاء حاكم اقليم سوريا وكان تحت امرته أقوى فرقة عسكرية فى الجزء الشرقى من الامبراطورية لاستعادة النظام • وقد نجح معتمدا على بذر الفرقة بين صفوف المقاومة أكثر من اعتماده على القتال •

وكما كان الحال بالنسبة للاغريق ، فان المصريين كذلك عبروا عن كراهيتهم للرومان بالقلم بالاضافة الى السيف • ومن بين الكتابات المعادية للرومان التى اكتشفت فى البرديات ، كان البعض ذا طابع مصرى أصيل على الرغم من أنها كتبت باليونانية حتى يقرأها أكبر عدد من الناس • وفى تناقض مثير مع أدب الاستشهاد الخاص بالاغريق ، فان الكتابات المصرية كانت ذات طابع كهنوتى ، تتنبأ بالسقوط الوشيك للحكام الطغاة الفاسقين

---

(١٠) Philostrates, Life of A pollonios of Tyana, Book 5, ch. 24.

وتبشر ببداية عصر ذهبى جديد ينعم فيه المصريون بالسعادة بعد تخلصهم من القهر . أطول القصاصات التى وصلتنا أخذت عنوانها «حكاية (نبوءة) صانع الفخار » من عنصر دائم فى الأساطير المصرية ، يشير هذا العنصر الى أن الاله خنوم ، الخالق ، صنع البشر على عجلة الفخرانى .

ونظرا لأن الأدب الكهنوتى ينمو بالتكرار والاضافة فانه يسمح بدخول خيالات وأفكار ومقتطفات من ثقفات أخرى طالما أنها تنسجم مع مضمونه العاطفى وهدفه الرامى الى الخلاص . وينطبق ذلك على « نبوءة صانع الفخار » فهى تنبع أساسا من عمل مصرى يرجع تاريخه الى العصر الفرعونى، وتظهر فى نصوصها المكتوبة باليونانية والتى ظلت تنسخ وتستنسخ على الأقل حتى نهاية القرن الثالث م ، تظهر عناصر من الأساطير والتاريخ الاغريقى وربما بعض العناصر ذات الأصل الايرانى واليهودى . وقد تم دمج هذه العناصر فى صلب الرواية دون أن تقلل من شأن الرؤية المصرية الصميمة لعصر ذهبى يأتى بعد السقوط المحتوم للحكام الحاليين . والقطعة التالية وهى التى عثر عليها فى أوكسيرنخوس ، واحدة من ثلاث قطع وهى أكبرها وأفضلها حالا ، يقول صانع الفخار :

« بالنسبة لغير الاتقياء ، فان ملكا من سوريا سوف يتغلب عليهم ... وسوف يجافيهم الحظ السعيد ، ويذل أقاربهم وستعم أرضهم الفوضى حتى لا يبقى منها الا مجرد أثر ... وسوف تتجه كل الأشياء نحو نفس الغاية من أجل خدمة الواحد ... وسوف يضرب الموت (بعنف) فى المناطق المرتفعة . وسوف تهجر مدينة لابسى الأحزمة ، والعبيد سيتحررون، وسيحرم سادتهم من الحياة ، وستفسد بناتهم العذارى وسيخصى الرجال أزواج بناتهم ويأتون الفحشاء بأمهاتهم ، وسوف يضطرون للتضحية بأبنائهم الذكور وبأنفسهم ... وسوف يهجر الاله الحامى مدينتهم ، ويتركها خرابا ، ويذهب الى ممفيس حاملة الآلهة . وسيكون ذلك نهاية آلامنا ، حين ... مدينة لابسى الأحزمة تصير خاوية كموقدى جزاء ما ارتكبوا من أعمال مخالفة للقانون ... وسيعود (العدل) الى مصر ، وستصير المدينة المجاورة للبحر مكانا للصيادين يجففون فيها صيدهم ، لأن كنيفس Knephis الاله الحامى سيذهب الى ممفيس حتى يقول المارة « هذه هى المدينة الشاملة التى يعيش فيها كافة أجناس البشر » . وعندئذ سوف تنمو مصر عندما ... موزع الهبات يأتى من الشمس ، ويحتل مركزه هناك بفضل الالهة (ايريس) العظمى ، لدرجة أن أولئك

الذين سيكونون أحياء فى ذلك الوقت سيصـــلون وســيـنهض الأموات ليشاركوا فى النعم التى تأتى بعد انتهاء الآلام » (١١) ٠

ان ادوارد جيبون لم يسمع مطلقا عن « نبوءة صانع الفخار » فقد توفى قبل اكتشاف القصاصة الأولى منها بنحو ٩٩ عاما ٠ بالاضافة الى ذلك فقد كان جيبون يركز اهتمامه على القوى الحاكمة ، ولذلك دخلت مصر حيز اهتمامه فقط عندما فقدها الرومان لصالح العرب ٠ وقبل أن يستغرق فى عمله الرئيسى المتعلق بتدهـور روما كتب ثنـــاء فى الامبراطـورية وهى فى أوج عظمتها :

« اذا طلب من انسان أن يحدد الفترة من تاريخ العالم التى تبتهج فيها الجنس البشرى بأقصى درجات السعادة والرخاء ، فانـه وبـدون تردد سيشير الى الفترة الممتدة من موت دومتيان الى اعتلاء كومودوس ، لقد خضعت المساحة الشاسعة للامبراطورية الرومانية لقوى حازمة مسترشدة بالفضيلة والحكمة ٠ وكانت الجيوش منضبطة بفضل القيـادة الحازمة والرحيمة لأربعة من الأباطرة المتعاقبين استحوزت شخصياتهم وسلطاتهم على الاحترام الصادق ٠ وكانت الادارة المدنية مرسومة بعناية بفضل نرفا Nerva وتراجـان Tragan وهادريـان وأ طونينوس الذين أسعدتهم صورة الحريـة وموقعهـم كرعاة للقانون ٠٠٠٠ ان أعمال هؤلاء الأباطرة كلها فيض من الخير صاحب نجاحها ، فخر صادق بالفضيلة وغبطة بالغة بالسعادة العامة التى نسجوا خيوطها بأنفسهم » (١٢) ٠

ومع ذلك فان مصر وبالتحديد خلال سنوات الازدهار هذه التى تولى فيها الأباطرة المستنيرون الأكفاء مقاليـد الحـكم كانت تعصف بها أخطر الاضطرابات ــ وهى ثورات اليهود على عهد تراجان وهادريان ، وثورات المصريين على عهـد أنطونينوس الملقب بالتقى (Pius) وعلى عهـد الملك الفيلسـوف ماركوس آوريليوس Marcus Aurelius ٠ فكم من سكان مصر ، لنا أن نتعجب ، كان فى استطاعتهم أن يدركوا أن كلمات جيبون كانت تصف العالم الذى يعيشون فيه ؟ ٠

---

(١١) P. Oxy. 2332. ان نبوءة صانع الفخار مثلها فى ذلك مثله الأدب القبطى المتأخر تقدم دليلا واضحا على ما وصفه A. Momigliano بمقدرة بانه « حيوية هذه الثقافة التد » ٠
(Alien Wisdom p. 4)

(١٢) The Decline and Fall of the Roman Empire Ch. 3.

« ملحــق »

اسعار البضائع والخدمات

ان قيمة مقدار من المال مذكور في وثيقة ، يمكن أن نتعرف عليها بدقة من خلال مقارنتها بعناصر أخرى للتكلفة • ومستوى الأسعار المذكورة في الجدول التالى تعتبر دليلا على قيمة المال فى عصرها • وعلينا أن نلاحظ ان الرقم المكتوب بين قوسين يمثل متوسط السعـر • والأرقـام الكبيرة فتمثل اقصى الأسعار التي وصلتها السلع بسبب عوامل فصلية أو حالات ندرة أو ما شابه ذلك من تغيرات • وبعض هذه الأرقام التى تعود الى القرن الثالث تشير الى مدى التضخم الذى شهده ذلك القرن • وأخيرا فالأسعار محددة بالدراخمة •

السلعة أو الخدمة	القرن الأول	القرن الثانى	القرن الثالث
أردب قمح	٣ – ١١	٥ ١/٢ – ٢٠	٨ – ٢٠
	(٧)	(٨)	(١٥)
أردب شعير	٣ – ٤	٤ ١/٢ – ١١	٥ – ٢٠
	(٣ ١/٢)	(٥)	(١٤)
جرة من الخمر	١/٢ – ٧	١ ١/٤ – ٢٤	٩ – ٥٢
	(٥)	(١١)	(١٢)
العمالة (الأجر اليومى) (*)			
الحصاد	١/٣ – ١/٢	٥/٦ – ٢	٢ – ٢ ١/٣
	(١/٢)	(١ ١/٢)	(٢ ١/٦
أعمال زراعية أخرى	١/٣ – ١ ١/٢	١/٣ – ٢	١/٣ – ٦
	(٢/٣)	(٥/٦)	(٢)
صناعات منزلية	١/٢ – ١ ١/٣	١/٢ – ١ ٢/٣	٢/٣ – ٩
رئيس عمال ، مدير ... الخ	٢/٣	(١)	(٤)
	١	١ – ٣	٢
جندى فى فرقة رومانية (يوميا)	٢ ١/٢ – ٣ ١/٣	٤ ١/٦ ٥ ١/٢	٨ ١/٢

منزل (سعر الشراء)	١٨٠ – ١٥٠٠ (٦٠٠)	١٢٠ – ٦٤٠٠½ (٦٥٠)	١٢٥ – ٥٠٠٠ (١٤٠٠)
أرض زراعية بالأروره	١٢ – ٤٩٥ (٩٧½)	٢٠ – ٦٣٦ (١٦٠)	٢٠ – ١٢٠٠ (٢٦٦ ٢/١)
عبد (ذكر)	——— (لا نعلم)	٢٠٠ – ٢٨٠٠ (١٢٠٠)	١٦٠٠ – ١٢٠٠٠ (١٩٦٠)
عبد (أنثى)	٦٠٠ – ٢٠٠٠ (٩٥٠)	٧٠٠ – ١٥٠٠ (١٢٠٠)	٢٢٠٠ – ٤٨٠٠٠ (٣٠٠٠)
عبد (طفل)	٦٤٠	٣٠٠ – ٢٦٠٠ (٧٠٠)	١٦٠٠ – ٥٠٠٠ (٢٦٠٠)

(*) الأجر اليومى المشار اليه لايشمل (أ) الامداد بالطعام حيث كان ذلك معتاد فى حالة المزارع و (ب) العمال من الأطفال الذين كانوا يتقاضون أجرا أقل .

ابيستراتيجوس Epistrategos : رومانى من طبقــة الفرسان يعمــل حاكما لابيستراتيجا وكانت مصر على العهد الرومانى مقسـمة الى ثلاثة ابيستراتيجات وهى من الشمال الى الجنوب الدلتا والأقاليم السبعة ومحافظة أرسنوى وطيبة • وكان الأبيســتراتيجوس مسئولا عن محافظات منطقته •

ابيكريسس epikrisis : أسلوب التثبت من صحة الوضــع الطبقى للفرد سواء كان مدنيا أم عسكريا •

أردب artaba الوحدة الأساسية لكيل المواد الجافة وتستخدم للحبوب وماشابهها • وقد تم اقرار الأردب بسعات مختلفة تبدأ من ٢٤ الى ٤٢ خوينيكيس Choinikes • ويبدو أن الأردب التى كان يجمع للضرائب كان يبلغ ٤٠ choinikes ، وهى كمية تساوى تقريبا ٤٣ لترا أو $\frac{1}{4}$١ بوشل انجليزى (البوشل ٨ جالونات) ولمزيد من التفصيلات والمناقشات راجع :

Zeitschrift für Papyrologie und Epigraphik, 42 (1981), 101.

ارورة aroura كلمة يونانية تعنى أصلا « الأرض المحروثة » ، أما فى مصر الهلينستية والرومانية ، فكانت وحدة لقياس الأراضى تساوى ٢٩٨٢٥ قدما مربعا أو ٦٨ و ٠ آكر أو ٢٧٥ و ٠ هكتار •

استراتيجوس Strategos : لقب الرئيس فى المحافظــة nome وكان يقوم بممارسة السلطة القضائية والادارية ، ولكنه لم يكن يملك سلطات عسكرية كما لم يكن يسيطر على أية جنود •

أوبول obol : وهو فى الأصل وحدة نقدية تساوى $\frac{1}{6}$ دراخمة • ولكن هذه النسبة تغيرت نظرا للسياسة المالية الرومانية •

اوريليوس Aurelius : اسم العائلــة بالنسبة للامبراطور ماركوس أوريليوس (١٦١ ـ ١٨٠ م) • وقد اتخذه عدد من الأباطرة الذين جاءوا بعده دليلا على شرعية حكمهم ، وكان منهم كراكلا • واتخذه سكان الأقليم اسما أول بعد تمتعهم بالمواطنة الرومانية نتيجة لقرار كراكلا فى هذا الشأن فى عام ٢١٢ م •

شيوخ Elders وهم القرويون الذين يقومون بتنفيذ احدى الخدمات الالزامية ، والتى كانت تقع اول مسئولياتها فى نطاق حفظ الأمن

وتقدير الضرائب ، ولكن سرعان ما فقد هذا المصطلح أى علاقة له بالسن وتساوى الرجال بشباب العشرين فى شغلهم لهذه الأعمال ·

برايفكتوس ١ ـ Praefectus Aegypti : حاكم مصر المعين من قبل الامبراطور وممثله ونائبه فى مصر ·

٢ ـ Praefectus militaris وهو ضابط رومانى مسئول عن قسم من القوات المسلحة ·

توبارخى Toparchy : وهو قسم ادارى من المحافظة (النوم) كان يستخدم خاصة فى أغراض جمع الضرائب ·

خدمات الزامية Liturgy : وهى مأخوذة عن الكلمة اليونانية Leitourgia وهو اصطلاح يعنى أيا من الأنشطة المتعددة للخدمات والوظائف العامة الالزامية والتى كان يجب على كل رجل مصرى أداؤها وفى معظم الأحوال كان الرجل يكلف عدة مرات خلال حياته باداء خدماته الزامية ·

خوس Chous الجمع خويس Choes) : معيار للسوائل يعادل لترا ونصف اللتر تقريبا ·

خوينكس Choinix (الجمع : خوينيكيس Choinikes) وهى مكيال للمواد الجافة يعادل لتراً واحداً تقريبا ·

دراخمة Drachma ١ ـ وزن يعادل ٣ر٥ جرام ٢ ـ الوحدة الأساسية للعملة اليونانية والتى استمرت مستخدمة فى شرق البحر المتوسط خلال فترة الحكم الرومانى ـ وهى فى الأصل عملة فضية أعاد الأباطرة الرومان تقييم الدراخمة فى مصر باحثين فى ذلك عن الفائدة المادية · أما الدينار Denarius الرومانى فكان يعادل أربع دراخمات ·

ديكابروتس Dekaprotos : لقب جامع ضرائب الحبوب فى التوبارخى فى النصف الثانى من القرن الثالث ·

ديموطيقى (شعبى) Demotic : هو المصطلح الحديث الذى يطلق على الكتابة المصرية القديمة المختصرة والتى بدأت من القرن السادس ق · م حتى القرن الرابع الميلادى على الأقل · وفيما بعد اقتبس المصريون الحروف اليونانية وطوعوها بما يلائم احتياجات لغتهم القومية ، ذلك باضافة عدة علامات ليست حروف يونانية وقد عرفت الكتابة حينه بالقبطية ·

ستاتر Stater وزن يساوى ٣٥ جراما

سيتولوجوس Sitologos جامع الحبوب . وهى احدى الوظائف التى كان يكلف بها شخص ممن يكلفون بالخدمات الالزامية الاجبارية .

كوتيل Kotyle . معيار للسوائل يساوى ما يقرب من نصف بنت Pint أو ربع لتر (البنت معيار يسع ⅛ جالون وهو معيار أمريكى) .

كيراميون Keramion جرة تستخدم معيارا للخمر والزيت وسائر السوائل الأخرى وهى فى حجمين أحدهما يسع ٦ خوس والثانى ثمانية خوس (= حوالى ٩ و ١٢ لترا على التوالى) . والمترتيس اسم آخر استخدم للدلالة على نفس المكيال .

مترون metron (مقياس) ربما كانت اسما آخر لـ (خوس chous)

متروبولس Metropolis عاصمة النوم (المحافظة) والاسم لا يدل على مكانة عالية كما يفهم من الاستخدام الحالى للكلمة .

مديمنوس medimnos مكيال للمواد الجافة يبلغ أردبين .

مينا mina : ١ ــ وزن ربما كان يساوى ١٦٠ دراخمة أو أقل من ستة كيلو جرامات ٢ ــ وحدة نقدية تساوى مائة دراخمة .

نوم nome : تحريف انجليزى للكلمة اليونانية nomos (الجمع : نوموى) وهى جزء واحد من حوالى ثلاثين قسما اداريا من أقسام مصر ، وكان يرأس كل نوم موظف يلقب بالاستراتيجوس . (فضلت ترجمتها بالمحافظة) .



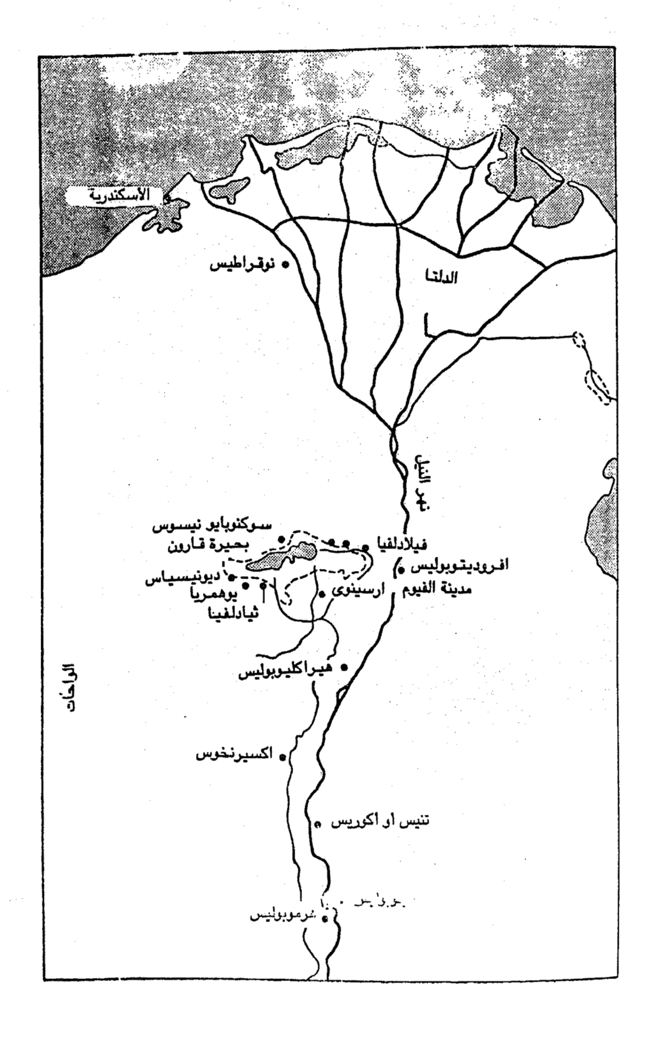
شكل ١ ـ الامبراطور فى هيئة فرعون مصر



شكل ٢ ـ زخرفة حائطية في احد الدور الخاصة بمدينة كارانيس

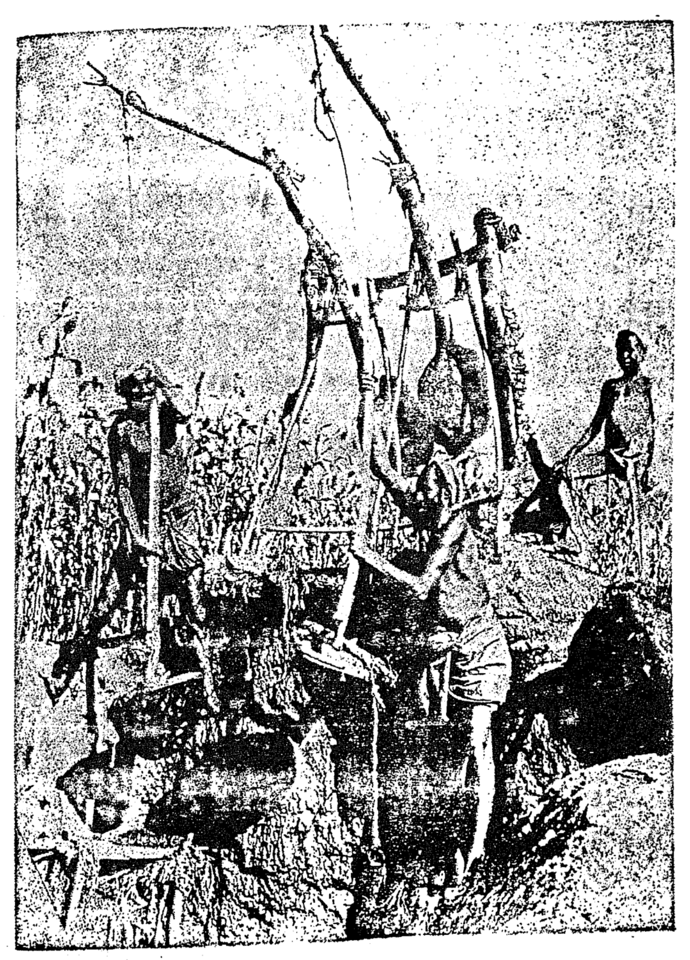


شكل ٣ ـ صورة شخصية لأحد كهنة الشمس فى معبد الإله سيرابيس
كانت تغطى المومياء

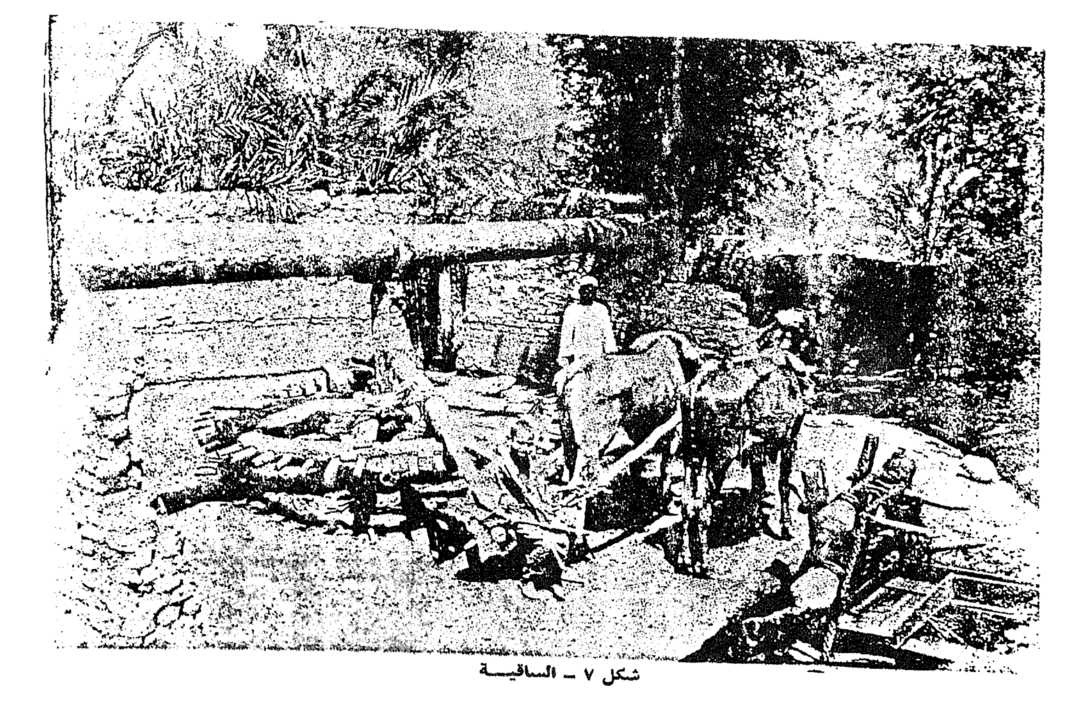

الأسكندرية
نوقراطيس
الدلتا
نهر النيل
سوكنوبايو نيسوس
بحيرة قارون
فيلادلفيا
افروديتوبوليس
ديونيسياس
يوهمريا
ثيادلفيا
ارسينوى
مدينة الفيوم
هيراكليوبوليس
الواحات
اكسيرنخوس
تنيس او اكوريس



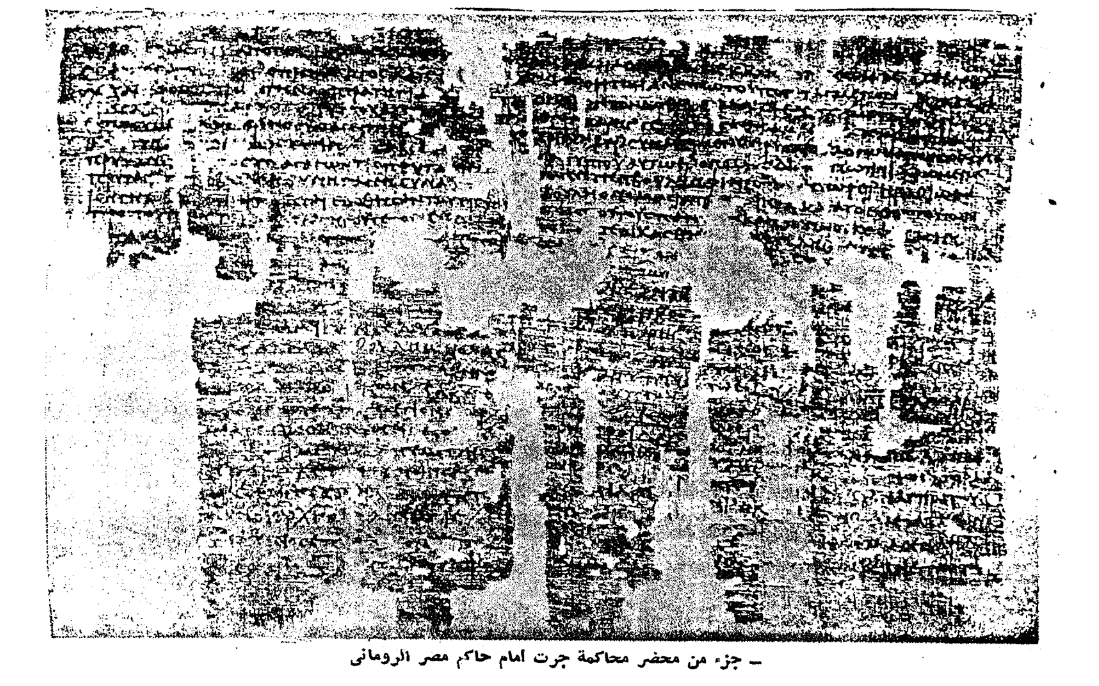
شكل ٥ ـ النيل وقت الفيضان



شكل ٦ ـ الشادوف



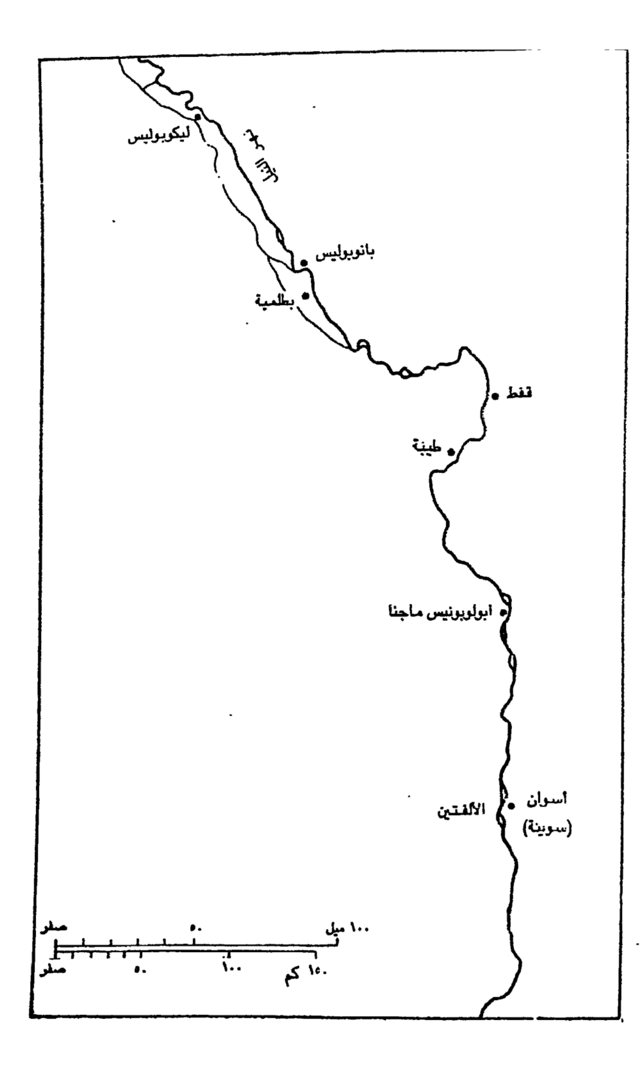
شكل ٧ ـ الساقية



– جزء من محضر محاكمة جرت امام حاكم مصر الروماني



شكل ٤ ـ احتفال ديني



ليكوبوليس
النيل
بانوبوليس
بطلمية
قفط
طيبة
ابولوبونيس ماجنا
أسوان
(سوينة)
الالفنتين
صفر
٥٠
١٠٠ ميل
صفر
٥٠
١٠٠
١٥٠ كم

اللـــوحات

١ ـ الامبراطور كفرعون : مثل الأباطرة الرومان على جدران المعابد المصرية بالمظهــر والدور التقليدى للفراعنــة · وفى هذا المنظـر الموجود فى معبد بالقرب من طيبة · نرى الامبراطور تيتوس (٧٩ ـ ٨١ م) يقف الى اليسار يقوده بعض المعبودات الصغرى الى حضرة المعبود العظيم خنوم Knnum الخالق (وهو غير ظاهر هنا) · (الصورة من متحف بروكلين ، قسم الفن المصرى والكلاسيكى) ·

٢ ـ زخرفة داخلية : حائط فى منزل خاص ذو حجم لا بأس به تم اكتشافه عام ١٩٢٠ م فى قرية كرانيس احدى قرى محافظــة أرسنوى أثناء الحفائر التى قامت بها جامعة متشجان والرسم بألوان زاهية ويمثل حربوقراط Harpokrates (وهو النطق اليونانى لأحــد أسماء الاله المصرى حــورس الذى كان عادة يقرن بابللو) والى جــواره أبو الهول Sphinx وتمثيل لنباتات وحيوانات من مصر ·
الصورة ماخوذة من

Bodleian Liberary, From A.E.R. Boak and Petersen, Karanis 1924-1928, figure 71.

٣ ـ صورة شخصية لمومياء فى مصر الرومانية كانت الصورة الشخصية التى ترسم على لوحات خشبية غالبــا ما توضــع فوق وجوه الموتى كجزء من أكفانهم وقد عثر على بضع مئات من هذه الصور الشخصية الخاصة بالمومياوات ومعظمها معروض فى المتاحف ، هذا المثال فى حالة جيدة جدا ويرجع تاريخه الى بداية القرن الثانى ونلاحظ فيه الواقعية خاصــة فى تصوير الجبهة وتجاعيدهــا ، أما النجمة ذات سبع الأذرع والتى تتوسط الجبهة فتشــير الى أن صاحب الصورة كان كاهنا للشمس فى عبادة سيرابيس ·

(الصورة من المتحف البريطانى) ·

٤ ـ احتفال دينى هذا النقش البارز عثر عليه فى Ariccia قرب روما وهو يبين مدى شعبية العبادات المصرية فى ايطاليا الافريز العلوى يمثل معبدا ضم تماثيل آلهه مصرية على هيئة حيوانات بين

الهين مركزيين (معظم الجانب الأيسر مفقود) ، ربما كانت ايزيس
على اليسار وساربيس على اليمين • أما الافريز الأوسط أو الرئيسى
فيسجل طقس (رقص خليع حيث يمسك الراقصون بالصاجات ،
بينمايصفق المتفرجون (الى اليمين) ويضربون بأيديهم • أما الافريز
الضيق الموجود فى القاع فيمثل طائر أبى منجل Ibis المقدس فى
أوضاع وأعمال مختلفة (Rhotograph : Alinari, Rome) .

٥ ـ النيل أثناء الفيضان : تمتعت المناظر النيلية ـ التى تعود بأصلها الى
الفن الأسكندرى ـ بشعبية واسعة فى الامبراطورية الرومانية • كما
نرى على العديد من الحوائط فى بومبى Pomeii والتى تعود الى
القرن الأول ، وكذلك على كنائس القرن السادس فى قورينى
Cyrenaica • المنظر هنا يعكس افتتان الرومان بالمناظر المصرية
الغريبة ، هذه القطعة من الموزايكو كانت أرضية اكتشفت منذ
ما يقرب من أربعمائة سنة ضمن أطلال معبد إلهة الحظ Fortuna
فى باليسترينا Palestrina (برانستى القديمة Praeneste
بالقرب من روما • تبلغ مساحة الموزايكو ٥ر٤ × ٧ مترات ولذا فهى
تعد من بين أكبر قطع الموزايكو القديمة التى تم اكتشافها • التفاصيل
المركبة التى تعرضها اللوحة بسخاء تمثل فى النصف الأيمن منظرا
طبيعيا لفيضان النيل ، يجمع بين الواقع والخيال • « والموزايكو
تصوير لما يمكن أن يراه طائر بعينيه لكنه بمقياس كبير » • هذا
المنظر الطبيعى يتكون من نصفين مميزين : أرض صخرية مرتفعة
تسكنها حيوانات غريبة معظمها تم تعريفه بكتابة اسمه باليونانية •
ومنطقة مستنقعات منخفضة يتناثر فيها معبد يجمع بين الطراز
المصرى اليونانى المشترك بالاضافة الى بعض المبانى المتواضعة مثل
المنازل التى تبدو كالأبراج ، والأكواخ والمآوى المصنوعة من البوص
وأبراج الحمام • وبين المساحات الأرضية تنتشر المياه التى تزخر
بالقوارب الكبير منها والصغير بدءا من الزوارق المصنوعة من
البردى التى تتسع لشخص واحد وحتى قوارب البضاعة ، وأيضا
سفينة حربية وأخرى للصيد عليها مقصورة • وقطعة الموزايكو تصور
أيضا أشخاصا فنرى فى جزئها العلوى صيادين ذوى بشرة سوداء ،
أو فى الجزء الأسفل فنرى صيادين فى رداء العمل وكهنة فى أرديتهم
المصرية المميزة ، وأيضا بعض المدنيين والجنود • والمجموعة الأخيرة
تشترك فى منظر يعلو بروزا فى مقدمة الصورة •

H. Whitehouse, The Dal Pozzo Copies of the Palestrina Mosaic (British Archaeological Reports, Supplementary Series, 12, 1976), p. 3. Photograph : The Mansell Collection'.

٦ ـ ٧ الزراعة : ضخ المياه ، فلاحون مصريون من العصر الحديث يستخدمون نفس أنواع الآلات كما كان يفعل أجدادهم منذ الفى عام لدفع المياه من النيل وقنواته المتفرعة لرى الحقول · الشادوف (صورة رقم ٦) والساقية (صورة رقم ٧) انظر الفصل السادس ·
Photograph : B.B.C. Hulton Picture Library.

٨ ـ الوالى كقاض : الصورة البردية موجودة حاليا فى المكتبة البريطانية وهى تسجل النزاع الذى حدث فى عام ٢٥٠ م وسبقت الاشارة اليه فى الفصلين الثالث والتاسع : شغلت وقائع الجلسة التى حضرها الحاكم العام ما يزيد عن خمسة أعمدة ـ الصورة تقدم العمود الثانى منها ـ والبردية كمعظم البردى الذى عثر عليه عدة أجزاء نتيجة لطول بقائها فى رمال الصحراء · وهذه البردية الناقصة تبين مدى الجهد الذى يبذله علماء البردى من أجل اعادة تجميع صورة الحياة على أرض مصر فى ذلك الوقت
(Photograph : Ashmolean Museum)

